المستشرقون والإسلام

محمد قطب

مع الإسلام

ضد الإسلام

مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية عابدين
القاهرة - تليفون - ٣٩١٧٤٧٠


منتدى سور الأزبكية



محمد قطب

المستشرقون والإسلام

الناشر
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية . عابدين
القاهرة - تليفون ٣٩١٧٤٧٠

الطبعة الأولى

١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م

مطبعة المدني المؤسسة السعودية بمصر
٦٨ شارع العباسية - القاهرة - ت: ٤٨٢٧٨٥١

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾

[البقرة: ١٢٠]

صدق الله العظيم

بسم الله الرحمن الرحيم

بين يدى الكتاب

قد لا يصدق القراء - وأنا نفسى لا أصدق أحياناً - أن هذا الكتاب قد كتب لأول مرة - أو كتب الجزء الأساسى منه - قبل ما يقرب من خمسة وثلاثين عاماً.

كتبته فى رمضان من عام ١٣٨٥، الموافق لشهر يناير من عام ١٩٦٥. وكان قد تبقى منه فصل واحد. أرجأت كتابته حتى أجد له فسحة من الوقت، بعنوان «نماذج من كتب المستشرقين». فكتبت ما قبله وما بعده، وتركت له فراغا فى وسط الكتاب، حتى تتاح لى فرصة - كنت أظنها قريبة - أختار فيها نماذج مما كنت قد قرأت من كتب المستشرقين، فأعرضها وأعلق عليها.

ولكن أحداثا كثيرة وحادة، باعدت بينى وبين تلك الفرصة المرتقبة. فقد جاءت أحداث عام ١٩٦٥ التى غيبتنا عن الوجود الخارجى أكثر من ست سنوات، وغيبتنا كذلك عن الكتب والقراءة والكتابة والأوراق والأقلام والصحف والإذاعة، وكل ما يدور فى عالم الأحياء! كما غيبت أعزاء ذهبوا ضحية العسف الذى كان قائماً يومئذ، والذى كان يحيط ذوى الاتجاه الإسلامى بألوان من القهر والتعذيب لم تسمع بها الأجيال..

فلما عدنا إلى الحياة الخارجية ترددت فى إكمال الكتاب ونشره..

لقد كتبته أول مرة في وقت كنت ألحظ فيه فتنة جائحة بما يكتبه المستشرقون عن الإسلام. وكان هدفى من كتابته التصدى لهذه الفتنة الجائحة، وتعريف الشباب خاصة بحقيقة الاستشراق ودوافعه، فقد كنت قد قرأت من

كتب المستشرقين ما أكّد لى بعدهم الكامل عن روح الإنصاف، وعن روح «البحث العلمى» التى يدعونها، وكنت قد قرأت كذلك من كتابات «المثقفين» الذين يحملون أسماء إسلامية، ما أكّد لى مدي تأثرهم بأفكار المستشرقين. فما من رأى يكتبونه أو فكرة يعرضونها إلا ولها أصل فى كتابات أولئك المستشرقين.

لذلك رأيت فى وقتها أن من واجبى أن أكشف للشباب تلك الحقيقة بجانبيها: جانب المستشرقين وما يكتبون، و «المثقفين» وما ينقلون من أفكار المستشرقين.

ولكنى حين عدت إلى الكتابة مرة أخرى وجدت قدرا من التغير قد طرأ على الساحة. فمن جانبٍ أحسست كأن الفتنة بالمستشرقين قد خفت حدتها عن الوقت الذى كنت قد عزمت فيه على الكتابة فى الموضوع، ثم إن بعض الكتابات قد أخذت تظهر، تبين حقيقة المستشرقين، بعد أن كان من النادر - إن لم يكن من المستنكر - وقت بدأت الكتابة فيه أن يعرض أحد للمستشرقين بنقد! فقد كان الانبهار بما يكتبون، يجعل من يتعرض لهم بشيء من النقد، كمن ينكر معلوما من العلم بالضرورة، فيتهم بالتعصب وضيق الأفق وفقدان الروح العلمية إن لم يتهم بأشد من ذلك!

عندئذ قلت فى نفسى: إذا كانت هذه الثغرة قد سدت، فلأكتب فى موضوعات أخرى مما يشغل خاطرى، وأحس بالرغبة فى الكتابة فيه، أداءً لواجب «البيان» الذى تحتاج إليه الدعوة فى غربة الإسلام الثانية، التى أخبر عنها رسول الله ﷺ حين قال: «بدأ الإسلام غريباً وسيعود كما بدأ غريباً» (١) فكتبت «دراسات قرآنية» و «منهج التربية الإسلامية» (٢) و «مذاهب فكرية معاصرة» و «واقعنا المعاصر» و «كيف نكتب التاريخ الإسلامى» وغيرها من الدراسات، وشغلت عن أمر الاستشراق والمستشرقين بعملى فى الجامعة وفى مجالات الدعوة الأخرى.

---

(١) أخرجه مسلم. (٢) الجزء الثانى.

ولكن ظل بعض الأصدقاء - ممن كانوا قد علموا شيئاً عن كتاب « المستشرقون والإسلام » - يطالبوننى بالعودة إليه، وإتمامه ونشره، ملحّين علىّ بأن الباب لم يغلق، وأن ما صدر من كتب عن الاستشراق لا يمنع من ظهور دراسات أخرى فى الموضوع، وأن لكل إنسان طريقته فى الكتابة، وزاويته التى يهتم بها أكثر من غيره؛ وأنه إن كانت الفتنة بالمستشرقين قد خفت حدتها، فإن أفكارهم ما تزال تنتشر على يد « المثقفين » الذين يحملون أسماء إسلامية ويكتبون بالعربية.

لذلك عدت إلى الكتاب، وعزمت على المضىّ فيه..

والله من وراء القصد، وبه الاستعانة ومنه التوفيق ،،،

محمد قطب

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

للمستشرقين اهتمام قديم بالإسلام والعالم الإسلامى تمتد آثاره فى العصر الحاضر. فهم دائبون على عمل البحوث والدراسات في هذا الشأن، ولهم فى ذلك كتب ومقالات، ودوريات منتظمة ومحاضرات، إلى جانب المؤتمرات الدورية التى يقيمونها، سرية مقصورة على أنفسهم تارة، وعلنية يدعى إليها بعض الباحثين المسلمين تارة أخرى، ويتناولون فيها حاضر المسلمين بصفة خاصة، وماضيهم، ومستقبلهم المنظور، كما يتناولون الإسلام ذاته من جوانب شتى.

ويَعْجَب كثير من المسلمين لهذا النشاط غير العادى، ويتساءلون فيما بينهم: ما الذى يدفع المستشرقين إلى هذا الاهتمام البالغ بكل ما يتعلق بالإسلام والمسلمين، بينما هم أنفسهم – المسلمون – لا يرون أنفسهم أهلا لهذا الاهتمام كله! ولا يرون تراثهم مستحقا كل هذا الجهد! ثم يروحون يعزون هذا الاهتمام إلى أسباب غير أسبابه الحقيقية، فمن قائل: إن هذا طبع فى الغرب.. أن يتناول كل شيء بالبحث والدراسة المستفيضة من أجل المعرفة ذاتها؛ ومن قائل: إنها هواية شخصية لأولئك المستشرقين، يرضون فيها حب استطلاعهم، ويفرغون طاقاتهم. إلى آخر هذه الأسباب «الطيبة» الساذجة التى تأخذ الأمور من ظواهرها، ولا تصبر على استطلاع الهدف الكامن وراء الاستشراق والمستشرقين.

وفريق آخر يأخذه الإعجاب بهذا النشاط «العلمى» الذى يتناول من أمور المسلمين ما لا يتناولونه هم أنفسهم، وينشر من تراثهم ما كان ينبغى أن يقوموا هم بنشره وتحقيقه. ومن ثم يُكْبِرُ فيهم جلدهم وصبرهم ودقتهم فى البحث، فيروح يتتلمذ عليهم، فينقل عنهمْ، ويأخذ عنهم مفاهيم دينه.

وهؤلاء وهؤلاء ينقصهم ولا شك الوعى بحقيقة الحركة الاستشراقية وأهدافها الحقيقية ووسائلها.

ثم إن هؤلاء وهؤلاء لا يراجعون أوامر دينهم، ولا يتبعون توجيهات ربهم التى أنزلها عليهم ليرشدهم إلى حقائق الأشياء.

إن الله سبحانه وتعالى يقول مخاطباً رسوله ﷺ، والأمة الإسلامية من ورائه: ﴿ **وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ** ﴾ [سورة البقرة: ١٢٠]. وهو قول حاسم فاصل لا يحتمل المراجعة. فهذا التقرير القاطع من العليم الخبير يؤكد أن اليهود والنصارى - وهم الفئتان اللتان يتألف منهما الغالبية العظمى من المستشرقين - لن يرضوا عن الإسلام والمسلمين قط إلا إذا اتبعوا ملتهم. ومن ثم فلا يمكن - أصلا - أن يقولوا فى الإسلام قول الحق، مهما رأوا آيات الحق ظاهرة واستيقنتها أنفسهم. أما ما يقولونه من الحقائق عن الإسلام ورسوله أحيانا فليس تجردا علميا منهم، ولا إيمانا بالحق لأنه حق - ولو آمنوا به لأسلموا[١]: - وإنما هو وسيلة للفتنة وضحها الله للمؤمنين منذ أربعة عشر قرنا ونيفا حين قال لهم: ﴿ **وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ..** ﴾ [آل عمران: ٧٢ - ٧٣]. فهى إذن سياسة مرسومة، لإيهام المسلمين بأنهم دعاة حق، وأنهم يؤمنون بالحق حين يرونه، فإذا كفروا «ببعض» ما يؤمن به المسلمون، أو كفروا به كله، فإنما ذلك نتيجة بحثهم المجرد عن الحق! فإذا دخل هذا الوهم نفوس المسلمين فلعلهم «يرجعون»!

والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ** ﴾ [آل عمران: ١٠٠]، ويقول: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ * هَا أَنتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ..** ﴾ [آل عمران: ١١٨ - ١١٩].

---

(١) أسلم بعضهم بالفعل ولكنهم قلة نادرة بين جموع المستشرقين.

وهو بيان واضح لأهدافهم، وتحذير حاسم من اتباعهم فى أى أمر من أمور الدين.

ثم إن الله يقول عن أعداء هذا الدين عامة، وهم الفئات الأربع الذين يرد ذكرهم كثيراً فى السور المدنية، والطوال منها بصفة خاصة، وهم اليهود والنصارى والمشركون والمنافقون: ﴿ **وَلا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا** ﴾ [البقرة: ٢١٧] وهى صيغة تفيد الاستمرار إلى ما شاء الله، ولا تقتصر على عصر أو فترة أو جيل..

وهذه التوجيهات كلها – ومثلها فى القرآن كثير – كانت كفيلة أن تبصر المسلمين بأهداف المستشرقين ووسائلهم، وتمسح الغشاوة عن أعين المخدوعين فيهم منهم، فيعرفوا سر اهتمامهم بالإسلام والمسلمين، ويعرفوا كيف يكون موقفهم من أعداء هذا الدين.

* * *

يقول المستشرق النمساوى «ليوبولد فايس» الذى أسلم وسمى نفسه «محمد أسد» فى كتابه «الإسلام على مفترق الطرق»: «.. قد لا تتقبل أوربا تعاليم الفلسفة البوذية أو الهندوكية، ولكنها تحتفظ دائما فيما يتعلق بهذين المذهبين بموقف عقلى متزن ومبنى على التفكير. إلا أنها حالما تتجه إلى الإسلام يختل التوازن، ويأخذ الميل العاطفى بالتسرب، حتى إن أبرز المستشرقين الأوربيين جعلوا من أنفسهم فريسة التحزب غير العلمى فى كتاباتهم عن الإسلام. ويظهر فى جميع بحوثهم على الأكثر كما لو أن الإسلام لا يمكن أن يعالج على أنه موضوع بَحْتٌ فى البحث العلمى، بل على أنه متهم يقف أمام قضاته. إن بعض المستشرقين يمثلون دور المدعى العام الذى يحاول إثبات الجريمة، وبعضهم يقوم مقام المحامى فى الدفاع، فهو مع اقتناعه شخصيا بإجرام موكله، لا يستطيع أكثر من أن يطلب له مع شىء من الفتور «اعتبار الأسباب المخففة». وعلى الجملة فإن طريقة الاستقراء والاستنتاج التى يتبعها أكثر المستشرقين تذكرنا بوقائع دواوين

التفتيش، تلك الدواوين التى أنشأتها الكنيسة الكاثوليكية لخصومها فى العصور الوسطى، أى أن تلك الطريقة لم يتفق لها أبداً أن نظرت فى القرائن التاريخية بتجرد، لكنها كانت فى كل دعوى تبدأ باستنتاج متفق عليه من قبل، قد أملاه عليها تعصبها لرأيها » (١) .

ويقول : « والواقع أن المستشرقين الأولين فى الأعصر الحديثة كانوا مبشرين نصارى (٢) يعملون فى البلاد الإسلامية، وكانت الصورة المشوهة التى اصطنعوها من تعاليم الإسلام وتاريخه مدبرة على أساس يضمن التأثير فى موقف الأوربيين من « الوثنيين » . غير أن هذا الالتواء العقلى قد استمر، مع أن علوم الاستشراق قد تحررت من نفوذ التبشير، ولم يبق لعلوم الاستشراق هذه عذر من حمية دينية جاهلية تسيىء توجيهها . أما تحامل المستشرقين على الإسلام فغريزة موروثة، وخاصة طبيعية، تقوم على المؤثرات التى خلفتها الحروب الصليبية، بكل ما لها من ذيول، فى عقول الأوربيين » (٣) .

ومع ذلك ففى الشرق الإسلامى « مسلمون » لا يأخذون أفكارهم عن الإسلام إلا من هؤلاء المستشرقين ! !

* * *

إن حركة الاستشراق أخطر بكثير مما تبدو « للطيبين » الذين يرون ألا خطر منها على نفوس المسلمين، مادام أن أحدا لم يتهود أو يتنصر حين قرأ ما يكتبه المستشرقون !

إن هؤلاء هم أنفسهم – دون أن يدركوا – هم فريسة للكيد الاستشراقى الماكر، أو قل بعبارة أدق : الكيد الصليبى الصهيونى الماكر، الذى أدخل فى روعهم أن الإسلام هو مجرد أن يحمل الإنسان اسما إسلاميا : محمد أو أحمد أو على . . وأن يؤدى – إذا شاء – بعض الشعائر التعبدية، ولا عليه بعد ذلك أن يكون منهج حياته كله، ومنهج تفكيره كله، مستمدا من غير الإسلام !

---

(١) الإسلام على مفترق الطرق، ترجمة الدكتور عمر فروخ، الطبعة الأولى ص ١٥ .
(٢) لا يمنع هذا من وجود مستشرقين يهود ! (٣) المرجع السابق ص٥٨ .

هؤلاء لم يقرأوا – ولعلهم إن قرأوا لا يدركون – ما قاله الأب زويمر فى مؤتمر المبشرين المنعقد في القاهرة سنة ١٩٠٦ م، حين قام بعض المنصرين يعلنون فشلهم فى مهمتهم، ويشكون من أنهم يبذلون كل ما فى وسعهم فى عملية التنصير، ثم لا يدخل فى النصرانية إلا طفل صغير خطفوه من أهله قبل أن يعلم عقيدة أهله، أو رجل مسنّ جاء من أجل المال ولا يضمنون عقيدته مع ذلك! فقام زويمر يقول لهم: «لا ينبغى أن يقنط المبشرون حين يرون نتيجة جهودهم ضعيفة. إن مهمتنا الأولى ليست هى تنصير المسلمين.. وإنما هى صرف المسلمين عن التمسك بالإسلام، وفى هذا نجحنا نجاحا باهرا بكل تأكيد..» [1].

* * *

إن الصليبية العالمية والصهيونية العالمية لها أهداف محددة تجاه الإسلام، تتلخص فى محاولةالقضاء عليه بكل الوسائل التي يمكن استخدامها فى هذا السبيل. والاستشراق كان – وما يزال – إحدى هذه الوسائل المرصودة لمحاولة القضاء على الإسلام. ولذلك ترصد له الدول الصليبية الصهيونية كل الإمكانات «العلمية» والمالية والمادية.

إن الحرب العسكرية والسياسية والاقتصادية كلها تؤدى – وقد أدت بالفعل فى وقت من الأوقات – إلي إخضاع العالم الإسلامى للنفوذ الصليبى الصهيونى. ولكنها – وحدها – قد لا تؤدى – ولم تؤد بالفعل – إلى صرف المسلمين عن التمسك بالإسلام، وهو الضمان الوحيد لاستمرار السيطرة الصليبية الصهيونية على العالم الإسلامى، كما قال جلاد ستون رئيس الوزارة البريطانية فى مجلس العموم البريطانى عام ١٨٨٢ م – بعد الاحتلال الانجليزى لمصر – إذ أمسك بالمصحف فى يده، وقال: طالما كان المصريون متمسكين بهذا الكتاب فلن يقر لنا قرار فى تلك البلاد!!

---

(١) راجع كتاب الغارة على العالم الإسلامى: تأليف ا. شاتلييه، تعريب محب الدين الخطيب ص ٤٧ طبعة القاهرة.

والصليبية الصهيونية تعلم ذلك حق العلم. تعلم أن الحرب العسكرية والسياسية والاقتصادية - وحدها - لا تكفى لدوام السيطرة على العالم الإسلامى، إذا بقى أهله متمسكين بالإسلام.

ولكن جهود التنصير، ومن بعدها جهود الاستشراق - وهى مجرد امتداد لها كما قال محمد أسد - استطاعت أن تفعل كثيراً فى هذا الشأن: شأن صرف المسلمين عن التمسك بالإسلام، وفتنتهم عن مصدر قوتهم الحقيقى، فكانت بذلك أكبر سند للاستعمار الصليبى الصهيونى، وكانت هى التى جعلت الحرب العسكرية والسياسية والاقتصادية تؤتى ثمارها فى نهاية المطاف.

* * *

ولأن الكيد الصليبى الصهيونى ماهر وماكر، فإن كثيراً من المسلمين لا يفطنون إلى حقيقة هذا الكيد، ومدى توغله فى مشاعرهم وأفكارهم وسلوكهم الواقعى، ومدى تحويله إياهم عن حقيقة الإسلام!

ولابد من تدبر واعٍ لهذا الأمر..

تدبر واعٍ لتاريخ المستشرقين، وأسباب نشأتهم، وأهدافهم ووسائلهم، ومجموعة الأفكار التى ينثرونها كالحبائل فى طريق المسلمين لتشتيت جهودهم، وشغلهم عن التجمع تحت راية الإسلام كما أمرهم الله.

وهذا الكتاب محاولة فى هذا السبيل..

وما أزعم بطبيعة الحال أننى قرأت كل ما كتبه المستشرقون، ولا يزعم ذلك أحد من الناس!

ولكننى أعتقد مع ذلك أننى قرأت من كتبهم ومقالاتهم وبحوثهم - إما بالانجليزية وإما مترجما إلى العربية - ما يكفى لأن ألم بأهدافهم وأتعرف على وسائلهم، ومن حصيلة هذه المعرفة أقدم هذا الكتاب.

والله وحده هو الموفق لما يريد..

من هم المستشرقون ؟

الاهتمام بدراسة اللغة العربية والعلوم الإسلامية – التى هى موضوع الاستشراق – أمر قديم جدا فى أوربا، يرجع إلى العصور الوسطى. ولكنه اتخذ أطواراً مختلفة، متأثراً فى كل طور بالدوافع الدينية والسياسية والاقتصادية والثقافية فى أوربا.

فإذا تتبعنا اتجاه الغرب لدراسة الإسلام والعلوم الإسلامية منذ القرن العاشر الميلادى تقريباً حتى القرن العشرين، فإننا نستطيع أن نميز على وجه الإجمال أطواراً أربعة – على الأقل – واضحة المعالم، كل منها يعبر عن موقف معين لأوربا باتجاه الإسلام.

ففى بداية الطور الأول كانت أوربا تعيش فى جهالة «القرون الوسطى المظلمة» كما سمت تاريخها فى تلك الفترة، ولم يكن لديها مصادر ذاتية للمعرفة النافعة. وحين بدأت تفيق من جهالتها – على إثر احتكاكها بالمسلمين فى الأندلس والشمال الأفريقى – لم يكن أمامها من سبيل للتعلم والمعرفة إلا أن تتلمذ على المسلمين وتقرأ كتبهم ومؤلفاتهم. فانطلقت البعوث الأوربية إلى الأندلس وشمال أفريقيا، يتعلم طلابها العربية ويدرسون علوم الإسلام، ويأخذون عن الأساتذة المسلمين علوم الطب والفلك والفيزياء والكيمياء، والجبر والحساب والهندسة وما إليها، والفلسفة و «الميتافيزيقا» (علم ما وراء الطبيعة).. على نحو ما نفعل نحن اليوم من إرسال بعوثنا إلى الغرب لتلقى العلم والتمرس به.

وفى الطور الثانى كانت العلوم الإسلامية واللغة العربية قد توغلت في قلب أوربا وأثرت فى الفكر الأوربى كله، آدابه وفنونه وعلومه وفلسفته، وفى الحضارة الأوربية كلها على وجه العموم، ولكن كان الشعور نحو الإسلام والمسلمين قد انقلب عداوة ضارية بشعة، فقد خشيت الكنيسة الأوربية على نفوذها من تأثير الإسلام فى الفكر الأوربى، فراحت تجند قواها كلها لتنفير الأوربيين المسيحيين من الإسلام، بتصويره لهم فى صورة منكرة لا يقبل عليها أحد، وكلفت كتابها وأدباءها وشعراءها وفنانيها أن يقوموا بهذا التشويه المتعمد (وخاصة بعد انتهاء

الحروب الصليبية بهزيمة منكرة)، وفى تلك الفترة لقب المسلمون بالوثنيين (!) والكفرة (!) وأعداء المسيح (!) ولقب الرسول ﷺ بأبشع النعوت التى سمحت «أخلاق» الكنيسة بإطلاقها على شخصه الكريم.

وفى الطور الثالث كان العالم الإسلامى قد ضعف ضعفاً شديداً لانصرافه التدريجي عن حقيقة دينه، وعن الأخذ بأسبابه، وتحول الدين فى حسه إلى مظاهر خاوية لا تقوم عليها أمة حقيقية. عندئذ انقضّت الصليبية المتربصة، تساندها الصهيونية بأموالها وعملائها، منتهزة هذه الفرصة التى كانت تتطلع إليها منذ قرون.. منذ أن ارتدت جيوش أوربا مهزومة فى الحروب الصليبية الأولى، فراحت - فى فرصتها الجديدة السانحة - تحتل بلدان العالم الإسلامى واحداً إثر الآخر، وتعيث فساداً فيه، وتكل جانبا من هذا الفساد إلى المنصرين (المبشرين) [1] يقومون فى مبدأ الأمر بمحاولة يائسة لتنصير المسلمين، ويفشلون فيها، ثم يقومون بالمحاولة الناجحة التى أشار إليها الأب زويمر، لصرف المسلمين عن التمسك ببقايا ما كانوا يتمسكون به من الإسلام، ودعم الاستعمار الصليبى، الحربى والسياسى والاقتصادى، عن هذا السبيل.

وفى الطور الرابع والأخير، القائم اليوم، تراجع التنصير عن صورته المكشوفة فى كثير من أرجاء العالم الإسلامى [2]، ليلبس مسوح «العلم» و«البحث العلمى» بدلاً من مسوح الرهبان والمنصرين، ليؤثر على الطبقة المثقفة التى تتولى قيادة الأمة، ويكون أفعل فى صرف المسلمين عن التمسك بالإسلام، وأقدر على التأثير فيهم من المنصرين المكشوفين الذين يثيرون حفيظة المسلمين بهجومهم السافر على الإسلام،فيدفعونهم بهذا الهجوم إلى التمسك بطرف من هذا الدين. ولكن الذى يجب الالتفات إليه أن كلا المنصرين الصرحاء والمستشرقين قد أخذ

---

(١) الأولى أن نستخدم كلمة «المنصرين» بدلا من «المبشرين» التى لا تبين حقيقة العمل الذى يقومون به.

(٢) مازال التنصير يبذل نشاطاً ضاريا فى أفريقيا وأندونيسيا وبنجلادش فضلاً عن استغلاله كوارث المسلمين فى كل مكان.

من ذات البضاعة التى كانت الكنيسة الأوربية قد أمرت بإعدادها أول مرة لتنفير أوربا من الإسلام، وصرفها عن التوجّه إليه، والتى آتت ثمارها فى أوربا أول مرة فصدتها عن الإسلام، ثم عادت الصليبية اليوم تستخدمها ضد المسلمين أنفسهم لتنفيرهم من الإسلام وصدهم عنه، حين وجدت الفرصة مهيأة للمحاولة.

وهذا الطور الأخير من أطوار الاستشراق هو موضوعنا فى هذا البحث، ولكننا لا نستطيع أن نقفز إليه قفزاً دون أن نمر مروراً سريعاً على الأطوار الثلاثة التى سبقته، لنعرف خط الزمن، ودلالة التاريخ..

* * *

فى العصور الوسطى الأوربية، التى تسميها أوربا بحق عصور الظلام، لم يكن فى الأرض كلها نور يسطع إلا النور الإسلامى والثقافة الإسلامية.

كان المسلمون قد مدوا فتوحاتهم شرقاً وغرباً حتى وصلوا من كلا الجانبين إلى المحيط، كما كانوا قد وصلوا إلى أوربا فأقاموا دولة عظيمة فى الأندلس، ونفذوا منها إلى جنوب فرنسا وصقلية وجنوب إيطاليا، وانتشروا فى بقاع أخرى متفرقة يحملون معهم في كل مكان روحهم العلمية المتوثبة التواقة إلى المعرفة.

ولم يكن «العلم» ذاته ميراثا عربيا ورثه المسلمون عن العرب فى الجاهلية، فما كان العرب فى الجاهلية يتجهون إلى شىء من المباحث العقلية أو العلمية، إنما كان همهم منصرفا إلى قول الشعر والتنافس فيه، وحفظ الأنساب للتفاخر بها فى الصراعات القبلية الصغيرة التى كانت تشغلهم. إنما كان العلم نتاجا إسلاميا، تولد فى نفوس المسلمين من توجيهات القرآن والسنة، وممارسة الحياة فى ظل الإسلام.

لقد وجه القرآن المسلمين إلي تدبر آيات الله في الكون، وأمرهم أن يسيروا فى الأرض لينظروا فى هذه الآيات:

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ

مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ١٦٤] .

﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ﴾ [العنكبوت: ٢٠] .

﴿ وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ * وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ ﴾

[الذاريات: ٢٠ ، ٢١].

ثم وجههم كذلك إلى أنه لا بد من ثمرة واقعية للمعرفة . فالمعرفة النظرية وحدها لا تكفى، سواء فى العقيدة ذاتها أو فى حياة الناس الواقعية :

﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً .. ﴾

[النحل: ٩٧].

﴿ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ ﴾

[الرعد: ١٧].

« .. وأعوذ بك من علم لا ينفع » [١] .

وهكذا تعلم المسلمون من الإسلام أمرين فى آن واحد : أن يبحثوا ويتدبروا فى آيات الخلق، ثم يخرجوا من بحثهم وتدبرهم بثمرة عملية تنفع الناس فى حياتهم . ومن ثم ولد المنهج التجريبى على أيدى المسلمين.

يقول بريفولت فى كتاب « بناء الإنسانية Making of Humanity » :

« ... فالعالم القديم – كما رأينا – لم يكن للعلم فيه وجود . وعلم النجوم عند اليونان ورياضياتهم كانت علوما أجنبية استجلبوها من خارج بلادهم وأخذوها عن سواهم، ولم تتأقلم فى يوم من الأيام فتمتزج امتزاجاً كلياً بالثقافة اليونانية . وقد نظم اليونان المذاهب وعمموا الأحكام ووضعوا النظريات . ولكن أساليب البحث في دأب وأناة، وجمع المعلومات الإيجابية وتركيزها، والمناهج التفصيلية للعلم، والملاحظة الدقيقة المستمرة، والبحث التجريبى، كل ذلك كان

(١) من دعاء الرسول ﷺ .

غريباً تماماً عن المزاج اليونانى . أما ما ندعوه « العلم » فقد ظهر فى أوربا نتيجة لروح من البحث جديدة، ولطرق من الاستقصاء مستحدثة، من طرق التجربة والملاحظة والمقاييس، ولتطور الرياضيات إلى صورة لم يعرفها اليونان، وهذه الروح، وتلك المناهج العلمية، أدخلها العرب إلى العالم الأوربى » (١) .

ويقول دريبر، الأستاذ بجامعة نيويورك فى كتابه « النزاع بين العلم والدين » :

« تحقق علماء المسلمين أن الأسلوب العقلى النظرى لا يؤدى إلى التقدم؛ وأن الأمل فى وجدان الحقيقة يجب أن يكون معقوداً بمشاهدة الحوادث ذاتها . ومن هنا كان شعارهم فى أبحاثهم الأسلوب التجريبى، والدستور العلمى الحسى . . » (٢) .

وتقول زيجريد هونكة العالمة الألمانية فى كتابها « الله ليس كذلك » (٣) .

« إن العالمَ العربى قد صار بلا ريب - كما أفضنا في كتابنا « شمس الله تشرق على الغرب » - مؤسس علوم الكيمياء العضوية . هذا ولم يتردد العرب بحال من الأحوال فى امتحان الفروض اليونانية وإخضاعها لمعايير النقد العربية التجريبية - وكان معظم تلك الفروض لا أساس له سوى التخمين - لعديد من الاختبارات والتجارب، وصوبوا (٤) مئات ومئات من تلك الفروض العلمية الخاطئة، ولا بأس أن نكتفى هنا بثلاثة منها :

١ - خطأى جالينوس اللذين بينهما المشرّح العربى الطبيب عبد اللطيف أحد أطباء صلاح الدين الأيوبى وقد صوبهما (٥) .

٢ - فساد نظرية جالينوس حول وجود ثقب فى الحجاب الحاجز بالقلب، وبيان أنها خيال محض، على يد ابن النفيس، الذى خلف عبد اللطيف فى رئاسة المستشفى بالقاهرة، وتصويبه (تصحيحه) إياها باكتشافه الدورة الدموية الصغرى .

---

(١) عن كتاب « تجديد الفكر الدينى » تأليف محمد إقبال، ترجمة عباس محمود ص ١٥٠ .

(٢) عن كتاب « الإسلام دين علم خالد » ص ٢٣٣ .

(٣) هكذا ترجم المترجم عنوان الكتاب وأظن أن المؤلفة تقصد أن إله المسلمين ليس كما يصفه الغربيون .

(٤ ، ٥) لعل المترجم يقصد التصحيح وليس التصويب .

٣ - خطأ نظريتى إقليد (إقليدس) وبطليموس الزاعمة أن العين تسلط نورها على المرئيات، بالتصويب (التصحيح) العبقرى لعالم البصريات ابن الهيثم مؤسس علم البصريات التجريبى، والذى وضع نظريات وقوانين عديدة فى علم البصريات، مقدماً لأوربا نظرية تكاد تكون متكاملة حول الأشعة، بما في ذلك الأسس التى يقوم عليها استخدام العدسات والمجاهر، وكافة أنواع المرايا وآلة التصوير بالتعتيم الشمسى وكشافات الضوء الكهربية وغير ذلك.

ولقد بلغت تلك العلوم والمخترعات والمكتشفات أوربا بواسطة الطرق الخمس التالية :

- عن طريق السفن والتجار وفرسان الحروب الصليبية وحجاج بيت المقدس والأماكن المقدسة للنصارى.

- صقلية العربية إبان خضوعها لحكم العرب مائتين وخمسين عاما دون انقطاع، وعن طريق بلاط صديق العرب الأكبر فيها القيصر فريدريك من آل هوهن شتاوفن.

- أسبانيا والبرتغال (الأندلس) حيث خضعتا للعرب ثمانمائة عام.

- مترجمات مدرسة الترجمة العليا فى طليطلة العربية.

- وعن طريق طلاب العلم المتقلبين بين الجامعات، والبعثات والوفود واليهود الجوالين والحجاج والتجار.

وكما قيل حقا فإن إنجازات علماء العرب من أطباء وكيميائيين ورياضيين وفلكيين ومخترعاتهم الفنية، التى وصلت إلى أوربا إبان إحكام آباء الكنيسة قبضتهم عليها ليزداد تخلفها من سيء إلى أسوأ؛ كل ذلك هطل على أوربا كالغيث على الأراضى الميتة فأحياها قرونا، وخصّبها إبان ذلك من نواح متعددة، ودفعها دفعا قويا لكى تباشر بحوثها الخاصة بها » [١] .

* * *

---

(١) عن كتاب « الله ليس كذلك » ترجمة د. غريب محمد غريب، نشر دار الشروق بالقاهرة، الطبعة الأولى عام ١٤١٦ هـ - ١٩٩٥ م ، ص ٨١ - ٨٢ .

لقد أخذ المسلمون كل ثمار المعرفة السابقة التى وجدوها فى متناول أيديهم، ثم أنشأوا عليها - بحاستهم العلمية التى اكتسبوها من الإسلام - حركة علمية وثقافية ضخمة، ثم قاموا بعملية التحويل العظمى التى كتبت أبرز سطور التاريخ، وهى إدخال المنهج التجريبى فى البحث العلمى، أو تحويل المعرفة النظرية إلى واقع عملى.

كما قاموا بعملية «إنسانية» أخرى تعلموها من دينهم كذلك، هى فتح أبواب العلم لكل راغب فيه، بصرف النظر عن جنسه ولونه وعقيدته، ومن ثم فتحت جامعاتهم أبوابها للوافدين إليها من كل فج يتعلمون فيها كل ما يرغبون معرفته من العلوم.

وفي تلك الفترة توافد الطلاب من أوربا إلى الأندلس والشمال الافريقى - والمدارس الإسلامية الأخرى - يطلبون علوم المسلمين..

يقول الأستاذ «نجيب العقيقى» فى كتابه «المستشرقون» [١] .

«أما الثقافة العربية، فيقول البار [٢] القرطبى فى كتاب «الدليل المنير»: وأقبل أهل مالقة على مصنفات المسلمين فى الأدب والفقه والفلسفة تثقفا بثقافتها - لا للرد عليها ! - وبذلوا أموالا طائلة فى تأسيس مكتباتها. وينطبق قوله على المستعربين فى الأندلس قاطبة الذين جروا على عادات المسلمين فى نظام الحريم وختن الأولاد وإتقان العربية واستعمال حروفها لكتابة اللاتينية. ثم على الخاصة من النصارى وقد آثروا أسماء العرب ولغتهم وثقافتهم، وفي طليعة هؤلاء رجال الدين، فاختلفوا إلى مدارس المسلمين ومجامعهم ومكتباتهم، ثم قبعوا فى أديارهم [٣] ينقحون ذلك التراث ويترجمونه ويفسرونه ويصنفون فيه، ويذيعونه بين الرهبان وطلاب العلم، فينتشر انتشاراً سريعاً بفضل مدارسهم فى أديار:

---

(١) يعتبر هذا الكتاب أشمل موسوعة عربية تسجل أسماء المستشرقين وأعمالهم وتاريخهم، وإن كانت لا تشتمل على تقويم نقدى لأعمال المستشرقين إلا سطوراً فى آخر الكتاب.

(٢) اسمه بلغته الأصلية «الفارو» وقد عربه مؤلف الكتاب.

(٣) يقصد الأديرة.

« ريبول » - حيث تعلم الأب « جربر » وترجم إلى اللاتينية من مخطوطات مكتبتها المصنفات الرياضية والفلكية كالزيج المنصورى - و« سان كوجات » و« سان ميليان » و« ثيلانوبا »، وسائر مدارس المستعربين فى قرطبة. ومنذ القرن العاشر حملت الكاتدرائيات العبء الأكبر عن الأديار، فذاعت شهرة مدارس « أوبيدو » و« ليون » و« بيك » و« خيرونا » و« برشلونة » و« سانتياجو دى كوبو ستيلا » وقامت مثيلات لها فى « باريس » و« شارتر » و« أورليان » و« تور » و« لاؤن » و« ريمس »، وفى كبرى مدن إيطاليا وانجلترا وبلجيكا وغيرها. ثم أنشأ الرهبان الفرنسيسكانيون ديرعكا (١٢٢١ م) وعلّم العربيةَ فيه الأب « روبرك » ومدرسة ميرامار (١٢٧٦ م) فأشرف عليها « رايموندو لوليو » خلال عشر سنوات، وتعلم العربية فيها أحد عشر راهبا، وقد عاون « لوليو » « رايموندو مارتينى » الدومينيكى، وأستأنف نشاطه « دي ليرا » الفرنسيسكانى فى القرن الرابع عشر. وقرر مجمع طليطلة (١٢٥٠ م) الإنفاق على ثمانية من الزهبان الدومينيكيين على رأسهم « رايموندو مارتينى » كانوا قد انقطعوا لدراسة العربية، وصنف أحدهم أول معجم عربى أسبانى (١٢٣٠ م) خلا نفر من زملائهم أرسلوا إلى باريس لتعلم اليونانية والعربية والعبرية فيها (١٢٥٥ م) ثم كلفهم مجمع بلنسية (١٢٥٩ م) تأسيس مدرسة للعربية والعبرية فى قطلونيا (١٢٦١ م). وقد صنف أحدهم - « غليوم الطرابلسى » - كتابا عن الإسلام أهداه إلى من أصبح البابا « غريغوريوس » (١٢٧١ - ١٢٧٦ م) وألف « دى مونتى كروسيس » كتابا من عقائد تركيا والتتر.

« وانتشرت مدارس الرهبان فى أشبيلية (١٢٥٠ م) وميورته (١٢٥٥ م) وبرشلونه (١٢٥٩ م) وبلنسية (١٢٨١ م) وجانيفا (١٢٩١ م) وقد تطور بعض مدارس الكاتدرائيات إلى جامعات ونالت على غرارها حقها المعلوم فى مساعدة البابوات والملوك.

« وكان دون رايموند الأول رئيس أساقفة طليطلة (١١٢٦ - ١١٥١) قد أنشأ فيها مكتب المترجمين (١١٣٠ م) فنقل المسلمون واليهود والنصارى إلى

اللاتينية أمهات كتب الرياضيات والفلك والطب والكيميا والطبيعة والتاريخ الطبيعي وما وراء الطبيعة وعلم النفس والمنطق والسياسة، ومن أشهرها أورجانون أرسطو بشروح الكندي والفارابى وابن سينا والغزالى ومختصراتهم له، ومؤلفات إقليدس وبطليموس وجالينوس وأبقراط، بشروح الخوارزمى والبتانى والبطروجى، كما نقلوا الكثير من مصنفات علماء العرب واليهود، ومن أشهر المترجمين: «جونثالث»، و«يوحنا بن داود الأسبانى»، و«يوحنا الإشبيلى»، و«روبرت أوف تشستر»، و«هرمان الدلماطى»، و«اوجودى سانتالا» و«أفلاطون التيفولى»، و«ساراشل» وغيرهم. وبفضل مكتب الترجمة والمدارس والمكتبات ظلت طليطلة طوال قرنين ملتقى طلاب العلم من انجلترا وفرنسا وإيطاليا وألمانيا، يفدون عليها وينهلون من الثقافة العربية فيها ثم يرجعون إلى بلدانهم فيذيعونها بين أهلها..

«وعبرت الثقافة العربية - بفضل الرهبان، ولاسيما الملتحقين بدير كلونى، واللاجئين إلى فرنسا - جبال البرانس والألب إلى فرنسا وإيطاليا وانجلترا وألمانيا وغيرها، ثم استقرت فى أشهر مراكزها..

«وأفاد البرتغاليون من علوم العرب في الرياضيات والفلك والخرائط والجغرافيا، وكان أبو الحسن قد وضع الاسطرلاب وخرائط الجزيرة الأيبرية فنقلها علماء قطالونيا إلى البرتغال - وبناء السفن. فاستدعى الأمير هنرى خبراء العرب بعلم البحار، واصطنع طرازاً من سفنهم فى اكتشافاته، وحقق رحلة ماركو بولو على رحلة ابن بطوطة، واستعان فاسكو داجاما بابن ماجد لهديه فى مجاهل المحيط الهندى، فنسب بعض المؤرخين اكتشاف طريق الهند إلى البرتغال والعرب...

«وبدأ الاستشراق أكثر ما يكون تنظيماً وانتشاراً واستمراراً بالفاتيكان: باباوات وأساقفة ورهباناً، واصطناع نفوذهم فى سبيله لدى الملوك والأمراء والبلديات، والإفادة منه فى الرد على البروتستانتية بعد انفصالها عنهم، مما جعله لغايات منوعة، بوسائل متعددة، فى أرجاء شاسعة.

«وكان رجال الدين، ومرجعهم الفاتيكان يومئذ، يؤلفون الطبقة المتعلمة

فى أوربا، ولا سبيل إلى إرساء نهضتها إلا علي أساس من التراث الإنسانى الذى تمثلته الثقافة العربية، فتعلموا العربية، ثم اليونانية، ثم اللغات الشرقية، للنفوذ منها إليه . . . » .

ثم يضع المؤلف تحت عنوان « طلائع المستشرقين » تعريفا بعدد من المستشرقين البارزين فى هذا العهد يبلغ تسعة وعشرين اسما من بينهم روجر بيكون الشهير، نختار منها بعض النماذج لدلالتها :

« جربر دى أورالياك Jerbert de Oraliac » (٩٣٨ – ١٠٠٣ م) .

« من الرهبانية البندكتية (المؤسسة عام ٥٢٩ م) قصد الأندلس، وأخذ من أساتذتها فى مدارس ريبول وإشبيلية وقرطبة، حتى أصبح أوسع علماء عصره ثقافة بالعربية والرياضيات والفلك . ولما ارتحل إلى روما سما على أقرانه وانتخب حبرا أعظم باسم سلفستر الثانى (٩٩٩ – ١٠٠٣ م) فكان أول بابا فرنسى، وقد أمر بإنشاء مدرستين عربيتين، الأولي فى روما مقر خلافته [١]، والثانية فى رايمس وطنه، ثم أضيف إليها مدرسة شارتر . . » .

« أدلرد أوف باث Adelard of Bath » (١٠٧٠ – ١١٣٥ م) .

« ولد فى مدينة باث ونسب إليها، وانخرط فى سلك الرهبانية البندكتية، وطلب العلم فى تور والأندلس وصقلية . . وعند عودته إلى إنجلترا عين معلماً للأمير هنرى الذى أصبح فيما بعد هنرى الثانى، وقد أهدى إليه أحد كتبه، واشتهر باختباره سرعة الضوء والصوت، وتضلعه فى ثقافة العرب الذين آثر مذهبهم فى العلم على مذهب الفرنجة، فقال في كتابه « المسائل الطبيعية » وهو محاورة بينه وبين أخيه خريج جامعات الفرنجة : إننى – وقائدى هو العقل – قد تعلمت من أساتذتى العرب غير الذى تعلمته أنت، فبهرتك مظاهر السلطة بحيث وضعت فى عنقك لجاما تقاد به قياد الإنسان الحيوانات الضارية، ولا تدرى لماذا ولا إلى أين . فقد منح الإنسان العقل لكى يفصل به بين الحق

---

(١) هكذا عبر المؤلف عن مقر البابوية فى روما !

والباطل.. فعلينا بالعقل أولا، فإذا اهتدينا إليه - لا قبل ذلك - بحثنا فى السلطة، فإن سايرت العقل وإلا فلا...» [1].

أما روجر بيكون الشهير فهو الذى قال عنه بريفولت فى كتاب «بناء الإنسانية Making of Humanity»:

«وإن روجر بيكون درس اللغة العربية، والعلم العربى فى مدرسة أكسفورد على خلفاء معلميه العرب فى الأندلس. وليس لروجر بيكون، ولا لسميه فرنسيس بيكون الذى جاء بعده الحق في أن ينسب إليهما الفضل فى ابتكار المنهج التجريبى؛ فلم يكن روجر بيكون إلا رسولا من رسل العلم والمنهج الإسلاميين إلى أوربا المسيحية. وهو لم يملّ قط من التصريح بأن تعلم معاصريه للغة العربية وعلوم العرب هو الطريق الوحيد للمعرفة الحقة..» [2].

وفى النماذج السابقة ما يكفى لإعطاء صورة للطور الأول من أطوار الاستشراق، حيث كان المسيحيون الأوروبيون يتعلمون - فى أدب - علوم المسلمين، ليتثقفوا بالثقافة الحقيقية، وليحاولوا بناء نهضتهم على أساس متين.

يقول بريفولت:

«لقد كان العلم أهم ما جادت به الحضارة العربية (يقصد الإسلامية !) على العالم الحديث، ولكن ثماره كانت بطيئة النضج.. إن العبقرية التى ولدتها ثقافة العرب فى أسبانيا لم تنهض فى عنفوانها إلا بعد وقت طويل على اختفاء تلك الحضارة وراء سحب الظلام. ولم يكن العلم وحده هو الذى أعاد الحياة إلى أوربا. بل إن مؤثرات أخرى كثيرة من مؤثرات الحضارة الإسلامية بعثت باكورة أشعتها إلى الحياة الأوربية. فإنه على الرغم من أنه ليس ثمة ناحية واحدة من نواحى الازدهار الأوربى إلا ويمكن إرجاع أصلها إلى مؤثرات الثقافة الإسلامية بصورة قاطعة، فإن هذه المؤثرات توجد أوضح ما تكون، وأهم ما تكون، فى نشأة

---

(١) مقتطفات من كتاب «المستشرقون» الجزء الأول من ص ١٢٠ - ١٢٢ .

(٢) عن كتاب «تجديد الفكر الدينى فى الإسلام» تأليف محمد إقبال، ترجمة عباس محمود ص ١٢٨ .

تلك الطاقة التى تكوّن ما للعالم الحديث من قوة متمايزة ثابتة، وفى المصدر القوى لازدهاره، أى فى العلوم الطبيعية وروح البحث العلمى »[1] .

* * *

هذا الطور – على أهميته البالغة في تاريخ أوربا، وتاريخ البشرية كلها – لم يستمر على حالته هذه طويلا مع الأسف! ولقد كان قمينا – لو سارت الأمور فى طريقها الطبيعى – أن يفتح قلب أوربا للإسلام، ويفتح بصيرتها على الهدى الربانى، فتترك ما كانت غارقة فيه من انحرافات عقدية وفكرية صنعتها الكنيسة الأوربية، وزعمت أنها من دين الله.

يقول الأستاذ أحمد أمين فى كتابه « ضحى الإسلام » (ص ١٦٤ – ١٦٥) :

« ظهر بين النصارى نزعات يظهر فيها أثر الإسلام. من ذلك أنه فى القرن الثامن الميلادى – أى القرنين الثانى والثالث الهجريين – ظهرت فى سبتمانيا Septmania (مقاطعة فرنسية قديمة فى الجنوب الغربى لفرنسا على البحر الأبيض المتوسط) حركة تدعو إلى إنكار الاعتراف أمام القسيس، وأنه ليس للقسس حق فى ذلك، وأن يضرع الإنسان إلى الله وحده فى غفران ما ارتكب من إثم. والإسلام ليس له قسيسون ورهبان وأحبار، فطبيعى ألا يكون فيه اعتراف.

وكذلك قامت حركة تدعو إلى تحطيم الصور والتماثيل الدينية Iconoclast) . ذلك أنه فى القرن الثامن والتاسع للميلاد – أى فى القرن الثالث والرابع الهجريين – ظهر مذهب نصرانى يرفض تقديس الصور والتماثيل فقد أصدر الامبراطور الرومانى « ليون الثالث » أمراً سنة ٧١٦ م يحرم فيه تقديس الصور والتماثيل، وأمراً آخر فى سنة ٧٣٠ يعدّ الإتيان بهذا وثنية. كذلك كان قسطنطين الخامس وليو الرابع، على حين كان البابا « جريجورى » الثانى والثالث و« جرمانيوس » بطريرك القسطنطينية، والإمبراطورة « إيرينى » من مؤيدى عبادة الصور. وجرى بين الطائفتين نزاع شديد لا محل لتفصيله. وكل ما نريد أن نذكره أن بعض المؤرخين يذكر أن الدعوة إلى نبذ الصور والتماثيل كانت متأثرة

---

(١) المصدر السابق ص ١٤٩

بالإسلام. ويقولون إن كلوديوس Claudius أسقف نورين (الذى عين سنة ٨٢٨م وحول ٢١٣ هـ) والذى كان يحرق الصور والصلبان، وينهى عن عبادتها فى أسقفيته، ولد وربّى فى الأندلس الإسلامية.

« كذلك وجدت طائفة من النصارى شرحت عقيدة التثليث بما يقرب من الوحدانية، وأنكرت ألوهية المسيح ».

ويقول المؤرخ البريطانى « ويلز »: « لو تهيأ لرجل ذى بصيرة نفاذة أن ينظر إلى العالم فى مفتتح القرن السادس عشر، فلعله كان يستنتج أنه لن تمضى إلا بضعة أجيال قليلة، لا يلبث بعدها العالم أجمع أن يصبح مغوليا، وربما أصبح إسلاميا. ولكن الريح غيرت اتجاهها.. »[1].

غيرت الريح اتجاهها لسببين اثنين فى آن واحد.. السبب الأول أن الأمة الإسلامية أخذت تدلف إلى إغفاءة طويلة، ليس هنا مجال شرح أسبابها[2]، والثانى أن تغلغل المفاهيم الإسلامية فى أوربا أزعج الكنيسة إزعاجاً شديداً، فقامت تنافح عن نفسها وعن نفوذها، بوسيلتين اثنتين، إحداهما محاكم التفتيش، والأخرى أنها جندت رجالها لتشويه صورة الإسلام فى نفوس الناس، لتنفيرهم منه، وإبعادهم عنه.

ولنأخذ صورة من تأثر النصارى فى الأندلس فى القرن التاسع بالإسلام والثقافة الإسلامية، ولنتصور على ضوئها كيف كانت الصورة فى أوربا حين انتشرت هذه الثقافة – عن طريق الترجمة – فى القرون التالية.

يقول جرونيباوم فى كتابه «حضارة الإسلام»:

« ولقد أهمل الأسبان المسيحيون فى القرن التاسع تراثهم القديم إيثاراً منهم للتراث العربى، وهذا ألفارو – الكاتب المسيحى المتعصب – يأسى فى سنة ٨٥٤

---

(١) ويلز، معالم تاريخ الإنسانية، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر، جـ٣ ص ٩٦٦.

(٢) شرحت هذه الأسباب فى كتاب « واقعنا المعاصر » فصل « خط الانحراف » و« آثار الانحراف ».

لهذا الاتجاه أسى مريرا (فيقول) : « يطرب إخوانى المسيحيون لأشعار العرب وقصصهم، فهم يدرسون كتب الفقهاء والفلاسفة المحمديين لا لتفنيدها . بل للحصول على أسلوب عربى صحيح رشيق . فأين تجد اليوم علمانيا [١] يقرأ التعليقات اللاتينية على الكتب المقدسة؟ وأين ذلك الذى يدرس الإنجيل وكتب الأنبياء والرسل؟ وأسفا : إن شباب المسيحيين الذين هم أبرز الناس مواهب ليسوا على علم بأى أدب ولا أية لغة غير العربية؛ فهم يقرأون كتب العرب ويدرسونها بلهفة وشغف، وهم يجمعون منها مكتبات كاملة تكلفهم نفقات باهظة، وإنهم ليترنمون فى كل مكان بمدح تراث العرب . وإنك لتراهم من الناحية الأخرى يحتجون فى زراية إذا ذكرت الكتب المسيحية بأن تلك المؤلفات غير جديرة بالتفاتهم . فواحر قلباه! لقد نسى المسيحيون لغتهم، ولا يكاد يوجد منهم واحد فى الألف قادر على إنشاء رسالة إلى صديق بلاتينية مستقيمة ! ولكن إذا استدعى الأمر كتابة بالعربية، فكم منهم من يستطيع أن يعبر عن نفسه فى تلك اللغة بأعظم ما يكون من الرشاقة ، بل قد يقرضون من الشعر ما يفوق فى صحة نظمه شعر العرب أنفسهم » [٢] .

هكذا كان التأثير فى الأندلس، ولا نتوقع بطبيعة الحال أن تكون الصورة هى ذاتها فى بقية أوربا، ولكن التأثير العائد مع الطلاب المبتعثين إلى المدارس الإسلامية فى الأندلس وغيرها كان من العمق بحيث أزعج الكنيسة إزعاجاً شديداً، فلجأت – كما أشرنا آنفا – إلى إجراءات حادة وعنيفة لوقف التأثير الإسلامى، ولنذكر أنها وقفت موقفاً بشعاً من العلماء الذين قالوا بكروية الأرض، وأن الأرض ليست مركز الكون، ليس فقط خوفا من تأثير « العلم » على « الخرافة » التى كانت تعيش بها الكنيسة، ولكن لأن هذه العلوم كانت إسلامية فى أصلها، فكانت تمثل – فى نظر الكنيسة – غزواً فكرياً إسلامياً يجب التصدى له بكل قوة

---

(١) لعله يقصد رجل علم أو طالب علم.

(٢) فون جرونيباوم، حضارة الإسلام، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، ص ٨١ – ٨٢ م طبع القاهرة ١٩٥٦ .

حتى لا يمتد أثره فى الناس! فلذلك أحرقت جوردانو برونو حيا، وحكمت على كوبرنيكوس بالحرق لولا أنه مات قبل تنفيذ الحكم فيه. أما جاليليو فقد تظاهر بالردة لما صدر الحكم بحرقه حيا، ولكنه - فى فراش الموت - ظل يردد: الأرض كروية! الأرض كروية! حتى مات !

* * *

ولكن هذا العامل على شدته لم يكن هو وحده المؤثر فى رسم صورة هذا الطور الثانى من أطوارالاستشراق، فقد كانت الحروب الصليبية، وما انتهت إليه من الهزيمة الساحقة، عاملا مؤثرا شديد التأثير.

يقول محمد أسد فى كتابه «الإسلام على مفترق الطرق» :

«إن الاصطدام العنيف الأول بين أوربة المتحدة من جانب وبين الإسلام من الجانب الآخر - أى الحروب الصليبية - يتفق مع بزوغ فجر المدنية الأوربية. فى ذلك الحين أخذت هذه المدنية - وكانت ما تزال على اتصال بالكنيسة - تشق سبيلها الخاص بعد تلك القرون المظلمة التى تَبِعَتْ انحلال رومية. حينذاك بدأت آداب أوربا ربيعا منوراً جديداً. وكانت الفنون الجميلة قد بدأت بالاستيقاظ ببطء من سبات خلفته هجرات الغزو التى قام بها القوط والهون والآفاريون. ولقد استطاعت أوربة أن تتملص من تلك الأحوال الخشنة فى أوائل القرون الوسطى، ثم اكتسبت وعياً ثقافياً جديداً، وعن طريق ذلك الوعى كسبت أيضاً حساً مرهفاً [1]. ولما كانت أوربة فى وسط هذا المأزق الحرج، حملتها الحروب الصليبية على ذلك اللقاء العدائى بالعالم الإسلامى. لقد كانت ثمت حروب بين المسلمين والأوروبيين قبل عصر الحروب الصليبية. كانت فتوح العرب فى صقلية والأندلس، وكان هجومهم على جنوب فرنسة. ولكن هذه المعارك كانت قبل أن تستيقظ أوربة إلى وعيها الثقافى الجديد، فاتسمت من أجل ذلك، ومن وجهة النظر الأوربية على الأقل، بطابع ذى نتائج محلية، ولم تكن تلك المعارك قد

---

(١) كان ذلك من أثر الاحتكاك بالحضارة الإسلامية كما سيذكر المؤلف بعد قليل.

فهمت بعد على وجهها الحقيقى . إن الحروب الصليبية هى التى عينت فى المقام الأول والمقام الأهم موقف أوربة من الإسلام لبضعة قرون تتلو . ولقد كانت الحروب الصليبية فى ذلك حاسمة لأنها حدثت أثناء طفولة أوربة فى العهد الذى كانت فيه الخصائص الثقافية الخاصة قد أخذت تعرض نفسها [١] ، وكانت ما تزال فى طور تشكلها . والشعوب كالأفراد، إذا اعتبرنا أن المؤثرات العنيفة التى تحدث فى أوائل الطفولة تظل مستمرة ظاهراً أو باطناً مدى الحياة التالية . وتظل تلك المؤثرات محفورة حفراً عميقاً، حتى إنه لا يمكن للتجارب العقلية فى الدور المتأخر من الحياة، المتسم بالتفكير أكثر من اتسامه بالعاطفة أن تمحوها إلا بصعوبة، ثم يندر أن تزول آثارها تماماً . وهكذا كان شأن الحروب الصليبية، فإنها أحدثت أثراً من أعمق الآثار وأبقاها فى نفسية الشعب الأوربى . وإن الحمية الجاهلية العامة التى أثارتها تلك الحروب فى زمنها لا يمكن أن تقارن بشىء خبرته أوربة من قبل، ولا اتفق لها من بعد [٢] . لقد اجتاحت القارة الأوربية كلها موجة من النشوة، كانت - فى مدة ما على الأقل - عنفوانا تخطى الحدود التى بين البلدان والتى بين الشعوب والتى بين الطبقات . ولقد اتفق فى ذلك الحين، وللمرة الأولى فى التاريخ، أن أوربة أدركت فى نفسها وحدة - ولكنها وحدة فى وجه العالم الإسلامى . ويمكننا أن نقول من غير أن نوغل فى المبالغة إن أوربة ولدت من روح الحروب الصليبية . لقد كان ثمت قبل ذلك الزمن أنجلو سكسون وجرمان وفرنسيون ونورمان، وإيطاليون ودنماركيون وسلاف، ولكن فى أثناء الحروب الصليبية ولدت فكرة « المدنية الغربية » وأصبحت هدفاً واحداً تسعى إليه جميع الشعوب الأوربية على السواء . وكانت تلك المدنية الغربية عداوة للإسلام وقفت عرّابا [٣] فى هذه الولادة الجديدة .

---

(١) يقصد بدأت تتشكل .

(٢) سنثبت بعد هذا قولا مشابها للمستشرق الكندى المعاصر ولفرد كانتول سميث فى كتابه « الإسلام فى التاريخ الحديث » .

(٣) وكيل الطفل المعمد بالتعبير الكنسى .

« ... إن الفظائع المروعة التى اقترفها الفرسان الصليبيون الأتقياء، وإن التخريب والانحطاط اللذين خلفوهما فى بلاد الإسلام[1] التى اجتاحوها ثم خسروها، كل هذه هى التى أنبتت البذور السامة لعداوة طويلة الأمد، ولصلات متحرجة بين الشرق والغرب. ولولا ذلك لما كان ثمت ضرورة إلى مثل هذا الشعور. ثم لو أن الحضارتين الإسلامية والغربية كانتا – كما نعتقد – مختلفتين تماماً في أسسهما الروحية ونظامهما الاجتماعى، لوجب أن تكونا قادرتين على التسامح فيما بينهما والعيش جنبا إلى جنب على اتصال ودى. ولقد كان فى الجانب الإسلامى دائماً رغبة مخلصة للتسامح المتكافىء، وللاحترام. وحينما أرسل الخليفة هرون الرشيد إلى الإمبراطور شارلمان كانت هذه الرغبة هى التى تحدو به إلى ذلك، ولم يكن ذلك عن مجرد رغبة فى الاستفادة المادية من صداقة الفرنجة. أما أوربة فكانت فى ذلك الحين، من الناحية الثقافية، فطرية إلى حد أنها لم تقدر هذه الفرصة حق قدرها، وإن كانت لم تبد لها كرها. وأخيراً ظهر الصليبيون فجأة عند الأفق وقطعوا هذه الصلات بين الإسلام والغرب. ولم يكن ذلك لأن الصليبيين راموا الحرب، فإن حروباً كثيرة كانت قد نشبت بين الشعوب ثم نسيت فيما بعد فى مدى التاريخ الإنسانى، وكم من عداوة انقلبت بعد ذلك صداقة. إلا أن الشر الذى بعثه الصليبيون لم يقتصر على صليل السلاح، ولكنه كان قبل كل شيء، وفى مقدمة كل شيء، شراً ثقافياً. **لقد نشأ تسميم العقل الأوربى مما شوهه قادة الأوربيين من تعاليم الإسلام ومثله العليا أمام الجموع الجاهلة فى الغرب**. وفى ذلك الحين نبز الرسول « محمد » بقولهم « كلبى » [Ma hound. وازن بين صورة Mahomed وصورة Mahound . إن ما، ضمير الملك للمتكلم (ضمير جر) و Hound هاوند من هوند Hund الجرمانية بمعنى الكلب. وقد كان أولئك النابزون يتلاعبون بظاهر اللفظتين. ماهومد وماهوند].

«لقد بذرت بذور البغضاء. إن حمية الصليبيين الجاهلية كان لها ذيولها فى

---

(١) انظر ما يحدث الآن فى كوسوفا وما حدث فى البوسنة والهرسك من قبل ! ٠

أماكن كثيرة من أوربة، فشجع ذلك نصارى الأندلس على الحرب لإنقاذ بلادهم من « نير الوثنيين » وأما تدمير أسبانية المسلمة (الأندلس) قد اقتضى قرونا طويلة حتى تم. ولما تطاول أمد هذا القتال أخذ الشعور ضد الإسلام فى أوربة ينشب جذوره ثم يثبت. ولقد انتهى باستئصال شأفة العهد الإسلامى فى أسبانية بعد اضطهاد بالغ فى الوحشية والقسوة مما لم يشهده العالم قط، وإن كانت أصداء الفرح قد تجاوبت فى أوربة على إثر ذلك، مع العلم بأن نتائج ذلك كانت القضاء على العلوم والثقافة، والتبدل بهما جهل العصور الوسطى وخشونتها.

« ولكن قبل أن يتاح لصدى هذه الحوادث أن يخفت فى أسبانية حدث حدثٌ ثالث عظيم الأهمية زاد فى فساد الصلات بين العالم الغربى وبين الإسلام؛ ذلك هو سقوط القسطنطينية فى يد الأتراك. لقد كانت أوربة ترى بقية الزهو اليونانى والرومانى القديم على بيزنطيوم (القسطنطينية) وكانت تنظرإليها على أنها حصن أوربا ضد « برابرة » آسية. وبسقوط القسطنطينية فتح باب أوربة على مصراعيه للسيل الإسلامى. وفي القرون التى تلت والتى امتلأت بالحروب لم تبق عداوة أوربة للإسلام قضية ذات أهمية ثقافية فحسب، بل ذات أهمية سياسية أيضاً. وهذا زاد فى اشتداد تلك العداوة.

« ومع هذا كله فإن أوربة قد استفادت كثيراً من هذا النزاع. إن « النهضة » أو إحياء الفنون والعلوم الأوربية باستمدادها الواسع من المصادر الإسلامية والعربية على الأخص، كانت تعزى فى الأكثر إلى الاتصال المادى بين الشرق والغرب. لقد استفادت أوربا أكثر مما استفاد العالم الإسلامى، ولكنها لم تعترف بهذا الجميل، وذلك بأن تنقص بغضاءها للإسلام، بل كان الأمر على العكس، فإن تلك البغضاء قد نمت مع تقدم الزمن ثم استحالت عادة. ولقد كانت هذه البغضاء تغمر الشعور الشعبى كلما ذكرت كلمة « مسلم »، ولقد نزلت فى الأمثال السائرة عندهم حتى نزلت فى قلب كل أوربى رجلا كان أو امرأة. وأغرب من هذا كله أنها ظلت حية بعد جميع أدوار التبدل الثقافى. ثم جاء عهد الإصلاح الدينى حينما انقسمت أوربا شيعا، ووقفت كل شيعة مدججة

بسلاحها فى وجه كل شيعة أخرى، ولكن العداء للإسلام كان عامًّا فيها كلها، **بعد ذلك جاء زمن أخذ الشعور الدينى فيه يخبو، ولكن العداء للإسلام استمر**»[1].

* * *

أما «ولفرد كانتول سميث» المستشرق الكندى المعاصر فيقول فى كتابه «الإسلام فى التاريخ الحديث Islam in Modern History»:

«إلى أن قام كارل ماركس، وقامت الشيوعية، كان النبى [ﷺ][2] هو التحدى الحقيقى الوحيد للحضارة الغربية، الذى واجهته فى تاريخها كله. وإنه لمن المهم أن نتذكر كم كان هذا التحدى حقيقياً، وكم كان يبدو فى وقت من الأوقات تهديداً خطيراً حقاً.

«لقد كان الهجوم مباشراً فى كلا الميدانين الحربى والعقدى، وكان قوياً جداً. ولا شك أنه بالنسبة للمسلمين يبدو أنه الحق والصواب، والأمر الطبيعى والمحتوم، أن يمتد الإسلام كما امتد. ولكن الأمر كان مختلفا بالنسبة للشخص الواقع خارج نطاق الإسلام، الذى لم يكن يرى فيه شيئاً من هذا كله، والذى كان التوسع الإسلامى يقع على حسابه. وقد كان هذا التوسع إلى حد كبير يقع على حساب الغرب. فقد فقدت المسيحية دفعة واحدة «أجمل مقاطعات الإمبراطورية الرومانية» لتتسلمها منها القوة الجديدة، وكانت فى خطر من ضياع الإمبراطورية بكاملها. وعلى الرغم من أن القسطنطينية لم تقع – تماماً – فى يد الجيوش العربية كما وقعت مصر وسوريا، فقد استمر الضغط عليها فترة طويلة. وفى موجة التوسع الإسلامى الثانية وقعت القسطنطينية بالفعل سنة ١٤٥٣؛ وفى قلب أوربا المفزعة ذاتها أحاط الحصار بفينا سنة ١٥٢٩، بينما ظل الزحف – الذى بدا عنيدا لايلين – مستمراً فى طريقه. وحدث ذلك مرة أخرى فى وقت قريب لم يتطاول عليه العهد فى سنة ١٦٨٣؛ وإن وقوع تشيكوسلوفاكيا فى قبضة الشيوعية عام ١٩٤٨، لم يكن له قط فى العصر الحديث ذلك الفزع فى

(١) الإسلام على مفترق الطرق، ترجمة عمر فروخ ص ٥٢ – ٥٨.
(٢) يقصد الإسلام، والأقواس الشارحة من عندنا.

نفوس الغرب المتهيب؛ كما كان لذلك الزحف المستمر قرنا بعد قرن، من تلك القوة الضخمة المهدِّدة، التى لا تكف ولا تهدأ، ويتكرر انتصارها مرة بعد مرة.

«وكما هو الأمر مع الشيوعية، كذلك كان التهديد والانتصارات [الإسلامية] قائمين فى عالم القيم والأفكار أيضاً. فقد كان الهجوم الإسلامى موجها إلى عالم النظريات كما هو موجه إلى عالم الواقع. وقد عملت العقيدة الجديدة بإصرار على إنكار المبدأ الرئيسى للعقيدة المسيحية، التى كانت بالنسبة لأوربا العقيدة السامية التى أخذت – فى بطء – تبنى حولها حضارتها. وكان التهديد الإسلامى موجها بقوة وعنف، وكان ناجحاً نجاحاً مكتسحاً فى نصف العالم المسيحى تقريباً. والإسلام هو القوة الإيجابية الوحيدة التى انتزعت من بين المسيحيين أناساً دخلوا فى الدين الجديد وآمنوا به.. بعشرات الملايين، وهو القوة الوحيدة التى أعلنت أن العقيدة المسيحية ليست مزيفة فحسب، بل إنها منفرة كذلك.

«وإنه لمن المشكوك فيه أن يكون الغربيون – حتى أولئك الذين لا يدركون إطلاقاً أنهم اشتبكوا فى مثل هذه الأمور – قد تغلبوا قط عل آثار ذلك الصراع الرئيسى المتطاول الأمد.. أو على آثار الحروب الصليبية التى استغرقت قرنين من الحرب «العقدية» العدوانية المريرة» (١).

وتكفى هذه المقتطفات لرسم ملامح تلك الفترة من التاريخ، وآثارها فى موقف الغرب من الإسلام، كما أنها تستطيع أن تمد خيالنا بصورة لما يمكن أن يكون قد كتب عن الإسلام يومئذ بأقلام «المستشرقين» (٢).

(١) ولفرد كانتول سميث، الإسلام فى التاريخ الحديث، الطبعة الرابعة، سنة ١٩٦٦، مطبعة جامعة أكسفورد، ص ١٠٥ – ١٠٦ من الأصل الإنجليزى.

(٢) لم تكن البغضاء ولا سوء الأدب فى الحديث عن الإسلام ورسوله ﷺ والمسلمين مقتصرا على رجال الدين الصليبيين وإنما تعداهم إلى الكتاب والأدباء، فدانتى فى الكوميديا الإلهية يتوقح على الرسول ﷺ ويضعه فى جهنم مع الكفار، وسرفانتس مؤلف قصة دون كيشوت يقول عنه «النبى الكذاب» وفولتير يصفه بأقبح النعوت.. هذا إلى مئات من الكتب ألفت لتشويه صورة الإسلام والمسلمين، ووصف الحياة الإسلامية بأبشع الأوصاف.

ثم جاء الطور الثالث يسير مع خط التاريخ . .

أخذ العالم الإسلامى فى الضعف والجمود، بعد فترة النشاط والقوة والتفتح الحىّ فى جميع المجالات .

كان الأتراك بعد دخولهم الإسلام قد وضعوا كل عبقريتهم الحربية والسياسية فى خدمة العقيدة التى اعتنقوها، وامتدت رقعة الإسلام على أيديهم فى أوربا خاصة، وأسلم على أيديهم ملايين من البشر فى شرق القارة الأوربية، ولكن الإسلام ذاته تحول على أيديهم إلى تقاليد تراعى لذاتها دون أن يكون لها ذخرها الحىّ فى حياة الناس، فضلا عن انتشار الفرق الصوفية التى تعيش حياتها الوجدانية الباطنة دون أن تلتفت إلى الواقع المعاش، لتحوله إلى واقع إسلامى صالح راشد . كما رفض الأتراك إعادة فتح باب الاجتهاد - تحرجا من الاجتهاد - فظل الفقه جامدا على ما كان عليه من قرون مضت، بينما الفقه فى هذا الدين دائب متجدد، تستجد فيه الأقضية (أى الأحكام) بقدر ما يجد للناس فى واقع حياتهم من القضايا كما قال عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه بروحه الصافية وذهنه الثاقب . ومهمته الدائمة التى لا تنتهى ولا يقفل باب الاجتهاد فيها هى - من جانب - تغطية الحياة النامية المتجددة بتفريعات من الأصول الثابتة فى شريعة الله، ومن جانب آخر لمّ الحياة الواقعية للناس فى إطار الشريعة لكى لا تشرد عن منهج الله . فإذا ما أقفل باب الاجتهاد، فالنتيجة إما أن تجمد الحياة وتتوقف عن النمو، وإما أن يشرد الناس بعيداً عن المنهج الربانى . وقد حدث هذا وذاك بالتدريج فى القرون الأخيرة من حياة المسلمين .

وأهملت العلوم التى كان المسلمون أصحابها وأساتذتها من قبل (بينما أخذت هذه العلوم ذاتها تنمو وتترعرع فى أيدى الصليبيين الذين تتلمذوا على المسلمين من قبل وأخذوا عنهم مفاتيح المعرفة فى الجامعات الإسلامية) فتأخرت حال المسلمين فى ميادين الحياة العملية بقدر ما تقدمت أوربا فى تلك الميادين .

ولم يفت الصليبية المتربصة ولا الصهيونية الحاقدة أن تنتهز هذه الفرصة السانحة للانقضاض .

لم تكن أوربا قد نسيت بعد مرارة هزيمتها فى الحروب الصليبية، ولا مرارة الحقد الذى أحسته من توغل الإسلام فى أقطار أوربا ذاتها (بل يقول ولفرد كانتول سميث إن أوربا لم تنس ذلك حتى اليوم بعد انقضاء كل هذه القرون!).

ولم يكن متوقعا أن تتوانى الصليبية المتربصة عن انتهاز هذه الفرصة المواتية من كل جانب، فبينما تتزايد قوتهم المادية والحربية تتناقص قوة المسلمين، وبينما ينتشر العلم عندهم يخيم الجهل على المسلمين، وبينما تتزايد الثروة فى أيديهم تتبعثر موارد المسلمين وتتضاءل.

وانقضت الصليبية بالفعل - بكل ما تحمله فى نفسها من حقد ومرارة - تحاول تمزيق العالم الإسلامى، وابتلاعه قطعة قطعة، تساندها الصهيونية بالأموال وبالعملاء، وهدفها الأكبر هو هدف الصليبية منذ قامت الصليبية.. محاولة القضاء على الإسلام.

* * *

لقد استعمرت أوربا العالم كله فى الفترة الأخيرة، بحثا عن الموارد، وبحثا عن الترف والنعيم على حساب الآخرين كما كان يفعل الاستعمار الرومانى من قبل (وأوربا هى وريثة الإمبراطورية الرومانية) وزهواً بالسلطان الذى تستعبد به العباد..

ولكنها فى العالم الإسلامى كان لها شأن آخر..

كانت تبحث عن الموارد ولا شك، وتبحث عن الترف والنعيم على حساب الآخرين ولا شك، وتستمتع بالزهو والسلطان والقدرة على السيطرة والاستعباد..

ولكنها قبل ذلك كله كانت تسعى إلى شيء آخر، أهم فى نظرها من الموارد والخامات والترف والسلطان، هو إزالة الإسلام من الوجود، وفى القليل إخضاع الإسلام للنصرانية..

لسنا نحن الذين نقول ذلك:

إنما يقوله كتاب تلك الفترة من التاريخ من المستشرقين - أو بعبارة أدق - المنصرين.

لقد كان هذا الطور من عملية الاستشراق ممثلاً فى عملية التنصير (التى يسمونها التبشير !) فقد انطلق المنصرون مع طلائع الاستعمار الصليبى يسعون فى لهفة مجنونة إلى تنصير المسلمين، ويؤكدون هذا الهدف فى كلامهم وأفعالهم، وذلك قبل أن يتبينوا بالتجربة العملية أن التنصير المباشر للمسلمين عمل أحمق ليست وراءه نتيجة حقيقية. فلما تبين لهم، عدلوا عن التنصير المباشر، وداروا حول الهدف ليصلوا إليه من طريق آخر، هو تنصير أفكار المسلمين وعاداتهم وتقاليدهم ونظرتهم إلى الحياة، **بهدف استعبادهم للنصرانية**، مع إبقائهم يحملون أسماء المسلمين، ويحسبون أنهم مازالوا مسلمين!

يقول اللورد كرومر: الحاكم الإنجليزى لمصر بعد الاحتلال (وكان يسمى المعتمد البريطانى) فى كتابه « مصر الحديثة Modern Egypt » : إن مهمة الرجل الأبيض الذى وضعته العناية الإلهيه على رأس هذه البلاد أن يجعل النصرانية هى قاعدة التعامل، مع المحافظة التامة على المظاهر الخاوية للدين الإسلامى، كعطلة الجمعة والعيدين وما إلى ذلك، منعاً من إثارة الشكوك !

ويقول أ. شاتلييه رئيس تحرير مجلة « العالم الإسلامى La Revue du Monde Musulman » الفرنسية، فى مقدمة كتاب « الغارة على العالم الإسلامى La Conquete du Monde Musulman » الذى صدر فى فرنسا فى بدايات القرن العشرين [1] : « ولا شك فى أن إرساليات التبشير من بروتستانتية وكاثوليكية تعجز عن أن تزحزح العقيدة الإسلامية من نفوس منتحليها، ولا يتم ذلك إلا ببث الأفكار التى تتسرب مع اللغات الأوربية. فبنشرها اللغات الإنجليزية والألمانية والهولندية والفرنسية يحتك الإسلام (يقصد المسلمين بالطبع!) بصحف أوربا، وتتمهد السبيل لتقدم (!) إسلامى مادى،

---

(١) ترجمة محب الدين الخطيب.

وتقضى إرساليات التبشير لبانتها من هدم الفكرة الدينية الإسلامية، التى لم تحفظ كيانها وقوتها إلا بعزلتها وانفرادها».

ويقول لورنس براون Lawrence Brown : «الخطر الحقيقى كامن فى نظام الإسلام، وفى قوته على التوسع والإخضاع، وفى حيويته. إنه الجدار الوحيد فى وجه الاستعمار الأوربى [1] (ولذلك يجب تحطيمه بطبيعة الحال !).

وجاء فى كتاب «إعادة التفكير فى شئون الإرساليات التبشيرية Rethinking Missions» : «ولقد كانت الدول الأجنبية تبسط الحماية على مبشريها فى بلاد الشرق لأنها تعدهم حملة لتجاربها وآرائها وثقافتها إلى تلك البلاد. بل لقد كان ثمت ما هو أعظم من هذا عندها. لقد كان المبشرون يعملون - بطرق مختلفة كالتعليم مثلا - على تهيئة شخصيات شرقية لا تقاوم التبسيط (يقصد التسلط) الأجنبى» [2].

ويقول اليسوعيون: «ألم نكن نحن ورثة الصليبيين؟ أو لم نرجع تحت راية الصليب لنستأنف التسرب التبشيرى والتمدين المسيحى، ولنعيد فى ظل العلم الفرنسى وباسم الكنسية مملكة المسيح؟» [3].

«ومع أن التبشير يعمل ضد البوذيين والبرهميين أيضاً، فإن المقصود الأول بالجهود التبشيرية هم المسلمون» [4].

* * *

وهكذا تساند الاستعمار الصليبى والتبشير لتحقيق هدف محدد: هو محاولة القضاء على الإسلام، واستعباد المسلمين للنصرانية، إرواء للحقد الصليبى المشبوب.

وسنبسط فى فصل تالٍ آثار التبشير والاستعمار فى حياة المسلمين. ولكنا

---

(١) عن كتاب التبشير والاستعمار فى البلاد العربية تأليف الدكتور مصطفى خالدى والدكتور عمر فروخ طبع بيروت ص ٣٢ .

(٢) المصدر السابق ص ٥٠ .

(٣) المصدر السابق ص ١١٧ .

(٤) المصدر السابق ص ٤١ نقلاً عن كتاب Christian Workers

هنا نجتزى بإبراز هذه الحقيقة، وهى أن التبشير كان دائماً عملية سياسية صليبية، وليس مجرد محاولة لنشر الديانة المسيحية. كان وسيلة من أكبر الوسائل التى استخدمتها الصليبية لهدم الإسلام، وتوهين عرى الدين فى نفوس المسلمين، وإشاعة الضعف والانحلال فيهم؛ لتستولى عليهم وتستعبدهم. وكانت كل الكتب التبشيرية التى كتبت عن الإسلام مدفوعة بهذا الدافع. فهى لا تكتب عن الإسلام لتتحرى حقيقة الإسلام! وإنما لتتحرى الطرق التى تشوه بها العقيدة فى نفوس المسلمين لتسلبهم إياها، وتسلمهم بعد ذلك للضعف والهوان.

« ولا ينبغى لنا أن نتوقع من جمهور العالم الإسلامى أن يتخذ له أوضاعاً وخصائص أخرى إذا هو تنازل عن أوضاعه وخصائصه الاجتماعية (أى المستمدة من الإسلام) إذ الضعف التدريجى فى الاعتقاد بالفكرة الإسلامية وما يتبع هذا الضعف من الانتقاض والاضمحلال الملازم له، سوف يفضى بعد انتشاره في كل الجهات إلى انحلال الروح الدينية من أساسها، لا إلى نشأتها بشكل آخر » (١).

كانت كتبا موجهة لهدف معين، ومن ثم امتلأت بالطعن والتجريح، والتأويل الفاسد للقرآن والسنة، وتصوير الرسول ﷺ في أقبح صورة، والافتراء على وقائع حياته وتصرفاته بما ينفّر الفطرة البشرية.. ثم الربط بين واقع المسلمين يومئذ، وتأخرهم وانحطاطهم وجهلهم، وبين الإسلام ذاته، وهو سلاح خبيث استخدمه المنصرون - والمستشرقون من بعدهم - وألحوا فى استخدامه لصرف المسلمين عن التمسك بالإسلام!

المسلمون متأخرون لأنهم مسلمون! وضعفاء لأنهم مسلمون! وجهّال لأنهم مسلمون! وفقراء لأنهم مسلمون! ومرضى لأنهم مسلمون! ولا سبيل إلى تقدمهم وتحضرهم وتمدنهم إلا أن يخرجوا من الإسلام ويصبحوا نصارى.. أو فى القليل لا يصبحوا مسلمين!

مئات من الكتب. والنشرات. والمحاضرات. والدروس.. تؤكد هذا المعنى الخبيث، وترسخه فى نفوس المسلمين. وتستخدم له كل الوسائل الممكنة من

---

(١) مقدمة كتاب « الغارة على العالم الإسلامى » سبق ذكره.

دعوة علنية مباشرة إلى تستر وراء الأعمال الخيرية والمستشفيات والمستوصفات، إلى خطف الأطفال من أهلهم وتنصيرهم بالقوة، إلى بذل الأموال والمغريات..

ولكن أهم وسيلة كانت فى نظر المبشرين هى التعليم [١] !

« اتفقت آراء سفراء الدول الكبرى فى عاصمة السلطنة العثمانية على أن معاهد التعليم الثانوية التى أسسها الأوربيون كان لها تأثير على حل المسألة الشرقية يرجع على تأثير العمل المشترك الذى قامت به دول أوربا كلها » [٢] !!

والمسألة الشرقية في عرف الكتاب الغربيين يومئذ هي مسألة القضاء على الخلافة العثمانية، وتمزيق العالم الإسلامى، وتوزيع أسلابه بين الصليبيين !

* * *

المستشرقون اليوم – فى طورهم الأخير – هم خلاصة هذا كله..

خلاصة الصليبية الممتدة فى التاريخ، وخلاصة التبشير..

يقول محمد أسد فى كتابه « الإسلام على مفترق الطرق »:

« الواقع أن المستشرقين الأولين فى الأعصر الحديثة كانوا مبشرين نصارى يعملون فى البلاد الإسلامية، وكانت الصورة المشوهة التى اصطنعوها من تعاليم الإسلام وتاريخه مدبرة على أساس يضمن التأثير فى موقف الأوربيين من « الوثنيين » [٣]. غير أن هذا الالتواء العقلى قد استمر مع أن علوم الاستشراق قد تحررت من نفوذ التبشير، ولم يبق لعلوم الاستشراق هذه عذر من حمية دينية جاهلية تسيىء توجيهها. أما تحامل المستشرقين على الإسلام فغريزة موروثة، وخاصة طبيعية، تقوم على المؤثرات التى خلفتها الحروب الصليبية، بكل ما لها من ذيول، فى عقول الأوربيين الأولين.

---

(١) سنتحدث عن ذلك فى فصل قادم إن شاء الله.

(٢) الغارة على العالم الإسلامى ص ٧٢.

(٣) يشير إلى الطور الثانى من أطوار الاستشراق حين كان المستشرقون يكتبون لصد التأثير الإسلامى عن أوربا. ويشير فى الوقت ذاته إلى أن ذات البضاعة القديمة هى التى استخدمها المبشرون لصرف المسلمين عن التمسك بالإسلام.

« ولقد يتساءل بعضهم فيقول : كيف يتفق أن نفورا قديما مثل هذا – وقد كان دينيا فى أساسه وممكنا فى زمانه بسبب السيطرة الروحية للكنيسة النصرانية – يستمر فى أوربة فى زمن ليس الشعور الدينى فيه إلا قضية من قضايا الماضى ؟

« ليست هذه المعضلات موضع استغراب أبداً، فإنه من المشهور فى علم النفس أن الإنسان قد يفقد جميع الاعتقادات الدينية التى تلقنها فى أثناء طفولته، بينما تظل بعض الخرافات الخاصة – التى كانت من قبل تدور حول تلك الاعتقادات المهجورة – فى قوتها تتحدى كل تعليل عقلى فى جميع أدوار ذلك الإنسان، وهذه حال الأوربيين مع الإسلام. فعلى الرغم من أن الشعور الدينى الذى كان السبب فى النفور من الإسلام قد أخلى مكانه فى هذه الأثناء لاستشراف على الحياة أكثر مادية، فإن النفور القديم نفسه قدبقى عنصرا من الوعى الباطنى فى عقول الأوربيين. وأما درجة هذا النفور من القوة فإنها تختلف بلا شك بين شخص وآخر، ولكن وجوده لا ريب فيه. إن روح الحروب الصليبية – فى شكل مصغر على كل حال – مازال يتسكع فوق أوربة، ولا تزال مدنيتها تقف من العالم الإسلامى موقفاً يحمل آثاراً واضحة لذلك الشبح المستميت فى القتال » [1] .

ولقد كان هذا كله بطبيعة الحال حديثاً عن المستشرقين النصارى. أما المستشرقون اليهود فلهم دوافعهم التاريخية الخاصة، التى تلتقى فى النهاية مع رغبة الصليبية فى القضاء على الإسلام.

---

(١) الإسلام على مفترق الطرق، مرجع سابق، ص ٥٨ – ٥٩ .

الأهداف والوسائل

فأما الأهداف فهى – كما رأينا – أهداف الصليبية العالمية والصهيونية العالمية . .

وأما الوسائل فشتى

* * *

منذ مولد الإسلام لقيه اليهود والنصارى بالعداوة والبغضاء . .

فأما اليهود فقد كانوا يتوقعون أن يبعث نبى فى تلك الفترة من الزمان . وكان علماؤهم يقولون ، بحسب أمارات معينة يعرفونها فى التوراة : لقد أظل زمان نبى . ولكنهم كانوا يتمنون أن يكون النبى من بين أنفسهم . فلما بعث النبى ﷺ من أبناء إسماعيل لا من أبناء إسحق كانوا أول كافر به !

﴿ ولَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ * بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾

[البقرة : ٨٩ – ٩٠] .

﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ١٠١] .

﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ * وَآمِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ ﴾ [البقرة : ٤٠ – ٤١] .

ومنذ اللحظة الأولى أخذ اليهود يكيدون للإسلام !

فمرة يظاهرون عليه قريشاً وغيرهم من كفار العرب – وهم يعلمون أنهم

كفار! - فيقولون عنهم إنهم أهدى سبيلا من المسلمين، ويشجعونهم بذلك على المضى فى كفرهم، ويؤخرون هدايتهم إلى دين الله.

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ﴾ [النساء: ٥١].

وتارة ينقضون المواثيق ليمكنوا الكفار من المسلمين فى قلب المعركة كما وقع فى وقعة الأحزاب.

وتارة يحاولون خلخلة الصف المسلم بالإرجاف ونشر الإشاعات وبلبلة الخواطر..

وتارة ينشئون طابورا خامسا داخل الصف المسلم بموالاة المنافقين، وإمدادهم بالخطط والتدبيرات التى تعرقل سير الدعوة، وتشغل جهد المسلمين بمواجهة الفتن والاضطراب..

وتارة يحاولون قتل الرسول ﷺ بالسم أو بالاغتيال..

وتارة يدخلون المعركة صريحة ضد المسلمين بأسلحتهم وحصونهم..

وهكذا وهكذا مما سجله تاريخ الفترة الأولى من الدعوة الإسلامية على عهد الرسول ﷺ. فلما أجلوا من الجزيرة لم يهدأ كيدهم ولا محاولاتهم الدائبة للقضاء على الإسلام فى مهده. فكانت الفتنة الكبرى التى أضرمها عبد الله ابن سبأ، وأودت بحياة عثمان رضى الله عنه، إذ كان قد تظاهر بالإسلام ليفسد من داخل الصف. فراح ينشر الأراجيف ويزور الأخبار على عثمان رضى الله عنه ويسعى بها فى الأمصار، ويتابعها حتى تصل إلى غايتها، محاولا ما حاوله أخ له من قبل مع النصرانية: لولا تكفل الله سبحانه وتعالى بحفظ كتابه وإظهار دينه.

ومنذ ذلك الحين لم يكفوا قط عن الفتنة للمسلمين حيثما استطاعوا، على الرغم من أنهم لم يجدوا لهم ملجأ آمنا فى تاريخهم كله إلا فى كنف الدولة الإسلامية، حيث كانوا يعيشون عيشا رغدا فى كنف الإسلام..

وفى العصر الحديث كانوا أعوان الصليبية على الإسلام، ييسرون لهم السبل للإيقاع بالمسلمين. فروتشيلد اليهودى هو الذى أمدّ انجلترا بالمال الذى اشترت به حصة مصر فى قناة السويس، مما مهد للاحتلال البريطانى لمصر فيما بعد، وكانت انجلترا مترددة فى دخول هذه المغامرة فى بادىء الأمر لولا تشجيع اليهود. ثم كان يهود الدونما فى تركيا هم الذين قاموا بالدور الأخير فى القضاء على الخلافة الإسلامية، حين تظاهروا بالإسلام كما تظاهر عبد الله بن سبأ من قبل وهم يضمرون العداوة والبغضاء والكيد لهذا الدين، وكان منهم كمال أتاتورك الذى كان الأداة التى استغلتها الصهيونية والصليبية للقضاء على رمز الوحدة الإسلامية، وكان اليهود قد قرروا إزالة الخلافة منذ رفض السلطان المسلم عبد الحميد إعطاءهم وطنا قوميا فى فلسطين، فعملوا على إثارة الطوائف غير المسلمة داخل العالم الإسلامى، وتحالفوا مع الصليبية على برنامج مخطط مدروس لخلخلة وحدة العالم الإسلامى وتفتيته بإثارة النعرات القومية فى كل مكان فى بلاد المسلمين، فأغروا الأتراك باعتناق القومية الطورانية والعرب باعتناق القومية العربية، لضرب الترك بالعرب والعرب بالترك، إلى جانب الفتن الأخرى التى قام بها النصارى فى بلاد البلقان وغيرها من البلاد الخاضعة للدولة العثمانية. وفى النهاية كانت الضربة القاضية على يد عميلهم كمال أتاتورك الذى أعدوه للقيام بالدور الذى رسموه لتحطيم الكيان الذى يجمع المسلمين ويوحدهم ويمنحهم كيانهم المتميز، فى ظل البطولات الزائفة التى أضفوها عليه لإزاغة عيون الجماهير، إذ انسحبت أمامه – هو.. الصغير – جيوش الحلفاء التى كانت منتصرة ظافرة من قبل، ليبدو فى نظر الجماهير بطلا، وتكون جرائمه التى يرتكبها فى حق الإسلام والمسلمين بطولات !!

واشتد مكر اليهود والصهيونية منذ ذلك الحين لتفتيت كيان المسلمين.. بما يعرف المسلمون وما لا يعرفون !

* * *

ذلك تاريخ اليهود مع الإسلام.

أما النصرانية فقد بدأت العداوة مبكرة كذلك منذ فجر التاريخ الإسلامى!.

لم يكن للنصرانية شأن يذكر فى داخل الجزيرة العربية وقت نزول الإسلام، لذلك لم يكن لهم مع المسلمين شأن فيما عدا المجادلات التى كانوا يجادلونها فى العقيدة ويرد القرآن عليها أولاً بأول.

ولكن ما كاد الإسلام يتمكن فى الجزيرة ويصبح قوة ملموسة حتى قامت النصرانية الأوربية تناوئه وتناهضه العداء!

لماذا ؟!

إن كتاب الغرب يكررون فى كتاباتهم اعتذارا عن وحشية الحروب الصليبية البشعة، وعن البغضاء التى يحملونها للمسلمين، أن الإسلام هو الذى بدأهم بالعدوان حين قامت جيوشه تجتاح الإمبراطورية الرومانية وتنتزع منها الأرض والناس والعقيدة والسلطان!

حقاً ؟!

أو لم يكن الرومان هم الذين جهزوا لغزو الجزيرة العربية للقضاء على الإسلام فى مهده، وهو لم يصنع لهم شيئاً إلا أن دعاهم - مجرد دعوة سلمية - إلى الإسلام ؟!

ثم قامت الحروب بين المسلمين وبين الروم، حتى استولى المسلمون على بلاد الشام، فاستقبل نصارى الشام المسلمين بالترحاب والمودة والاطمئنان والأمن، لأنهم وجدوا فيهم عينة من البشر جديدة عليهم، بل جديدة على تاريخ البشرية، وفريدة فى التاريخ.

يقول المستشرق ت.و. آرنولد T.W. Arnold فى كتاب «الدعوة إلى الإسلام The Preaching of Islam»:

«ولما بلغ الجيش الإسلامى وادى الأردن، وعسكر أبو عبيدة فى فحل،

كتب الأهالى المسيحيون فى هذه البلاد إلى العرب يقولون: «يامعشر المسلمين، أنتم أحب إلينا من الروم - وإن كانوا على ديننا - أنتم أوفى لنا وأرأف بنا، وأكفّ عن ظلمنا وأحسن ولاية علينا. ولكنهم غالبونا على أمرنا وعلى منازلنا»[1] .

أما أوربا الصليبية فقد بقيت على عدائها - الذى بدأته هى - للإسلام.

بقيت تناوش المسلمين - الذين رحب بهم نصارى الشام وأحبوهم، وعرفوا فى حكمهم من الأمن والطمأنينة ما لم يعرفوه فى أهل دينهم الرومان - وبقيت تحاول أن تجليهم من الأرض التى استولوا عليها، واستمرت الحروب تخسرها الإمبراطورية الرومانية ويكسبها المسلمون، حتى وقع نصف الإمبراطورية الرومانية تقريباً فى يد المسلمين.

ثم كانت الحروب الصليبية امتدادا للبغضاء الأولى التى بادأت المسلمين بالعداوة أول مرة، ومحاولة مجنونة لمحو الإسلام من الوجود. وارتكبت الحروب الصليبية من المجازر الوحشية والغدر ونقض المواثيق والفجور والفسوق ما تسجله مراجع الصليبين أنفسهم.

ثم انقض النصارى على المسلمين فى الأندلس ببشاعة لا مثيل لها من قبل فى التاريخ.. ألوف وألوف من المسلمين يبادون ذبحا وشنقا وحرقا فى حفر من النار المشتعلة، وحرقا فى الأفران، وألوف وألوف تقطع أوصالهم بالسيوف والخناجر والشد البطىء على العجلات، والشد إلى الخيل التى تساق فى اتجاهات متضادة لتمزيق الأرجل والأبدان وفصل أجزائها بعضها عن بعض..

وصور ينفر من مجرد تصورها الوجدان..

ولكنها كانت سهلة يسيرة على نفوس الصليبيين فى مواجهة الإسلام، وتجاوبت بها أصداء الفرح فى أوربا كلها، لأنها أشبعت الحقد الصليبى المسعور.

ثم قامت الصليبية تعاود للمرة الثالثة محاولتها للقضاء على الإسلام..

---

(١) ص ٥٧ من الترجمة العربية لحسن إبراهيم حسن وزميليه .

المرة الأولى – مبتدئة – كانت على عهد الرسول ﷺ .

والمرة الثانية – امتدادا لها تحت ستار حماية الحجاج النصارى إلى بيت المقدس (الذين لم يكن يصيبهم أى أذى على أيدى المسلمين) – كانت في القرن الحادى عشر، واستمرت إلى القرن الثالث عشر الميلادى .

والمرة الثالثة – عودا على بدء – بدأت فى القرن السادس عشر، وما تزال قائمة حتى اللحظة!

فما إن سقطت آخر دويلة إسلامية فى الأندلس – دويلة غرناطة – عام ١٤٩٢ ، حتى أصدر البابا بيانا بتقسيم أرض « الكفار » (يقصد المسلمين) بين أسبانيا والبرتغال، كما أصدر أوامره بمتابعة المسلمين خارج الأندلس ومطاردتهم . .

وكانت البرتغال أسبق الدول استجابة لأمر البابا، فخرجت تتحسس الطريق حول العالم الإسلامى لترى من أى منفذ تنفذ إليه . وكانت رحلة فاسكودا جاما عام ١٥١٧ م أول رحلة استكشافية صليبية فى هذا السبيل، فقد قال فاسكودا جاما حين وصل إلى جزر الهند الشرقية : « الآن طوقنا رقبة الإسلام، ولم يبق إلا شد الحبل ليختنق فيموت »! هذا مع أن الذى هداه فى رحلته تلك هو البحار المسلم ابن ماجد، وهو الذى قاد سفينته إلى هناك !!

وتوالت بعد البرتغال بقية الدول الأوربية تتنافس فيما بينها على اغتصاب الأرض الإسلامية والاستيلاء عليها، مدفوعة بذات الدافع الصليبى الذى دفع البرتغال من قبل، حتى إذا جاء القرن التاسع عشر كانت كل الأرض الإسلامية تقريباً قد وقعت فى قبضة الصليبية، فيما عدا تركيا ذاتها وأجزاء من الجزيرة العربية . وجاءت الحملة الفرنسية إلى مصر عام ١٧٩٨ م ثم تلتها الحملة البريطانية عام ١٨٨٢ م وكانت كلتاهما حملة صليبية فى الحقيقة، وإن تخفّت كل منهما بستار تخفى وراءه مقاصدها الصليبية، ولكنه ستار يظهر أكثر مما يخفى! فقد كان من أهم « أعمال » نابليون فى مصر تنحية الشريعة الإسلامية

وفرض قانون من وضعه بدلا منها، ولما لم يرض علماء الأزهر عن ذلك الوضع أمر بضرب الأزهر بالقنابل من القلعة، «ودخلت الخيل الأزهر» [1] لتجعله اصطبلا للخيول! وكان من أهم «أعمال» اللورد كرومر ما سبقت الإشارة إليه من «تثبيت دعائم الحضارة المسيحية إلى أقصى حد ممكن بحيث تصبح هى أساس العلاقات بين الناس..» .

وعلى هذه الأرضية الصليبية الواضحة كان يعمل المستشرقون...

* * *

كان المستشرقون - كما رأينا فى نهاية الفصل السابق - هم ورثة المبشرين، ولكنهم - لأمرما - اتخذوا سمتا مغايرا لأولئك المبشرين.

كان اللورد كرومر يزجر المبشرين عن محاولاتهم المكشوفة لتنصير المسلمين.. ولم يكن ذلك لأنه يختلف معهم فى المقصد أو الغاية. فقد مر بنا من كلامه الصريح في هذا الشأن ما يثبت اتفاقه معهم فى الهدف النهائى المنشود. إنما كان يزجرهم - كما قال لهم حين اتهموه بالتضييق عليهم (!) - لأن المحاولات العلنية المكشوفة لتنصير المسلمين تستثير حمية المسلمين لدينهم، حين يرونه يهاجم مهاجمة صريحة، فيردهم ذلك إلى التمسك بالإسلام، عصبية على الأقل! وعند ذلك يفسد التدبير !

وإذاً فقد كان اللورد كرومر أبعد نظرا من أولئك المبشرين الشبان المتحمسين، وكان تدبيره أخبث من تفكيرهم المدفوع بالرغبة العاجلة فى الظهور عند الجهات التى تؤجرهم وتجزل لهم العطاء !

وكان رأيه أن العمل فى مصر خاصة - وفى العالم الإسلامى عامة - يحتاج إلى تدبير أخفى من التبشير.

وصدر الوحى من المخططين إلى المبشرين أن ينزووا بالتدريج، ثم يعودوا فى زى آخر مختلف.. زى الاستشراق والمستشرقين !

---

(١) عنوان كتاب من أجود ما كتب عن هذه الفترة من تاليف محمد جلال كشك .

وحقيقةً إن « المستشرقين » بهذا الزى المتخصص أقدم من هذا التاريخ .

ولكن حقيقةٌ كذلك أن أولئك المستشرقين القدامى لم يكونوا يفترقون فى شىء عن المبشرين، أى أن كتاباتهم - سواء كانوا يهودا أو نصارى - لم تكن تحمل إلا الطعن والتجريح والتشويه والتنفير، والدعوة السافرة إلى الخروج من الإسلام .

أما المستشرقون الذين نتحدث عنهم الآن فى هذا الكتاب فهم أولئك الذين اتخذوا السمت « العلمى » « الموضوعى » « المنهجى » .. وهؤلاء هم الذين برزوا فى تلك الفترة التى خشيت فيها الصليبية من جهة أن يؤدى التبشير الصريح إلى إفساد التدبير كله، وحفز المسلمين على التمسك بالإسلام فى مواجهة الشتائم المتوقحة والطعن الجارح، واطمأنت من جهة أخرى إلى إرساء قواعدها عن طريق السياسة التعليمية التى يضعونها للبلاد الإسلامية، والتى تخرج أجيالا من المسلمين لا يعرفون حقيقة الإسلام، وينفرون نفوراً خفياً أو ظاهراً من الحياة الدينية، ولديهم الاستعداد - أو بذرة الاستعداد - لنبذ الدين وتقبل الكلام المحرف بشأنه، فيحسن فى تلك الفترة أن يكون التبشير خفياً، يتخذ ثوب « العلم » و « التعليم » .

ويجدر بنا أن نعرف كذلك أن مصر بصفة خاصة كانت مركز التجارب الصليبية، وكان ما يحدث فيها يؤثر كثيراً فى رسم السياسة العامة للصليبيين تجاه العالم الإسلامى كله .

وذلك لأسباب ..

جاء فى كتاب « الغارة على العالم الإسلامى » قول أحد المنصرين بمناسبة الحديث عن الأزهر: « ربما كانت العزة الإلهية دعتنا إلى اختيار مصر مركز عمل، لنسرع بإنشاء هذا المعهد المسيحى لتنصير الممالك الإسلامية » (١) !!

---

(١) ص ٣٣ من الترجمة العربية .

إن مصر هي المركز الثقافي للعالم الإسلامي منذ زمن بعيد لوجود الأزهر فيه (مع عوامل أخرى كثيرة) وهي كذلك مركز من مراكز التوجيه للعالم الإسلامي . ومن ثم فإن إفساد الإسلام في مصر له أهمية بالغة بصفة خاصة، لأن الناس في العالم الإسلامي يثقون في مصر أنها « أمهم » وموجهتهم، فأيما توجيه يصدر منها يكون له صداه في العالم الإسلامي كله . فإذا كان هذا التوجيه مصنوعا على يد الصليبية وخادما لأغراضها، فقد كسبت الصليبية أكثر من نصف المعركة بجهد أقل، ولم يبق عليها في الأماكن الأخرى إلا لمسات « تكميلية » بما يناسب كل بلد على حدة، بعد تصدير الفساد إليها من مركز التأثير والتوجيه [1] !

لذلك كانت عناية الصليبية - ومعها الصهيونية - بمصر عناية بالغة منذ أول لحظة . . وما تزال . وكانت جهودهما في إفساد الدين ومحاولة القضاء عليه في مصر جهوداً مركزة إلى أقصى حد، منسقة دقيقة مدروسة مخططة بكل ما تملك الصليبية والصهيونية من جهد وكيد وتدبير . .

ولذلك كانت إشارة كرومر السابقة إشارة ذات دلالة في توجيه خطة العمل في هذه البلاد . .

يكفي ذلك القدر من أعمال المنصرين المكشوفة . . وتتزايد أعمال « المستشرقين » الملفوفة !

* * *

---

(١) لا ينفي هذا أن الصليبية قد بذلت جهوداً ملحوظة في بلاد أخرى فقد كان نشاطها في الهند بالذات وفي الشمال الإفريقي كذلك نشاطاً ملحوظاً . ولكنا نقول فقط إن التركيز على مصر كان أشد، وإن التخطيط بالنسبة لها كان أدق وأشمل .

عمل المستشرقون لخدمة الصليبية الصهيونية بوسائلهم الخاصة .. الوسائل «العلمية» !

لا ينبغي منذ اليوم أن يكون الكلام عن الإسلام مكتوبا بلغة «الشوارع» .. لغة الشتائم المثيرة كما كانت كتابة المنصرين. إنما يكون الطعن والتجريح بلغة «العلم»! لغة المتعلمين على طريقة دنلوب، الذين لديهم الاستعداد - أو بذرة الاستعداد - لتلقى هذا الكلام عن الإسلام والمسلمين.

ذلك من حيث الشكل. أما من حيث الموضوع، من حيث الأهداف النهائية المراد تحقيقها فلا خلاف بين المنصرين وبين المستشرقين، فهؤلاء يخدمون أهدافا واحدة منذ البدء إلى الانتهاء !

وقع فى يدى فى يوم من الأيام كتاب بالانجليزية بعنوان Missions and Missionaries يتكلم عن نشاط الجمعيات التنصيرية، وردت فيه هذه القصة : أن كرومر حين جاء إلى مصر ضيق على الهيئات التنصيرية فاشتكته هذه إلى الحكومة البريطانية، فأرسلت الحكومة البريطانية الشكوى إلى كرومر ليرد عليها ، فجمع المنصرين وقال لهم : هل تتصورون أن أقف فى وجهكم أو أضيق عليكم؟! ولكنكم تقومون بأعمال استفزازية، فتخطفون الأطفال وتنصرونهم بالقوة، وأحياناً تخطفون الكبار كذلك، فيستفز هذا مشاعر المسلمين فيتمسكون بدينهم أكثر. ولكنى اتفقت مع شاب تخرج حديثاً فى كلية اللاهوت بلندن، ليجىء إلى مصر ويضع سياسة تعليمية ستحقق لكم جميع أهدافكم [1] !! وكان يقصد بذلك مستر دنلوب الشهير!

* * *

(١) كان أحد الأصدقاء قد عثر على هذا الكتاب فى أثناء قيام أحد الأقباط فى الصعيد بهدم بيته وإعادة بنائه، فأطلعنى عليه ثم استرده منى، فلما أردت أن أحصل على نسخة من الكتاب لم أجد فى المكتبات، فطلبت من صديق فى لندن أن يبحث عن الكتاب فى مكتبة المتحف البريطانى ويصوره لى، فقيل له إن هذا من الكتب الممنوع إعارتها أو تصويرها !

يعمل المستشرقون لهدفين كبيرين رئيسين :

فهم أولاً يرصدون كل نشاط إسلامى - فكرى أو حركى - بما هو ميسر لهم من الأدوات، سواء بقراءة ما يكتبه المسلمون بلغاتهم - العربية بصفة خاصة، والأوردية، والتركية والفارسية - أو التحدث المباشر إليهم بألسنتهم لمعرفة أفكارهم وأحوالهم، ثم يبلغون بها دولهم التى تنفق عليهم، لتكون على علم بها أولا بأول، ويشيرون عليها - خفية أو علانية - بما ينبغى عمله تجاه ذلك النشاط، فهم بهذه الصفة « جهاز مخابرات ثقافى » يتحسس الأخبار ويبلغها ويشير بالتدبير المناسب .

وهم ثانيا يقومون بجهود « علمية ! » منظمة للتشويش على المسلمين، وفتنتهم عن دينهم، وتشتيت جهودهم وأفكارهم عن إقامة حركة بانية هادفة لتحقيق الإسلام فى الأرض فى أى بلد من بلاد الإسلام .

وهما هدفان يلتقيان فى النهاية عند خدمة المخطط الصليبى الصهيونى الرامى إلى القضاء على الإسلام .

* * *

وسنعرض فى الفصل القادم نماذج من كتب المستشرقين، تمثل بعض مدارسهم وأساليبهم « العلمية ! » لتحقيق أهداف الصليبية الصهيونية، ونناقش منها ما يستحق المناقشة - الموضوعية - لبيان ما فيها من زيف ومغالطات وأباطيل، ولكنا نحتاج هنا في هذا الفصل - ونحن نستعرض الأهداف والوسائل - أن نتحدث عن القضايا العامة التى يثيرها المستشرقون، والأهداف الخفية من إثارتها، والوسائل المتشابهة التى يلجئون إليها لخدمة الغرض المشترك بينهم جميعا على الرغم من اختلاف تخصصاتهم .

وجدير بنا أن نشير هنا - وسنبين ذلك بالتفصيل فى موضعه فى الفصل القادم بإذن الله - إلى التشابه والتماثل والتكرار الممل الذى يجده الإنسان ما بين كتاب للمستشرقين وكتاب . فهى مجموعة من القضايا أو الشبهات والدعاوى

يثيرونها بذاتها فى كل مرة مع اختلاف طفيف في الصورة، وأحياناً بلا اختلاف حتى فى الألفـاظ، وكأنما هى عصـابة تجتمع لتتفق على إثارة هـذه القضـايا أو الشبهات والدعاوى، وتكرارها، والإلحاح عليها لهدف مرسوم.

نعم. هذا التكرار - الممل - فى كتبهم لا يأتى عفواً بلا اتفاق. إنما هو اتفاق بينهم - منطوق أو غير منطوق [1] - أن يداوموا على إثارة هذه النقاط ومناوشة المسلمين بها من كل جانب، حتى إذا رآها المسلمون تصدر عن كل باحث غربى فى الإسلام، ظنوا أنها لابد أن تكون حقيقة.. أو داخلهم الشك على أقل تقدير!

وسواء كانت هذه القضايا والشبهات والدعاوى مقصودا بها الشوشرة على أذهان المسلمين وأرواحهم لخلخلة عقيدتهم، أو استثارتهم للرد عليها، وإنفاق طاقتهم فى هذه المحاولة بدلاً من التفرغ للبناء، أو إحراجهم بالاتهامات المستمرة ليتنصلوا من بعض حقائق دينهم التى يرغب الأعداء أن يزحزحوهم عنها كمسألة الجهاد فى الإسلام، أو استدراجهم فى أثناء الدفاع عن أنفسهم ودينهم إلى إعلان صورة غير صحيحة للإسلام تخدم الصليبية الصهيونية فى النهاية، كما استدرجوا بعض الكتاب لكى يعلنوا أنه لا ينبغى تطبيق حد الردة على المسلم المرتد، واستدرجوا آخرين ليقرروا أن الإسلام يسوى بين الرجل والمرأة فى كل شيء، أو أنه يعطى المرأة **جميع الحريات** التى أعطاها لها الغرب، وآخرين ليقولوا إنه لابد من «تطوير» الإسلام ليتسع لصورة الحياة الراهنة في القرن العشرين (بصرف النظر عما فيها من الفساد).. إلخ.

سواء كان الهدف هذا أو ذاك أو ذلك، فإن العصابة تتفق فيما بينها علي مداومة الكلام فى هذه النقاط - كل بطريقته الخاصة - ليحدث في نفوس المسلمين الأثر المطلوب!

بل إن العصابة لتمارس أحياناً لوناً آخر من نشاط العصابات !

---

(١) يعقد المستشرقون مؤتمرات دورية - علنية وسرية - لتنسيق خططهم إزاء العالم الإسلامى.

إنها – أحياناً – لا تبالى أن تتضارب أقوال بعضها وبعض فى الموضوع الواحد فى كتب مختلفة لكتاب مختلفين، بل أحياناً في الكتب المختلفة للمؤلف الواحد، بل أحياناً للمؤلف الواحد فى الكتاب الواحد !

ولا يجىء ذلك اعتباطاً !

إن البحث « العلمى » هو آخر ما يهدف إليه هؤلاء « العلماء »! إنما البلبلة والتشويش والتشويه هى التى تعنيهم ! ومن وسائل البلبلة أن يقول أحدهم قولا فى الإسلام وينفيه منهم شخص آخر. أو يقول هو نفسه في مكان غير ما يقوله فى مكان آخر، فإذا الحصيلة المتحصلة فى ذهن القارئ هى الشكوك تتناوشه من الشمال واليمين !

على أن الأمر ليس فوضى فى هذه البلبلة !

إن أحدهم حين يقول القول، إنما يقصد – فى لحظته تلك، من زاويته تلك – أن يصل إلى هدف معين من تشكيك أو تشويش أو تشويه (أو تخدير لوضع السم كما سيجىء بيانه بالتفصيل!) فإذا بدا له فى لحظة أخرى – أو بدا لشخص آخر – أن عكس ذلك الكلام يمكن أن يفيد كذلك فى التشكيك أو التشويش أو التشويه (أو التخدير) فلا بأس! فليس العلم ولا البحث العلمى هو المقصود. وإنما هى زلزلة المسلمين عن إسلامهم، وصرفهم عن التمسك بهذا الدين!

فبينما يقول المستشرق الأمريكى اليهودى « مرو برجر » فى كتاب « العالم العربى اليوم » [1] الذى صدر عام ١٩٦٢ إن الإسلام قد نشأ فى البيئة البدوية العربية، فهو يحمل طابع هذه البيئة عميقا فى كيانه كله، ولم يستطع أن يتخلى عنه خلال كل القرون التى مضت منذ مولده، فما زال حتى اليوم يحمل طابع الصحراء فى تصوراته وأفكاره وشرائعه وتقاليده وتوجيهاته، يقول المستشرق اليهودى النمساوى « فون جرونيباوم » فى كتابه « الإسلام المعاصر » الذى صدر كذلك فى عام ١٩٦٢ إن الإسلام كان انقلابا كاملا فى حياة البيئة العربية

---

(١) سنناقش الكتب المشار إليها هنا بالتفصيل فى الفصل القادم إن شاء الله.

البدوية، فقد قلب مفاهيم الحياة كلها وتصوراتها وأفكارها وتقاليدها وأعمالها وغاياتها ووسائلها، ووضع مكان ذلك شيئاً جديداً بالمرة، لم يكن لينبت من هذه البيئة أو يصدر عنها. وحتى الأشياء التى أبقاها من البيئة البدوية قطع صلتها بمنشئها، وأعطاها مفهوماً جديداً فى سياق الحياة الجديد !!

وهما قولان – كما ترى – متناقضان من أقصى اليسار إلى أقصى اليمين!

ولكن .. !

إن « مرو برجر » يقول قولته تلك ليزعم أن هذا الإسلام الذى نشأ فى البيئة البدوية لا يصلح لحياة المدينة، وبصفة خاصة فى هذا العصر الذى نعيش فيه، والذى أصبحت فيه الحياة فى المدينة شيئاً ضخماً معقداً غاية التعقيد.

و « جرونيباوم » يقول قولته (وهى صحيحة فى ذاتها) ليزعم بعدها أن هذا الإسلام « مستورد » كله من خارج الجزيرة العربية .. من اليهود والنصارى والفرس وغيرهم !

أى أنه الطعن والتجريح .. من اليسار ومن اليمين !

و « ولفرد كانتول سميث » المستشرق الكندى المعاصر يقول فى كتابه « الإسلام فى التاريخ الحديث »، فى أول الكتاب (فى صفحة ٦ من المقدمة) : « وإذ كانت السمة الأولى المميزة للعالم الإسلامى هى أنه « إسلامى »، فإننا نقدم لبحثنا بمحاولة لتوضيح ما تعنيه هذه الحقيقة ».

ثم يقول فى ص (٢٦ – ٢٧) فى فصل « الإسلام والتاريخ » : « .. لقد لاحظ الباحثون (فى أمر هذا الدين) بروز وضع المجتمع فى الإسلام .. ومن البين أن المجتمع الإسلامى ذو تماسك ملحوظ، وأن ولاء أعضائه وترابطهم عظيم القدر. وقد أدرك كثيرون أن الجماعة (الإسلامية) ليست مجموعة اجتماعية فحسب، بل مجموعة دينية، وأن « الدين والدولة » أمر واحد، إذا استخدمنا تعبيرنا الغربى غير الملائم ... ».

ومع ذلك يعود فيقرر فى آخر الكتاب أن على المسلمين أن يتنازلوا عن هذه الفكرة الرئيسية فى عقيدتهم،وهى أن الإسلام لا يمكن أن يقوم إلا فى مجتمع مسلم، ويستبدلوا بها أن يعيشوا مسلمين (عقيدةً) فى مجتمع لا يقوم على أسس الإسلام !!

فإذا كان يقرر أن الإسلام لا يمكن أن يقوم إلا فى مجتمع مسلم، فكيف يظل الناس « مسلمين » بغير إسلام ؟!

إنه يقرر الحقيقة الأولى وهو يتظاهر بالانصاف للإسلام والمسلمين بما يرضى مشاعرهم الدينية » ثم يقرر « الحقيقة ! » الثانية ليصرف المسلمين عن التمسك بحقيقة هذا الدين !!

والآن نأخذ فى شىء من التفصيل . . .

* * *

من الخطوط الرئيسية المتفق عليها بين هذه العصابة عدة أمور، أو « رءوس موضوعات » معينة يتناولها كل منهم من الزاوية التى تروق لمزاجه، أو يجد نفسه « موفقاً » فى تناولها !

● التشكيك فى صحة العقيدة، وكون الإسلام دينا منزلا من عند الله . والتشكيك فى كون الرسول ﷺ تلقى وحيا من عند الله .

● تشويه صورة الرسول ﷺ ، والغمز والتجريح لشخصه الكريم [وعكس ذلك تماماً من بعض المستشرقين : تعظيم للرسول ﷺ وتمجيد له على أنه إنسان عظيم ولكنه ليس نبياً ولا مرسلاً من عند الله !] .

● تشويه صورة رجالات الإسلام الذين لهم توقير خاص فى نفوس المسلمين بما يثير الشك فى دوافعهم وأعمالهم . وتشويه صورة العصر الأول من الإسلام بما يفسد روعته وتفرده ورفعته .

● تشويه التاريخ الإسلامى كله بتصويره فى صورة مهلهلة لا تشرف قوماً أن يكون هذا تاريخهم، وهذه حصيلة وجودهم التاريخى، وبصفة خاصة محاولة

إنكار أثر الإسلام والمسلمين فى نهضة أوربا [1] ، والزعم بأنهم كانوا مجرد نقلة للتراث اليونانى، وأن كل دورهم أنهم حفظوا ذلك التراث حين غفلت عنه أوربا، فلما استيقظت وجدت تراثها محفوظا عند « الحفظة » العرب فنهضت به !!

● الإلحاح على أن الإسلام انتشر بالسيف ليقوم المسلمون بالدفاع عن هذه « الخطيئة » والاعتذار عنها، وتقرير أن الإسلام لم يستخدم القوة أبداً إلا للدفاع.

● الإيحاء بأن الإسلام أصبح شيئاً من تراث الماضى البعيد، جاء فى دوره التاريخى، وانقضى بانقضاء ذلك الدور [بينما الحضارة اليونانية أزلية أبدية لا تفنى، ولا تفنى الحاجة إليها!] .

● الإيحاء بأن الإسلام دين عربى، بمعنى أنه مطبوع بطابع العرب، ومفصل على قدهم، لنفى أنه دين عالمى نزل للبشر كافة ويصلح للبشر كافة [والقول المناقض من قبل بعض المستشرقين بأن الإسلام ليس دينا عربياً، للقول بأنه استمد من المصادر اليهودية والنصرانية والفارسية فلا أصالة فيه!] .

● القول بأن الإسلام دين رجعى جامد متأخر، لا يصلح للتطبيق اليوم ولا يساير التقدم، والقول - بصفة خاصة - أنه يكبل المرأة ويقيدها، ويقف فى سبيل « تحررها » [والقول المناقض لذلك تماما من قبل بعض المستشرقين من أن الإسلام دين مرن متطور! وأنه يستطيع أن يساير الحياة الحديثة « بتطوير » مفاهيمه، وتطوير الفقه الإسلامى بما يناسب الحياة الحاضرة! وأنه يسمح للمرأة - بالذات - بالتحرر والتطور.. على الاتساع!] .

● القول بأن الإسلام ليس له « نظم » وإنما هو مجموعة « توجيهات » عامة، وأنه - بصفة خاصة - لا يحوى نظاما للحكم ! وأنه استمد كل نظمه من البيزنطيين والفرس.

● الربط - أو الخلط - بين الإسلام والمسلمين، بحيث تضيع الصورة المتميزة للإسلام وتتميع، ويصبح الإسلام هو ما يصنعه المسلمون. فإذا كان المسلمون اليوم - مثلا - ضعافا ومتأخرين، فالإسلام كذلك !.

• (١) فيما عدا قلة قليلة من الكتاب الغربيين ليسوا أصلا من المستشرقين ! مثل بريفولت ودريبر وزيجريد هونكه وأمثالهم .

● تمييع مفهوم الإسلام كما أنزل من عند الله، وكما ضَبَطَتْ قواعده الضوابط الربانية من تحليل وتحريم وإباحة واستحباب وكراهية، وبالذات إخراج الحكم بما أنزل الله من ضوابط الحياة الإسلامية، فالناس مسلمون ولو تحاكموا راضين مريدين لغير ما أنزل الله، ما داموا يحملون أسماء إسلامية، حتى ولو لم يؤدوا العبادات المفروضة، أى مسلمون جغرافيون أو مسلمون بالوراثة !.

● الإلحاح على فكرة أن المسلمين يجب أن يأخذوا الحضارة الغربية بكاملها (دون انتقاء) ثم يظلوا مسلمين (عقيدةً !) وإلا . . فليس أمامهم إلا أن يتخلوا عن الإسلام !

● تبنِّى الحركات المنحرفة عن سبيل الإسلام - التاريخية أو الحديثة - وتكبيرها، وتمجيدها، وجذب الأنظار إليها (كالصوفية - أو الخوارج - أو المعتزلة - أو الأحمدية - أو القاديانية . . إلخ) .

● إزجاء المديح لشخصيات معينة من الكتاب والزعماء المسلمين المحدثين، ومهاجمة آخرين بأعيانهم !

تلك - تقريباً - رؤوس الموضوعات المشتركة بين المستشرقين، التى يبدئون فيها ويعيدون، وبعد ذلك قضايا متناثرة « يتخصص » فيها بعض المستشرقين، كتخصص « مرجوليوث » فى قضية الأدب الجاهلى[1] ، وتخصص « مونتجومرى وات » فى التفسير المادى للإسلام، وأشباه تلك التخصصات، التى هى أبواب متفرقة يدخل منها الغمز واللمز والطعن والتجريح للإسلام والمسلمين.

وسنناقش - كما ذكرنا من قبل - ما يستحق المناقشة من أقوال بعض المستشرقين فى الفصل القادم. ولكننا هنا نتناول « القضايا » العامة، من حيث دلالتها على المنهج الصليبى الصهيونى لمحاربة الإسلام، ودعوة المسلمين إلى التخلى عن هذا الدين.

* * *

---

(١) سنتحدث عن هذه القضية فى نقاشنا مع مرجوليوث فى الفصل القادم .

فأما قضية العقيدة، وما يقال فيها، وما يقال عن الرسول ﷺ وتوهمه أنه نبى مرسل يتلقى الوحى من عند الله، فأمور أسخف من أن تناقش مناقشة جادة!

ولكن نلاحظ عليها ملاحظتين: الأولى أنها امتداد - بغير تغيير يذكر - لما كان المنصرون يكتبونه من قبل، ويتوقحون به على رسول الله ﷺ. والثانية أنها - على الرغم من كل ما يبذل فيها من جهود استشراقية - لا تزيد على أن تكون ترديدا لما كان يقوله مشركو العرب فى الجاهلية منذ ما يزيد على ألف وأربعمائة عام، مما حكاه القرآن الكريم وفنده. وصدق الله العظيم: ﴿ **كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ..** ﴾ [البقرة: ١١٨].

أن محمداً ﷺ استقى الدين الذي ابتدعه من اليهود والنصارى.

أنه « ظن » أو « هيىء له » أنه نبى مرسل، وأن الله يوحى إليه، وأمره أن ينذر قومه.

أنه ﷺ كان مصابا بحالة نفسية - مرضية - تجعله يتخيل الرؤى، ويصدقها كأنها واقع.

أن القرآن يحتوى على مجموعة من أساطير الأمم السابقة سمعها محمد ﷺ ورددها.. إلخ.. إلخ.

وقال الله فى كتابه الحكيم :

﴿ **وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا** ﴾ [الفرقان: ٥].

﴿ **وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ** ﴾ [النحل: ١٠٣].

﴿ **وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ** ﴾ [الحجر: ٦].

﴿ **وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ** ﴾ [القلم: ٥١].

وقال الله تعالى لهؤلاء الكفار - وغيرهم على مدار التاريخ - متحديا لهم جميعا :

﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٣ – ٢٤].

ومع ذلك فما زال المستشرقون يلوكون هذا الكلام السخيف بعد ما يزيد على ألف عام !!

شيء واحد زادوه حقا فى الحديث عن القرآن، لم يقله مشركو العرب الأوائل، ولا أهل الكتاب المتكلمون باللسان العربى من أهل الجزيرة العربية لأنهم كانوا أكثر جدية فى أخذ الأمور، وأقل تبجحاً – على كل تبجحهم – ذلك قول المستشرق اليهودي «قايين رابين» تلميذ مرجوليوت في كتابه «اللغات القديمة في غربيّ بلاد العرب» إن القرآن قد احتوى على أخطاء لغوية ونحوية (!!) وإن المسلمين على مر الأجيال قد صححوا كثيراً منها، ولكن ما يزال بعضها باقيا حتى اليوم! وقول كارليل – الذى يعجب بكتابته كثير من المسلمين (مع الأسف) – فى كتابه «البطل وعبادة الأبطال» إن القرآن الذى تركه محمد [ﷺ] مفكك ركيك مضطرب الأسلوب، أما شكسبير فقد ترك لنا كلاماً بليغاً رائعاً !!

وهذه القولة وتلك مجرد أمثلة من تخرصات المستشرقين، وإلا فليس قابين وكارليل وحدهما اللذين يطعنان فى بلاغة القرآن وإعجازه [١].

وشيء آخر زادوه في الحديث عن الرسول ﷺ، لم يقله كذلك مشركو العرب الأوائل، ولا أهل الكتاب فى الجزيرة، لأنهم كانوا أكثر احتراما لعقولهم وأنفسهم من أن يقولوه، علي الرغم من كل شهوتهم فى التشهير بالرسول ﷺ وتجريحه وتنفير الناس منه، ذلك قول مرجليوث فى الفصل الذى كتبه عن الإسلام فى موسوعة «تاريخ العالم Universal History of the World» إن محمداً [ﷺ] مجهول النسب!!! فهو محمد بن عبد الله، وكانت العرب فى الجاهلية تطلق على من لا تعرف نسبه: عبد الله !!!

---

(١) لمرجليوث كلام ممجوج فى هذا الشأن تبناه طه حسين فى كتابه «الشعر الجاهلى» سنتحدث عنه فى الفصل القادم.

محمد مجهول النسب فى بيئة لا تهتم بشىء اهتمامها بالأنساب، ولا تعتز فى حياتها بشىء كما تعتز بالأنساب، وهو يتحدى آلهتها وتقاليدها وعباداتها وأوضاعها كلها بنسبه المجهول، ولا تجابهه قريش بنسبه المجهول، ولا تستغل هذا المغمز الخطير فى الدعاية ضده، وإبطال دعوته، حتى تجىء عبقرية مرجوليوث فى بداية هذا القرن فيكتشف لقريش ما كان غائباً عنها منذ ذلك الحين!! ومن الطريف أنه قال بعد صفحات قليلة من هذه القوله الفاجرة: **إن علياً ابن أبى طالب - ابن عم النبى ومن قبيلة قريش** - قام بحمايته !!

إنما الجدير حقاً، والخطير حقاً فى كتابات المستشرقين المعاصرين عن العقيدة وعن الرسول ﷺ أنهم كفّوا - معظمهم - عن هذا التجريح المباشر - الذى هو امتداد لطور المنصرين - حين وجدوا أنه لا يؤدى الهدف المطلوب منه، بل قد يؤدى إلى عكس المطلوب، إذ يثير حفيظة المسلمين فتشمئز نفوسهم منه ومن أصحابه، فلا يعودون يتأثرون بأقوالهم، فراحوا يتبعون طريقة أخبث توصلهم إلى هدفهم «بالراحة» وفى غفلة من المسلمين، فيبدأون الحديث بالمديح المريح المخدر للأعصاب! الإسلام عظيم، حوى كثيراً من المبادىء العالية والتوجيهات الرفيعة! والرسول عظيم، اشتمل علي أخلاق عالية وصفات رفيعة!.. **ولكن** !

ولابد من «لكن» فى جميع الأحوال.. أىّ لكن ! المهم أن توجد لكن!

فإذا أطمأنوا أولا إلى أن المديح المريح المخدر للأعصاب قد أحدث أثره، وألقى المسلم سلاح الحذر لأنه يعيش فى جوٍّ صديق، وجوٍّ نزيه، فعند ذلك يوضع السم فى العسل، ويتناوله المخدرون وهم فى غفلة، وهم «مبسوطون» .

﴿ **وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ...** ﴾ [آل عمران: ٧٢، ٧٣].

وقد كان المستشرق الانجليزى المعاصر «هـ.ا.ر. جب H.A.R. Gibb » هو صاحب هذه المدرسة الشيطانية، ثم تتلمذ عليه فيها كثيرون، من أبرزهم جرونيباوم وولفرد كانتول سميث.

الإسلام عظيم.. ولكنه مأخوذ من اليهودية والنصرانية !

الإسلام عظيم.. ولكنه يحمل طابع البيئة العربية !

الإسلام عظيم.. ولكنه كان حدثا « تاريخيا » فى حينه لم يكتب له الامتداد فى التطبيق الواقعى، أو لم يعد صالحاً للتطبيق.

الإسلام عظيم.. ولكنه لا يحتوى على نظم معينة وإنما أخذ الأنظمة من الرومان والفرس!

الرسول عظيم.. ولكنه كان « يتخيل » أنه رسول، وتتراءى له الرؤى فيصدقها!

الرسول عظيم.. ولكن ما إن رسخت أقدامه فى المدينة واستتب له الأمر حتى انقلب طاغية يطارد اليهود ويشردهم !

الرسول عظيم.. ولكن ما إن استقر له الأمر حتى اتخذ له « حريما » على عادة سلاطين الشرق!

الرسول عظيم.. ولكنه فى مواقف كذا وكذا تخلى عن مبادئه وارتكب أعمالا منافية للأخلاق!

وما بنا من حاجة أن نذكر البديهية الواضحة أن المستشرقين لن يعترفوا بأن الإسلام دين منزل من عند الله، ولا أن محمداً ﷺ رسول من عند الله، لأنهم لو اعترفوا بذلك للزمهم اتباعه، وهم قد كفروا به وما زالوا كافرين، ﴿ **وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ** ﴾ [البقرة: ١٢٠].

ولكن الذى يحتاج إلى التنبيه إليه هو هذه الطريقة الماكرة التى تتبعها المدرسة الحديثة من المستشرقين، التى تقدم فيها من المديح ما يخدع القارئ المسلم ويخدر أعصابه، لتدس له خلال ذلك من السموم ما تريد.

وقد خدعت هذه الطريقة عددا غير قليل من المسلمين، حتى ظنوا أن هؤلاء المستشرقين علماء حقا، ونزيهون حقا، ويجرون وراء الحقيقة العلمية حقا، وأن ما يقولونه عن الإسلام مما لا يُرْضِى المسلمين هو « وجهة نظرهم » التى

استخلصوها من خلال البحث العلمى! وهذا مبدأ المنزلق المقصود. فإذا كان «البحث العلمى» هو الذى أدى إلي هذه الآراء والملاحظات، أو ليس من الممكن أن تكون حقيقية حقا؟! أو ليس من الممكن أن نكون نحن المسلمين - بسبب كوننا مسلمين - قد غابت عنا هذه الحقيقة لأننا لم نفتح أعيننا عليها؟ أو ليس ينبغى أن نفتح أعيننا على الحقائق **بصرف النظر عن كوننا مسلمين**؟ فَلْنُنحِّ إسلامنا جانبا ونحن نقوم بالبحث العلمى، لنستخلص «الحقائق» المجردة عن هذا الدين!

وفى النهاية نكون نحن والمستشرقين سواء، نردد - بلا وعى - ما يفترون، ونذيعه بلغتنا وأقلامنا على المسلمين..

وما يطلب أكثر من هذا أعداء الدين!

والله يقول: ﴿ **وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ** ﴾ [البقرة: ١٢٠].

* * *

وكما عمد المستشرقون - بالطريق المباشر أو بالطريق الملفوف الماكر - إلى التشكيك فى صحة العقيدة وتشويه صورة الرسول ﷺ، فقد امتدت الخطة - امتداداً طبيعياً - إلى تشويه صورة رجالات الإسلام وتاريخ الإسلام.

والهدف من وراء ذلك واضح..

إن «الرصيد» الإسلامى فى نفس المسلم، الذى يكوّن عقيدته ويزكيها، والذى هو فى الوقت ذاته موضع اعتزاز المسلم واستعلائه هو هذا القرآن الذى نزل من عند الله، والرسول ﷺ بشخصه وسيرته وأفعاله وأقواله.. ثم هو تاريخ الصدر الأول من الإسلام، الحافل بأفذاذ الرجال والنساء من المسلمين والمسلمات، والحافل كذلك بألوان عجيبة من العظمات والبطولات: الروحية والنفسية والحربية والسياسية.. ثم تاريخ الإسلام عامة بوصفه حصيلة ضخمة لأمة تعمقت

فى واقع التاريخ، وامتدت فى رقعة الأرض، وكانت منذ مولدها خطاً بارزاً فى تاريخ البشرية كله، سواء داخل العالم الإسلامى أو خارجه؛ سواء بين الذين اعتنقوا هذا الدين وعملوا به وعملوا من أجله، أو الذين حاربوه وأمعنوا فى البعد عنه ولكنهم تأثروا به فى واقع حياتهم تأثراً لم يكن لهم معدًى عنه، كما تأثرت أوربا فى بدء نهضتها، فأخذت كل مقومات نهضتها من المسلمين (١) .

والاعتزاز والاستعلاء هما أغيظ ما يغيظ الصليبية الصهيونية من المسلمين، وأخشى ما يخشيانه كذلك من الإسلام !

وإذن فلابد أن تكون الخطة الاستشراقية – أى الخطة الصليبية الصهيونية – هى محاولة كبت ذلك الاستعلاء، ومحاولة نزع ذلك الاعتزاز من نفوس المسلمين، لدرء ذلك الخطر الذى لا تؤمن عواقبه!

والسبيل هو تصوير تلك العقيدة فى الصورة التى لا يعتز أحد بالانتساب إليها، ولا يحس الاستعلاء من كونه معتنقا لها. والسبيل هو تشويه صورة الرسول ﷺ، وتصوير أهدافه وبواعثه وأعماله وسلوكه فى الصورة التى يستنكف الإنسان أن تكون هى صورة رسوله! وتشويه صورة صدر الإسلام خاصة لأنه موضع أشد الاعتزاز عند المسلم – بعد اعتزازه بالإسلام – بصفة أنه قمة لم تبلغ إليها البشرية كلها فى تاريخها كله، فينبغى أن تصور على أنها فترة عادية لا ارتفاع فيها ولا امتياز يستحق الاعتزاز ! ثم تشويه التاريخ الإسلامى جملة بحيث يبدو فى النهاية شيئاً ضئيلاً لا أثر له ولا وزن فى حياة البشرية.

تلك هى أهداف الصليبية الصهيونية التى يمثل الاستشراق جانباً منها، ووسيلة من وسائلها فى هذا الجانب من جوانب المعركة التى بدأت منذ مولد الإسلام، وما تزال تعمل بلا انقطاع !

﴿ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا ﴾
[البقرة:٢١٧] .

---

(١) راجع الفصل السابق: «من هم المستشرقون».

إنما الجديد - كما قلنا - أنهم كفّوا عن التجريح المباشر، ولجأوا إلى اللف الماكر.. ومع ذلك فليس هذا جديدا كله، بل لعله عودة إلى إحدى الوسائل التى استخدمها أهل الكتاب من قبل، والتى أشارت إليها الآية التى ذكرناها آنفا: ﴿ **وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ** ﴾ [آل عمران: ٧٢] أى تظاهروا بالإيمان أول النهار ثم اكفروا آخره لعل من وثق بكم منهم يرجعون معكم فيخرجون من الإيمان!

* * *

الخطة إذن هى التشويه المتعمد لكل ما يتعلق بالإسلام من معانٍ ومبادئ وقيم وأشخاص وتاريخ، لنزع الاستعلاء من قلوب المسلمين المعاصرين، حتى لا يفكروا فى العودة إلى الإسلام من جديد! لابد من «كسر نفوسهم» حتى لا يرفعوا رءوسهم! لابد أن يشعروا بالغضاضة من أنهم مسلمون! فينطووا فى دخيلة أنفسهم على الخزى والمذلة بدلا من الاعتزاز والاستعلاء!

نفس الهدف الذى حاولته جيوش الصليبية الصهيونية وسياستها، ولكن على مستوى أعمق.. وأخبث!

إن الجيوش الغازية التى قامت فى القرون الأربعة الأخيرة تخضع بلاد العالم الإسلامى لحكم الصليبية الصهيونية كانت وسيلة - مكشوفة - لإذلال المسلمين وكسر شوكتهم، إرواء للحقد التاريخى الذى اعترف ولفرد كانتول سميث بأن أوربا لن تنساه [١] !

والخطط السياسية التى اتبعتها الصليبية الصهيونية لتفتيت العالم الإسلامى وتفكيك أوصاله والاستيلاء عليه قطعة قطعة، والتى انتهت بتدمير نقطة الارتكاز ومحور الربط بين المسلمين فى شتى أرجاء الأرض، على يد أتاتورك بإلغاء الخلافة، كانت وسيلة أقل انكشافا وأكثر خفاء من الجيوش المكشوفة،

---

(١) راجع كلام سميث فى الفصل السابق.

ولكنها تهدف إلى الهدف ذاته، وهو إذلال المسلمين وكسر شوكتهم، إرواء للحقد الصليبى القديم.

أما المستشرقون وأفاعيلهم فهم الخطة الأخفى لتنفيذ الهدف ذاته.

فالسياسة التعليمية التى وضعها دنلوب (وأشباهه فى العالم الإسلامى) تخرج «المسلمين» المخلخلى العقيدة، المنصرفين عن الإسلام، المهيئين - بحالتهم هذه - لتلقف الجرثومة السامة واحتضانها، والمستشرقون يتولون وضع الجرثومة وغرسها فى الأعماق.

* * *

فأما العقيدة وأما شخص الرسول ﷺ، فقد مر بنا فى إيجاز ما يحاوله بشأنهما المستشرقون.

وأما رجالات الصدر الأول من الإسلام، تلك النماذج الرفيعة من البشرية فى جميع أعصارها، فهم - بصورتهم هذه، وفى مكانهم السامق من التاريخ - مصدر خطر ضخم على الصليبية الصهيونية. بل إنهم - فى وضعهم ذلك - يمثلون أخطاراً شتى فى آن واحد.

فهم أولاً - كما أشرنا آنفا - موضع اعتزاز للمسلم يدفعه إلى الاستعلاء. فإن مَن يكون هؤلاء أهله وعشيرته (والمسلمون فى التاريخ أمة واحدة، بعضهم من بعض، تربطهم رابطة العقيدة، وتحل بينهم محل رابطة الدم فضلاً عن اللغة والأرض، فيحس المسلم الذى يعيش اليوم فى أى مكان من العالم الإسلامى أنه بقية أولئك المسلمين الأوائل، وامتدادهم فى واقع التاريخ) إن من يكون هؤلاء أهله وعشيرته جدير حقاً أن يحس بالاستعلاء[1] ! ففى فترة متناهية فى القصر ظهرت هذه البطولات والعبقريات تنبثق انبثاقا من ذلك النبع الثرّ الذى

---

(١) صحيح أن الاعتزاز الفارغ بالآباء والآجداد ليس عنصراً «إيجابيا» فى أى صراع أرضى، ولكن التجربة أثبتت أن اعتزاز المسلمين بتاريخ آبائهم وأجدادهم لم يكن «فارغا» إنما كان حافزاً من حوافز الصحوة !

فجره الإسلام، فضلاً عن كونها بطولات وعبقريات من نوع نادر الوجود .فهذه عظمات الأعصر الحديثة – على تفرقها فى الزمان والمكان – تبدو على الرغم مما يطنطن لها ويروج لها من الدعاية فى وسائل الإعلام، أقزاما صغيرة بجانب تلك العظمات الفذة، التى تمثل « الإنسان » فى أروع حالاته، بينما معظم « البطولات » التى تعيش فى هذه الفترة المنتكسة من حياة البشرية، هى إما عبقريات ذهن بلا روح، أو بطولات حرب لا يسوقها إلا الاستكبار فى الأرض وإذلال الضعفاء، أو براعات سياسة تسوقها عصبيات الأرض واهتماماتها الصغيرة !

ثم إن هذه النماذج الفذة من صدر الإسلام تمثل بالنسبة للصليبية الصهيونية خطراً آخر. فهم ليسوا فقط موضع اعتزاز المسلم المعاصر (والاعتزاز عنصر ممقوت عند الصليبية الصهيونية) إنما هم يمثلون كذلك نوعاً من القدوة الخطرة! فما داموا باقين هكذا مسلطة عليهم الأضواء – أضواء التاريخ – فما الذى يمنع أحد المسلمين أن تحدثه نفسه أن يقتدى بهم، فيحاول الارتفاع بنفسه إلى قريب من مستواهم، فينبعث الإسلام من جديد نتيجة تلك المحاولة؟!

كل شىء إلا هذا !

ينبغى أن تعمل الصليبية الصهيونية بكل جهدها لطمس هذه الأضواء الخطرة الرهيبة!

ثم إن هناك خطراً آخر..

إن روح « الجهاد » فى هذه الفئة من البشر لهى من أخطر المخاطر فى تأثيرها على المسلم المعاصر! فهم لم يكونوا يرتكزون إلى قوة مادية يحسب لها حساب إلى جانب الإمبراطوريات التى كانت قائمة يومئذ عن يمين وعن شمال، والتى كان لديها من القوة المادية والعسكرية والسياسية والتمرس بشتى الخبرات والقدرات ما كان كفيلاً لها بالغلبة في الصراع، ولكن هذه الفئة القليلة العدد، القليلة العتاد، استطاعت فى زمن وجيز أن تتغلب على كلتا الإمبراطوريتين المجاورتين، فارس والروم، بالعنصر الأوحد الذى كانت تفتقده كلتا

الإمبراطوريتين، وهو العقيدة الصحيحة، والإيمان الصادق بتلك العقيدة، فأى خطر - بل أى كارثة على الصليبية الصهيونية - أن يقتدى نفر من المسلمين اليوم بأولئك الأفذاذ فيتصدون «للجهاد» إزاء السيطرة الصليبية الصهيونية الجاثمة على صدور المسلمين ؟!

كلا ! كلا !

لابد من تشويه هذه النماذج الفذة، حتى تفقد بريقها وتأثيرها وموضع القدوة فيها، وتنقلب - على العكس - صورا هزيلة منفرة يستنكف الإنسان أن يكون امتدادا لها، أو يتخذها قدوة له في أمرٍ من الأمور!

وسنناقش فى الفصل القادم كتاب المستشرق اليهودى «فلهوزن» عن «الدولة العربية» بوصفه نموذجا من نماذج التشويه للصدر الأول من الإسلام ورجالاته وأحداثه، ودوافعه وسلوكه، ولكننا نجتزئ هنا بمثال واحد من أمثلة التشويه، ذلك قوله إن أبا بكر وعمر رضى الله عنهما «اغتصبا الخلافة اغتصابا» !!

وى !

ممن اغتصباها ؟!

لو قال من علىّ رضى الله عنه فلربما قيل إنها وجهة نظر، ولو أنها وجهة نظر مردودة، أما أن يرسلها على إطلاقها فمن هم ياترى أولئك الذين وكّلوا فلهوزن فى القرن الرابع عشر الهجرى لرد ذلك الاغتصاب التاريخى الذى وقع عليهم من أبى بكر وعمر فى القرن الأول وهم غافلون؟! ومن هو «المرشح» الذى رشحه المسلمون للخلافة فاغتصبت منه على يد أبى بكر وعمر؟!

ألا إنها درجة من المماحلة والمماحكة لا يقدم عليها إلا المستشرقون !

* * *

أمر آخر بالنسبة لفترة صدر الإسلام ربما لا نلتفت إليه كثيراً هو ما يمكن أن نسميه «التعتيم الإعلامى» بالنسبة للصحابيات الجليلات ومواقفهن البطولية

الفذة، سواء بالصبر والاحتساب لفقد رجالهن فى المعارك، أو دورهن فى بناء المجتمع المسلم بأخلاقياته الرائعة، أو بمشاركتهن فى الجهاد والقتال، وهى جميعاً مما يعتز به المسلم المعاصر من تاريخه المجيد . .

ولكن التعتيم الإعلامى بالنسبة لهن من قبل المستشرقين له أسبابه التى لا تخفى !

فهم من جانب يلحون فى القول بأن الإسلام أهان المرأة وكبّلها وهمّش دورها فى الحياة وأزرى بكيانها بوصفها «إنسانة» شريكة للرجل فى الإنسانية وفى مجالات الحياة المختلفة، فهؤلاء الصحابيات الجليلات ببطولاتهن الفذة رد صارخ على هذه الدعوى (بصرف النظر عن انحرافات المجتمع الإسلامى فيما بعد فى النظر إلى المرأة وأسلوب معاملتها **فهذا ليس من الإسلام**، إنما هو من انحرافات المسلمين عن الإسلام، ولكن المستشرقين يريدون أن يلصقوه بالإسلام ذاته لينفروا الناس منه!) ثم إن هذا النموذج الذى ضربته الصحابيات الجليلات، ونساء المسلمين عامة فى الصدر الأول من الإسلام، نموذج مؤذٍ للصليبية الصهيونية من جانب آخر، فإن مشاركة المرأة المسلمة فى كل المجالات التى عملت فيها فى صدر الإسلام كانت فى ظل **الحجاب الشرعى**، وفى ظل الالتزام الكامل بأخلاقيات الإسلام التى تمنع الاختلاط بغير ضرورة، وتمنع التبرج والتخلع والتكسر فى الكلام أو الحركة، وليس هذا هو النموذج الذى تريد الصليبية الصهيونية أن ترى عليه المرأة المسلمة المعاصرة، إنما هى تريد النموذج الآخر المتبرج المتخلع المتكسر، على أنه هو النموذج الذى يجب أن تكون عليه المرأة لكى تكون «متحررة» ثم تقول الصليبية الصهيونية فى دعايتها ضد الإسلام إنه يمنع المرأة هذا «الحق» ومن ثم فهو لا يساير التقدم، ولا يصلح للحياة فى الوقت الحاضر!

* * *

أما تاريخ الإسلام جملة فهو كذلك موضع التشويه والتحريف والتنفير . . لنفس الغاية . . لقتل الاستعلاء والإعتزاز .

إن التاريخ الإسلامى هو تاريخ جماعة من «البشر» على أى حال . وهم جماعة فائقة من البشر ما فى هذا شك، على الأقل فى القرون الأولى . جماعة

وصفها ربها الكريم بقوله: ﴿**كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ**﴾ [آل عمران: ١١٠] .. لكنهم فى النهاية بشر!

والبشر يخطئون ويصيبون، ويرتفعون ويهبطون، بحكم بشريتهم التى تشتمل على نقاط القوة ونقاط الضعف، واستعداد الارتفاع والهبوط، واليقظة والغفلة، والخطأ والصواب.

والتأريخ «العلمى» لأى جماعة من البشر، ينبغى أن يوزع الأضواء توزيعا عادلا على لوحة الواقع التاريخى، بحيث تكشف لحظات الهبوط ولحظات الرفعة بنسبها الحقيقية الواقعية دون تحريف.

فإذا شاء المؤرخ أن يبرز حدثا معينا أو شخصية معينة لأنها فى حسه أثقل وزنا أو أبعد أثرا فذلك من حقه سواء وافقناه أو خالفناه، فهو إنسان على أى حال، ولا يمكن أن يتجرد من «الخصوصية» الذاتية فى كيانه فى النظر إلى الأشخاص والأحداث، ولكنه مع ذلك محكوم «بالواقع» فليس له وهو يبرز حدثاً معيناً أو شخصية معينة أن يقلب النسبة بين الأبيض والأسود فى لوحة التاريخ، أو أن يجعل مزاجه الخاص هو المتحكم الوحيد فى حكمه على الأشخاص والأحداث.

وحين يؤرخ الأوربيون لأوربا أو لغير العالم الإسلامى عامة فهم غالباً ما يلتزمون بهذه المعايير، مع ترك مساحة معقولة لبشرية المؤرخ فى أحكامه التى تتأثر ولا شك بميوله الخاصة، وخصوصية نظرته للأشياء.

أما حين يؤرخ المستشرقون للإسلام فهنا يختلف الأمر تماماً، وتنقلب الموازين! فهم منذ اللحظة الأولى يكتبون بروح العداء، وبنية التشويه والإفساد! لا بالنظرة الموضوعية ولا بروح الإنصاف.

فتاريخ الإسلام لا يعالج ابتداء على أنه تاريخ جماعة فائقة من البشر.

ولا يعالج ثانيا على أنه ذو ثقل ووزن فى تاريخ البشرية.

ولا يعالج ثالثا على أنه ذو أثر فعال على أوربا بصفة خاصة (إلا النادر القليل الذى أشرنا إليه من قبل).

وأخيراً يقلب توزيع الأضواء على اللوحة، فتبرز لحظات الضعف والانحراف إبرازا شديداً، وتطمس لحظات الارتفاع، فيحيط بها « التعتيم الإعلامى » !

وذلك كله فوق قلب الحقائق ذاتها وتشويهها، كالذى مر بنا من قولة فلهوزن، ومثلها فى كتبهم مئات ومئات . . بل هو فن قائم بذاته يتقنه المستشرقون، ويتبارون فى إظهار البراعة فيه !

* * *

إن تاريخ الإسلام لا يخص المسلمين وحدهم، وهو مفتوح للبشر كلهم يكتبون فيه، ولكن حين يؤرِّخ للإسلام تأريخاً « علمياً » « موضوعيا » « منصفا » (كما يدعى المستشرقون) فلابد أن تتقرر فيه جملة من الحقائق لا يملك إنكارها التاريخ !

● فالإسلام أول نظام واقعى طبق فى واقع البشر حاول أن يقيم ملكوت الله فى واقع الأرض ولا يرجئه إلى ما بعد هذه الحياة، فى حين أن المسيحية الكنسية فى أوربا تخلت عن هذه المهمة منذ أول لحظة، وأرجأت « ملكوت الرب » إلى يوم آخر، وأقامت فى واقعها ملكوت القانون الرومانى، الذى أباح استرقاق الأمم والشعوب، وأباح الإقطاع ثم أباح الرأسمالية، وسمح لطاغوت الجاهلية أن يركب الناس فى صور مختلفة خلال ألفين من السنين!

وهذا وحده – على الرغم من كل ما وقع من انحرافات المسلمين – حدث ضخم فى تاريخ البشرية ينبغى تسجيله فى التأريخ « العلمى » الذى يبحث عن « الحق » ولا يعنيه إلا وقائع التاريخ.

● والإسلام – لأنه حاول إقامة ملكوت الله فى واقع الأرض – هو الذى حرر « الإنسان » – من حيث هو إنسان – من كل عبودية تحدّ من إنسانيته، وذلك بإخلاص العبودية لله وحده بغير شريك، وإزالة كل طاغوت فى الأرض يستعبد الناس. سواء كان الطاغوت صنما يعبد فى عالم المحسوسات. أو وثنا يؤله فى عالم المعنويات، أو كان فرداً أو قبيلة أو جماعة أو طائفة أو أمة تطغى على

الناس. أو كان عرفاً أو تقليداً مستمدا من باطل الناس فى الأرض، أو كان قوة مادية أو اقتصادية أو سياسية؛ وحرره مبتدئا لا مضطرا، ولا واقعاً تحت «حتمية» من الحتميات الزائفة التى يؤلهها التفسير المادى للتاريخ! وكان ذلك قبل أن تفيق أوربا من ظلماتها، وتثور ثوراتها وتحقق حرياتها المشوبة بالعوج والانحراف فى أكثر من جانب.. وكان هذا التحرير - بإخلاص العبودية لله وحده، الجدير وحده بالعبادة - هو المعنى الحقيقى لعقيدة التوحيد، التى تمثلت فى الإسلام أصفى ما تكون، وتحققت فى واقع الأرض أمكن ما يكون التحقيق، رغم كل ما وقع من انحرافات خلال القرون.

● والإسلام هو الذى حرر المرأة - لأول مرة فى تاريخ البشرية - تحريراً نفسياً ووجدانياً وعملياً، وعاملها على أنها «إنسان» فى حين ظلت أوربا حتى بدايات القرن العشرين تحرمها حق الملك والتصرف فى ملكها بالبيع والشراء والرهن والإجارة إلا بوصاية وصى. ثم أطلقتها - حين أطلقتها - على طريقة الحيوان لا على مستوى الإنسان، ولا بهدف ترقية الإنسانية ورفعها إلى آفاقها العليا، ولكن بهدف الهبوط بها إلى حمأة الشهوات.

● والإسلام هو الذى حول مجرى «العلم» من التأملات النظرية إلى المنهج التجريبى، وكان فوق ذلك - لأنه يحاول تحقيق ملكوت الله فى واقع الأرض - يستخدم العلم فى سبيل الخير، ولا يستخدمه لنشر الإلحاد، ولا لإفساد الأخلاق، ولا لإحداث الدمار فى الأرض.

● والإسلام هو القوة السياسية الوحيدة فى تاريخ البشرية التى فتحت البلاد دون أن تستعبد العباد! فكفلت للناس حرية العقيدة، وحرية العبادة، وحرية الضرب فى فجاج الأرض ماداموا لا يؤذون المسلمين ولا يقومون بالإفساد فى الأرض، ولم تحجب عن البلاد المفتوحة شيئاً مما تملكه من العلم أو الخير اعتزازاً بعنجهية الغلبة والسلطان.

● والإسلام هو الذى قرر أصول المعاملات الدولية فى معاهداته التى أبرمها مع غيره **ثم حافظ عليها**، بينما البشرية ما تزال حتى قرنها العشرين هذا لا تحافظ

على العهد ولا تفى بالوعد، بل تتبارى فى إظهار براعتها فى نقض المواثيق والتفلت منها عند أول بادرة تلوح لها وتحت أى تعلة تخترعها لتبرير بربريتها.

وهذا كله غير الحضارة الشاملة التى حققها الإسلام فى واقع الأرض، والتى تشهد بحيوية هذا الدين فى كل اتجاه.

وخلال ذلك كانت تقع الانحرافات، ويقع الهبوط، ويقع الشر.. ولكن دون أن يلغى هذا حقائق التاريخ البارزة أو يلغى دلالتها. وإلا فإن هذه الانحرافات كلها - وأكثر منها - تقع - ووقعت بالفعل - فى تاريخ كل جماعة من البشر، دون أن يكون فى مقابلها هذا المستوى من النظافة والرفعة وسمو الآفاق، الذى لم يتحقق أو لم يتحقق بدرجته تلك كما تحقق فى أمة الإسلام.

وما نريد أن تصطنع صورة مزورة من التاريخ الإسلامى، أو نخفى ما حدث فى تاريخ المسلمين من انحراف وهبوط وانتكاس وشرور. فالمؤرخ المسلم مأمور أن يقول الحق ولو على نفسه والأقربين إليه :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ ﴾ [النساء:١٣٥] .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [المائدة: ٨] .

وحين يكون المسلم مؤرخاً فليس له أن يزور صورة غير حقيقية لتاريخه، يتستر فيها على الانحرافات لتبدو الصورة زاهية الألوان! بل إن إبراز العيوب بدلالتها الحقيقية لهو جزء من الأمانة المطلوبة من المؤرخ، فهذه الأمة بخير ورفعة وتمكن فى الأرض ما استقامت على منهج الله، فإذا هى تفلتت من تكاليف دينها وعصت ربها أصابها الوهن وانحسر عنها التمكين الذى وعدها به الله. وهذا هو «المحور» الذى ينبغى للمؤرخ المسلم أن يدير الأحداث حوله، وهذا هو العرض «العلمى» و «الموضوعى» لتاريخه.

ولكن المستشرقين لا يفعلون ذلك، ولم يكن همهم قط التأريخ العلمى للإسلام.. إنما الذى يسعون إليه هو وصم الإسلام ذاته بكل نقيصة، وردّ الانحرافات كلها إلى أصل الإسلام، ثم تشويه صورة الأحداث والأشخاص حتى ينقلب الأبيض أسود، ويردّ السواد للإسلام [١] !

* * *

ويجب أن نشير إلى أن المدرسة الحديثة من المستشرقين لا تنكر جوانب العظمة في التاريخ الإسلامى ولا تغفل ذكرها..

يقول «جرونيباوم» فى كتابه «الإسلام Islam» (والأقواس الشارحة من عندنا):

«إن الأمر الذى اقتضى عشرات السنين من المسيحيين الأوائل لكى يدركوه، قد أدركه محمد (ﷺ) بعد سنوات قليلة، وهو أنه ما دامت إرادة الله قد اقتضت أن تمتد الحياة الدنيا فترة من الوقت طالت أو قصرت، فإن جماعته (أى الجماعة الإسلامية) ينبغى أن تستقر فيها (أى فى الحياة الدنيا) فى **التقاء كامل مع تعاليم الوحى المنزل**. ومن ثم أصبحت مهمة الجماعة أن تنشىء نمطا شاملا للحياة فى ظل الله (أى فى ظل الوحى الربانى) يشمل كل وجه من وجوه الوجود البشرى من أول التصور إلى الدفن (أى: يشمل الأمور الاعتقادية - التصورية -

---

(١) يأخذ علىّ بعض المستشرقين، وكذلك بعض «المسلمين» المعجبين بالغرب وما فيه اننى أعطى دائماً صورة قاتمة للغرب فى عهده الحاضر، وأذكر عيوب الحضارة الغربية دون محاسنها. **وأنا لا أؤرخ للحضارة الغربية** ولا أدعى ذلك! إنما أنا أقول منذ البدء: أيها المفتونون بالحضارة الغربية إن فيها عيوباً لا ترونها هى كذا وكذا، وإن محاسنها كلها لا توازى هذه العيوب، ولا تصلح أن تكون عذرا لها، فليس من مستلزمات التحضر والتقدم أن تكون فيه الفوضى الأخلاقية والمادية الجاحدة والانطلاق مع الشهوات. ومع ذلك فحين يكون المجال مجال «التقويم» فإنى أذكر الإيجابيات والسلبيات كما فعلت فى كتاب «مذاهب فكرية معاصرة» وكتاب «رؤية إسلامية لأحوال العالم المعاصر». أما المستشرقون فإنهم يزعمون أنهم يؤرخون للإسلام تأريخاً علمياً موضوعياً! هذه واحدة. والثانية أن العيوب التى أتحدث عنها بالنسبة للحضارة الغربية هى واقع مشهود، يشهد به كتاب الغرب أنفسهم، وعقلاؤهم ينددون به، وليست أمورا مختلقة عليهم. أما اختلاقات المستشرقين على الإسلام والتاريخ الإسلامى فهى أكثر من أن تحصى !

كما يشمل الأمور السلوكية) ويلغى كل تمييز بين المقدس والدنيوى من مظاهر الحياة، بجعل كل دقيقة من دقائق هذه الحياة متصلة بعضها ببعض برباط الدين، ومحتاجة إلى مراسم (دينية) لتكملتها عند أداء أى عمل من الأعمال مهما كان نوعه. وبهذه الطريقة توحدت قوالب السلوك إلى حدٍّ ما، ولكن الحياة كلها، حتى أدق تفصيلاتها أعطيت صورة سامية مستمدة من دلالتها الدينية. ولم تكن حياة الفرد وحده هى التى ينبغى أن تتحول إلى مجموعة متسقة من الأعمال التى يتطلبها الله منه، بل إن المجتمع الإسلامى فى مجموعه كان ينبغى أن يتحول بالمثل، فصارت الدولة والجيش والخزانة (بيت المال) فى اصطلاح المؤمنين الأوائل دولة الله، وجيش الله، وخزانة (بيت مال) الله » .

و « ولفرد كانتول سميث » يكتب فى كتابه « الإسلام فى التاريخ الحديث Islam in Modern History » أربعين صفحة فى أول الكتاب من أروع ما كتب عن الإسلام، مفاهيمه وحضارته وقيمه ومبادئه ..

ولكن هذا لا يُكتب إنصافاً للإسلام والتاريخ الإسلامى كما قد يبدو للوهلة الأولى، وإنما على الطريقة الخبيثة، طريقة المديح المريح فى المبدأ للتخدير، تمهيداً لدس ما يراد دسه بعد ذلك من السموم.

فجرونيباوم يضع فى نفس الكتاب هذه المجموعة من المتناقضات والأكاذيب :

● أن الدين فى الإسلام معناه الآخرة ! (هذا مع أنه هو ذاته يقول فى نفس الكتاب إن الإسلام دين يشمل الدنيا والآخرة !) .

● وأن العلم الإسلامى كان مقصوداً به خدمة الدين – أى خدمة الآخرة! – ولهذا كانت العلوم التطبيقية من طب وكيمياء إلخ غير مرضى عنها من جمهرة المسلمين لأنها لا تخدم الآخرة! (ولم يفسر كيف نشطت إذن هذه العلوم وتقدمت تقدمها الهائل فى العالم الإسلامى وهى غير مرضى عنها من جمهرة المسلمين ؟!) .

● وأن فكرة « الدولة » ليست أصيلة فى الإسلام، إنما استمدت من الخارج، من الفرس والرومان!

● وأن تقدم العلوم الإسلامية راجع إلى عيب فى العقل الإسلامى! فهو عقل جزئى يدرك الجزئيات ولا يقدر على إدراك الكليات! ولهذا تقدم في البحث العلمى التجريبى وعجز عن إدراك « القوانين العلمية » التى أدركتها أوربا! (ويتغافل عن أن علم أصول الفقه مبنى كله على القواعد الكلية التى يستنبط منها الجزئيات والتفريعات. كما يتناسى أنه هو نفسه قال فى الكتاب ذاته إن العقلية الإسلامية استطاعت أن تستوعب الثقافة الهيلينية المبنية على الكليات! وهذا مثل من أمثلة التناقض الذى يقع فيه الشخص الواحد منهم فى الكتاب الواحد! لأنه لا تعنيه الحقيقة العلمية، ولا يبالى أن يناقض نفسه. إنما يهه أن ينهش من هنا ومن هناك في وقت واحد! ففى الأولى يزعم أن العقلية الإسلامية عقلية جزئية تعجز عن إدراك الكليات فيغمز العقلية الإسلامية هنا غمزة، ثم يقول عكس ذلك تماماً نيغمز المسلمين من ناحية أخرى بقوله إن حضارتهم كلها مستمدة من الثقافة الهيلينية، وليس لهم فيها أصالة ذاتية ! وفى سبيل الغمز من الشمال والغمز من اليمين لا يبالى أن يدلى « بحقيقتين! » متناقضتين فى آن واحد!!) .

أما سميث فما يكاد ينتهى من الأربعين الصفحة الأولى حتى يقول: **ولكن**.. ثم يمضى فى الاستدراك إلى آخر الكتاب الذى يقع في ثلثمائة وثمان صفحات، غير الفهارس والملحقات!

كلا ! ما يقصد المستشرقون حين يقولون قولة حق فى هذا الدين أن يقولوها لوجه الحق! أو لينصفوا بها هذا الدين ! إنما يقولونها لهذا الهدف الخبيث الذى قررته تلك الطائفة الخبيثة من أهل الكتاب قبل ألف وأربعمائة عام:

﴿ **آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ** ﴾

[آل عمران: ٧٢] .

وليس أدل على هذه النية الخبيثة من قولة سميث فى كتاب « الإسلام فى

التاريخ الحديث » التى يبدى فيها حنقه الشديد على كتاب المسلمين الذين يستشهدون فى « دفاعهم » عن الإسلام بما يكتبه بعض المستشرقين فى صالح الإسلام ! ثم يقول فى غيظ ظاهر إن الكتاب الغربيين لا يكتبون هذا الكلام ليستخدمه المسلمون هذا الاستخدام (١) !!

ياعجبا والله !

أو لستم تكتبونه على أنه « حقيقة »؟! فماذا يعنيكم إذاً أن يستشهد به المسلمون؟!

كلا ! إنما يكتبونه لأنه العسل الذى يدسون فى داخله السم. فإذا قام مسلم يأخذ العسل وحده وينبذ ما فى أطوائه من السم فقد أفسد الخطة التى رسمتها « طائفة من أهل الكتاب » لفتنة المسلمين عن دينهم. ولم يعد للكلام المسموم أثره الذى يريدون، الذى يجعل المسلمين « يرجعون »! إنما يجعلهم يزدادون تمسكا بما يؤمنون. وهذا هو السبب فى ذلك الحنق العجيب من ذلك المستشرق العجيب!

* * *

من أعظم الأضاليل التى يستخدمها المستشرقون لفتنة المسلمين عن حقائق دينهم قولهم إن الإسلام انتشر بالسيف! وهى فتنة ضخمة ضللت كثيراً من المسلمين، وما تزال تضللهم وتحرج صدورهم إلى هذه اللحظة، وستظل كذلك إلى أن يفىء المسلمون إلى حقيقة دينهم، ويدركوا حقيقة تاريخهم، يستقونها من مصادرهم الإيمانية لا من كتابات المستشرقين ! ولقد قال الإمام أحمد من قبل : إن هذا العلم دين، فانظروا عمّن تأخذون دينكم!

لا يكاد يوجد واحد من المستشرقين لا يشير إلى هذه القضية ويتكىء عليها، بل إن أحدهم – ويدعى « روبرت بين » ألف كتابا كاملا فى « تاريخ الإسلام » سماه « السيف المقدس The Sacred Sword » وظل يردد فى كل فصل من فصوله أن الإسلام انتشر بالسيف !

---

(١) سنناقش كتابه بالتفصيل فى الفصل القادم .

فيما عدا واحدا (فيما أعرف) نفى هذه الأسطورة هو السير « ت . و . آرنولد T.W. Arnold » فى كتابه « الدعوة إلى الإسلام The Preaching of Islam » .
ولكنه - وهو ينفيها - يصل إلى ذات الهدف الخبيث الذى يهدف إليه المستشرقون الآخرون فى هذا المجال . وهذا من أعجب ما تقوم به عصابة المستشرقين، أن يستخدموا الشيء وضده لتحقيق ما يريدون تحقيقه من إيحاءات سامة تخلخل تعلق المسلمين بدينهم وتاريخهم .

ونبدأ ببيان الزاوية التى ترصد منها الصليبية الصهيونية أحداث التاريخ الإسلامى ، لأنها تلقى ضوءاً كاشفاً على محاولات المستشرقين فى هذا الباب، وهدفهم الحقيقى من وراء هذا الإلحاح الشديد على هذه الفرية التى تخلط الحق بالباطل لتخرج منه ذلك المزيج المضلل المسموم :

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

[آل عمران : ٧١] .

روبرت بين يقول : إن المسلمين قد غزو الدنيا كلها من قبل، وقد يفعلونها مرة ثانية!

وولفرد كانتول سميث يقول : إن أوربا لا تستطيع أن تنسى ذلك الفزع الذى ظلت تزاوله عدة قرون والإسلام يجتاح الإمبراطورية الرومانية من الشرق والغرب والجنوب !

والمستشرق الألمانى كارل بكر يقول : إن الإسلام لما امتد فى العصور الوسطى أقام سداً منيعاً فى وجه انتشار النصرانية، ثم امتد إلى البلاد التى كانت خاضعة لصولجانها » [١] !

ولورنس براون يقول : « الخطر الحقيقى كامن فى نظام الإسلام، وفى قوته على التوسع والإخضاع، وفى حيويته . إنه الجدار الوحيد فى وجه الاستعمار الأوربى » [٢] .

---

(١) عن كتاب التبشير والاستعمار ص ٣١ (٢) المصدر السابق ص ٣٣ .

وجاء فى مجلة العالم الإسلامى البريطانية The Muslim World : إن شيئاً من الخوف يجب أن يسيطر على العالم الغربى، ولهذا الخوف أسباب منها أن الإسلام منذ ظهر فى مكة لم يضعف عدديا، بل دائماً فى ازدياد واتساع. ثم إن الإسلام ليس دينا فحسب، بل إن من أركانه الجهاد..»(١).

كلام واضح الدلالة، ولو لم يصدقه المنهزمون من أبناء الجيل الحاضر، الذين صُنعوا على عين الصليبية الصهيونية وربوا على توجيهاتها، وطحنوا فى مطاحنها!

إنهم يرون العالم الإسلامى مهزوما فى كل الأرض تجاه القوة الغربية والحضارة الغربية، عاجزا عن أن يقيم كيانه الإسلامى، عاجزا عن أن ينفذ من الحصار الصليبى الصهيونى المحيط به فى إحكام، يريد أن يحرمه من الوجود أصلا إلا أن يقف تحت راية أخرى غير راية الإسلام.. قومية أو اجتماعية أو سياسية أو حتى جغرافية، ليست هى الإسلام على أى حال، فلا يصدقون أنهم يشكلون «خطراً» على الغرب!.

لقد عملت التوجيهات الصليبية الصهيونية خلال قرنين من الزمان على قتل اعتزاز المسلمين واستعلائهم، وإحلال الشعور بالضآلة والعجز والتفاهة مكان القوة والاعتزاز والاستعلاء، فلم يعودوا يحسون لأنفسهم وجوداً حقيقياً، أو يقدّرون أن لهم خطرا من أى نوع، أو وزنا فى خط سير الأحداث، أو «اعتبارا» لدى الغرب الظافر الكاسح المارد الجبار! وماذا هم، وماذا يمكن أن يكونوا إزاء قوم يملكون أسلحة الدمار الشامل، ويرسلون الصواريخ فى الفضاء؟!

ومع ذلك فلو أن هؤلاء المنهزمين المستضعفين فتحوا أعينهم على خط سير الأحداث لرأوا الجانب الآخر من الصورة: كيف يتكتل العالم الصليبى الصهيونى كله ليسحق أية حركة إسلامية على وجه الأرض تحاول أن تحقق كيانها الإسلامى، وتقف تحت راية الإسلام الصريحة، ولا يعقل – بداهة – أن يسلك الغرب هذا السلوك لو لم يكن هناك خطر يحسه على وجوده من ذلك الإسلام!

---

(١) عدد يونية سنة ١٩٣٠ تحت عنوان «الجغرافيا السياسية للعالم الإسلامى».

ودع عنك ما يحدث من التهويل فى تصوير الخطر الإسلامى فى وسائل الإعلام العالمية لتحريض الناس ضد الحركات الإسلامية، ودع عنك ضرورة إيجاد عدو خارجى يلوّح به للشعوب لكى تظل متماسكة مثابرة على العمل من أجل القضاء على ذلك « العدو » !

إن الغرب قد لا يخشى الحركات القائمة الآن، والتى يسعى لإخماد أنفاسها قبل أن تستكمل حيويتها وتمتد فى الأرض.. ولكنه يخشى المستقبل، ويعلم من طبيعة هذا الدين ما يجعله يخشى المستقبل !

يقول المستشرق الانجليزى « جِب » إن أخطر ما فى هذا الدين أنه ينبعث فجأة، دون أن تعلم السبب فى انبعاثه، ولا المكان الذى يمكن أن ينبعث منه !

والله يقول: ﴿ **الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ** ﴾ [البقرة: ١٤٦].

وأشد ما يخشونه من هذا الدين هو روح الجهاد الكامنة فيه..

وإذ كان التشويه هو الوسيلة الأساسية التى تستخدمها الصليبية الصهيونية لدرء الخطر الذى تحسه من هذا الدين، فقد وجب أن تستخدم تلك الوسيلة لدرء الخطر **من كل مكامن الخطر** فى هذا الدين !

القرآن مصدر خطر.. فلتشوه حقيقته العلوية.

الرسول ﷺ مصدر خطر. فلتشوه صورته فى النفوس.

رجالات الإسلام مصدر خطر.. فلتشوه صورهم وأعمالهم ودوافعهم.

تاريخ الإسلام مصدر خطر.. فلتشوه حقائقه، وليكتب بصورة تطمس أضواءه.

الجهاد مصدر خطر.. فلتشوه حقيقته بكل وسائل التشويه !

والوسيلة - التى اختيرت للتشويه - هى القول بأن الإسلام انتشر بالسيف، وأن المسلمين كانوا يحاربون لإكراه الناس على اعتناق الإسلام !

أية صورة منفرة ! أن تشهر السيف في وجه إنسان لتكرهه على اعتناق عقيدتك ؟!

أو لم يكن الأحرى بك - بوصفك صاحب عقيدة - أن تدعو إليها دعوة « سلمية » . . كالمسيحية مثلا ؟!

إنها خطيئة بشعة اقترفها المسلمون الأوائل - لا تدرى كيف !! ولكن لا ينبغي على أى حال أن تعود أبدا في يوم من الأيام . . وفى هذا العصر بصفة خاصة، عصر « الحرية الدينية » لا ينبغى أن تكرر الخطيئة التى وقعت فى الزمن الغابر البعيد !

هكذا يفكر المنهرمون في دخيلة أنفسهم بتأثير المكر الصليبى الصهيونى !

ثم يظل المكر الصليبى الصهيونى يحرج صدور المسلمين بتكرار التهمة والإلحاح عليها في كل مناسبة، ونشرها بكل وسائل النشر، فيفزع المسلمون من وطأة التهمة، وتنفعل بها نفوسهم، فيهبون « يدافعون » عن الإسلام !

كلا ! لم يستخدم الإسلام السيف إلا للدفاع، ولم يستخدمه قط فى الهجوم !

وهنا يسعفهم « ت.و. آرنولد » بكتاب « الدعوة إلى الإسلام » فيقول : « وهكذا كان الإسلام منذ بدء ظهوره دين دعوة من الناحية النظرية أو الناحية التطبيقية. وقد كانت حياة محمد تمثل هذه التعاليم ذاتها، وكان النبى نفسه يقوم على رأس طبقات متعاقبة من الدعاة المسلمين، الذين وفقوا إلى إيجاد سبيل إلى قلوب الكفار. على أنه ينبغى ألا نلتمس الأدلة على روح الدعوة الإسلامية فى قسوة المضطهد، أو عسف المتعصب، أو حتى فى مآثر المحارب المسلم، ذلك البطل الأسطورى الذى حمل السيف فى إحدى يديه، وحمل القرآن فى اليد الأخرى، وإنما نلتمسها فى تلك الأعمال الهادئة، التى قام بها الدعاة وأصحاب المهن ، الذين حملوا عقيدتهم إلى كل صقع فى الأرض. على أن هؤلاء الدعاة لم يلجئوا إلى اتخاذ مثل هذه الأساليب السلمية فى نشر هذا الدين عن طريق الدعوة والإقناع - بخلاف ما زعم بعضهم - حينما جعلت الظروف القوة

والعنف أمراً مستحيلاً، يتنافى مع الأساليب السياسية ، فلقد جاء القرآن مشدداً في الحض على هذه الطرق السلمية . . » [1] .

فيثبّت بذلك – في ظل المديح المريح المخدر للأعصاب – ذلك المعنى الذى تهدف الصليبية الصهيونية إلى تثبيته، وهو نفى السيف إطلاقا من حياة المسلمين !

مرة بالتشهير . . ومرة بالتخدير !

التشهير ينفر المسلمين من فكرة الجهاد، فيطردونها من أرواحهم وأفكارهم. والتخدير يقوم بنفس الدور! إذ يبعد عن أذهانهم « مآثر المحارب المسلم »، ذلك البطل « الأسطورى » الذى حمل السيف فى إحدى يديه ، وحمل القرآن فى اليد الأخرى !

ويلتقى التشهير والتخدير عند هدف واحد تسعى إليه الصليبية الصهيونية هو إبعاد خاطر الجهاد عن نفوس المسلمين، خوفا من أية حركة بعث إسلامى تلجأ إلى الجهاد فى يوم من الأيام !

* * *

إن الإسلام لم ينتشر بالسيف كما يزعم المستشرقون .

وما كان للرسول ﷺ وأتباعه المؤمنين أن يخالفوا تعاليم القرآن الصريحة التى لا تحتمل اللبس ولا التأويل: ﴿ **لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ** ﴾ [البقرة: ٢٥٦] .

واستخدم الإسلام السيف مع ذلك – بأمر من الله – لإزالة القوى المادية والسياسية والعسكرية التى تقف فى سبيل الدعوة السلمية، وتحول – بالضغط أو الإرهاب أو التضليل الفكرى والروحى أو غير ذلك من الوسائل – بين الناس وبين التعرف على الدعوة الربانية . فإذا أزيلت تلك القوى الحاجبة الباغية، فالناس أحرار بعد ذلك فى أن يعتنقوا الإسلام أو يبقوا على عقيدتهم بغير إكراه، بشرط واحد هو ألا يعتدوا على المسلمين !

---

(١) ص ١٩ – ٢٠ من الترجمة العربية لحسن إبراهيم حسن وزميليه .

ذلك هو الفاصل بين الحق والباطل فى قضية استخدام السيف.

إن المسلمين لم يستخدموا السيف قط لإكراه الناس على اعتناق الإسلام. والدليل الذى لا يقبل الشك أن المسلمين حكموا الأندلس ثمانية قرون فلم يحدث مرة واحدة أن أكرهوا فردا واحدا على اعتناق الإسلام، إنما دخل من دخل فى الإسلام طواعية وحبا واقتناعا وتأثرا بالحضارة الإسلامية الزاخرة. وحكم المسلمون الهند ثمانية قرون فلم يجبروا حتى عباد البقر على ترك ديانتهم. ووجود نصارى إلى هذه اللحظة فى مصر والشام بعد أربعة عشر قرنا من الحكم الإسلامى دليل لا يقبل المماحكة. ولم يحدث قط فى ظل الحكم الإسلامى أن قامت حرب إبادة كالتى أقامها النصارى فى الأندلس قديما، وفى البوسنة والهرسك وكوسوفا فى الوقت الراهن.

ولكن المسلمين استخدموا السيف - بأمر ربهم، لا من عند أنفسهم - لإزالة الطغيان الذى يمنع الناس من رؤية الحق، متمثلاً فى ذلك الوقت فى فارس والروم، ليتسنى للناس أن يروا الحق بلا حاجز من سلطة مرهوبة متمثلة فى نظام تقوم عليه دولة وتحميه جيوش، يجثم على قلوب الناس بثقل الأمر الواقع، فلا يجعل أشعة النور تصل إلى تلك القلوب، حتى إذا أزيل ذلك الحاجز، ورأى الناس النور على حقيقته، فهم أحرار فى أن يتبعوه أو يعرضوا عنه، فإن القلوب لا يمكن أن تكره على الإيمان، والله سبحانه وتعالى يقول لنبيه ﷺ:

﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩].

إنما يقوم المسلمون بالدعوة إلى الله، فمن استجاب فهو أخ فى الإسلام، ومن لم يستجب فحسابه على الله، ويعطيه الإسلام حق الوجود، وحق العبادة بحسب ما يعتقد، وحق الحركة والنشاط فى الأرض، بشرط ألا يعتدى، فالعدوان لا تقبله شرائع السماء.

أما النظام والدولة والجيوش فلها شأن آخر. إنها حواجز تحجز النور، ورهبة ترهب القلوب، وثقل يعجز الناس بقوتهم الذاتية عن تحريكه. فيأمر الله الأمة المسلمة بإزالة الحاجز، وإزالة الرهبة، وإزالة الثقل، ليفتح الناس بصائرهم، ثم يختاروا ما يحبون، أحرارا غير مكرهين.

ونضرب مثالا من واقع العالم المعاصر، يبين هذا الأمر بوضوح.

كم ضج العالم كله - والعالم الغربي بصفة خاصة - من الشيوعية، والفتنة بالشيوعية في أوساط الشباب خاصة؟ وكم أنفق من الجهد والمال لمقاومة الخطر الشيوعي الذي كاد في يوم من الأيام أن يقلب العالم رأساً على عقب ؟!

فلما انهارت الدولة التي تحمي الشيوعية فماذا حدث ؟!

هل يحتاج أحد اليوم أن ينفق دقيقة من وقته، أو ذرة من ماله أو جهده لمقاومة «الخطر الشيوعي»؟ هل بقي من الشيوعية شيء يفتن الشباب أو غير الشباب، أو يخشى منه على ذوي الألباب ؟!

هذا مثال من الواقع المعاصر يوضح لنا كيف تكون قوة الباطل حين تكون له دولة تقوم عليه وجيوش تحميه، وكيف يؤثر الباطل في وجدانات الناس فيحجبهم عن رؤية الحق، لا لأنه غير موجود، ولكن لأن الأبصار تغشيها غشاوة، والقلوب يرين عليها ثقل الأمر الواقع، فتتوهم أنه حق وهو باطل، وتتوهم أنه لا يزول وهو زائل، وتتوهم فيه الخير وهو شر ما حق.. فإذا أزيلت قوة الباطل فكأنما يولد الناس من جديد: فتزول الغشاوة من العيون، ويزول الران من القلوب، ويزول الوهم عن العقول.. ثم يختار الناس لأنفسهم ما يختارون، وعندئذ يتحقق الأمر الرباني :

﴿ **لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** ﴾[البقرة:٢٥٦].

ذلك حكم الله في القضية، وذلك منهجه الذي قام المسلمون بتطبيقه، وما أبعد هذه الحقيقة الواضحة عن تخرصات المستشرقين، والمستغربين الذين يتبعون نعيق المستشرقين !

وما نحتاج كذلك أن نناقش أولئك المستشرقين في دعواهم أن المسيحية كانت دعوة «سلمية»! وربما يكفي أن نذكر قولة «ت.و. آرنولد» نفسه في هذا المجال :

« وفى بعض تواريخ البعثات المسيحية يؤثر المرء بطبيعة الحال الإصغاء إلى ما فعله القديس « ليودجر Liudger » والقديس « ويليهاد Willehad » بين السكسونيين الوثنيين، أكثر مما نصغى إلى أخبار التعميدات المسيحية التى كان شارلمان يفرضها عليهم بحد السيف. وكان المبشرون فى بلاد الدانمرك، وهم القديس « أنسجار Ansgar » وخلفاؤه أحق بصفة التبشير من الملك « كنوت Cnut » الذى استأصل الوثنية من ممتلكاته بالقوة والإرهاب. وعلى الرغم مما صادفه القسيس « جوتفريد Gottfried » والأسقف « كريستيان Christian » من نجاح فى تنصير البروسيين الوثنيين، وكان نجاحهما أقل ممن سبقهما، كانوا بحق أكثر تمثيلا لنشر الدعوة من جماعة « إخوان السيف Brethren of the Sword » وغيرهم من الصليبيين الذين أدوا رسالتهم بالسيف والنار. ولقد فرض فرسان « Ordo Fratrum Militise » المسيحية على شعب ليفونيا فرضا... فكما أن الدين المسيحى لم يكن انتشاره على الدوام بمثل الوسائل التى اتخذها فى « فيكن Viken » (القسم الجنوبى من النرويج) الملك « أولاف ترايجفيسون Olaf Trygvesson » الذى كان يقوم بذبح هؤلاء الذين أبوا الدخول فى المسيحية، أو بتقطيع أيديهم وأرجلهم، وبنفيهم وتشريدهم، وبهذه الوسائل نشر الدين فى فيكن بأسرها... فكذلك ظهر دعاة مسلمون (١).. » (٢).

* * *

من وسائل التضليل كذلك الإيحاء بأن الإسلام شيء من « تراث » الماضى، جاء فى دوره التاريخى، وانقضى بانقضاء ذلك الدور.

وهو إيحاء له أهميته عند الصليبية الصهيونية، لعلها تأمن عن طريقه أشد ما تخشاه من مخاطر هذا الدين!

إن الخطر الأكبر كما عبر عنه روبرت بين، ولورنس براون، وجب، وكثيرون غيرهم، هو قدرة هذا الدين على « الانبعاث » !

---

(١) أى يدعون دعوة سلمية بلا عنف. (٢) ص ٢١ – ٢٢ من الترجمة العربية.

وهى قدرة عجيبة حقا !

لقد تعرض هذا الدين في تاريخه لعدد من الضربات القاصمة، لم يكن غيره ليصمد لها، ولا لينجو منها.

فإذا تجاوزنا الهزة الأولى التى حدثت عند وفاة الرسول ﷺ، إذ ارتدت قبائل بكاملها عن الإسلام، وجندت جيوشها لمحاربة المسلمين.. وإذا تجاوزنا الفتنة الكبرى التى حدثت أيام عثمان رضى الله عنه، وأحدثت فى الأمة صدعا ظل يؤثر في التاريخ كله، وإذا تجاوزنا الانحرافات التى حدثت فى سياسة الحكم وسياسة المال على أيدى الأمويين ثم العباسيين ثم العثمانيين..

إذا تجاوزنا هذا كله وجدنا الضربات القاصمة فى الحروب الصليبية المتتابعة لمدة قرنين من الزمان فى العصور الوسطى، وغزوة التتار المهلكة المدمرة، ثم طرد المسلمين من الأندلس بعد تعذيبهم وتحريقهم وتقطيعهم وتصليبهم ومتابعة من بقى متخفيا منهم على مدى مائتى عام، ثم الغزو الصليبى الصهيونى فى العصر الحديث منذ طرد المسلمين من الأندلس حتى هذه اللحظة..

ومع ذلك ينبعث الإسلام فى كل مرة بقوة عجيبة ويمتد فى الآفاق !

يمتد بلا مدد ولا قوة ولا سلاح !

ولطالما شكت بعثات التنصير فى أفريقية من أنها تبذل جهودا جبارة تنفق فيها الملايين، ثم يجىء تاجر مسلم، يمر بالقرى مرورا ليعرض بضاعته، فإذا الإسلام ينتشر فى أثره، ويصبح الناس مسلمين!

خطر ينبغى للصليبية الصهيونية أن تعمل حسابه، وتحاول مواجهته بما يقف فى سبيله.

وإحدى الوسائل هى الإيحاء بأن الإسلام شىء من تراث الماضى، لا من الحاضر ولا من المستقبل، لعل ذلك يصرف الدعاة، أو يصرف المدعويين !

ولقد كان الحكم الصليبى البريطانى فى مصر حريصاً كل الحرص فى السياسة التعليمية التى وضعها القسيس دنلوب، على ترسيخ هذا المعنى فى

نفوس الطلاب المسلمين، سواء طلبة الابتدائية أو الثانوية أو مدرسة المعلمين العليا التى تخرج المعلمين لكل المواد ما عدا اللغة العربية.

كان يدرس لهم أن الإسلام نزل في قوم وثنيين يعبدون الأصنام فدعاهم إلى عبادة الله الواحد، وكانوا يئدون البنات ويشربون الخمر ويلعبون الميسر ويقومون بغارات السلب والنهب فنهاهم عن ذلك، وأمرهم بنشر الدعوة فنشروها فيما نشروه فيها من أقطار.

ومن ثم يكون الإسلام «منتهيا» فى حس الطالب الذى يتلقى هذه المعلومات. فلم يعد من حوله أولئك الوثنيون الذين يعبدون الأصنام الذين توجَّه إليهم الدعوة (وقد حجب الاستعمار عنه وجود الملايين من الوثنيين فى إفريقيا وآسيا الذين يمكن أن توجه إليهم الدعوة، كما صرف من خاطره إمكان الانتقال إلى هؤلاء لدعوتهم!) ولم يعد هناك من يئد البنات ليحتاج إلى الإسلام لينهاه عن ذلك. أما الخمر والميسر فقد نهى عنهما الإسلام فاستجاب من استجاب وعصى من عصى وانتهت القضية لأنها فى الوقت الحاضر تدخل فى دائرة الحرية الشخصية يتصرف فيها كلٌّ بما يراه، وأما غارات السلب والنهب فأجهزة الدولة تقوم الآن بمنعها باسم الأمن ولم يعد لها علاقة بالدين. وأما نشر الدعوة فلا مجال للمسلمين اليوم إليه فى الظروف التى تحيط بهم وبالعالم كله، فهى قضية تحكمها الأحوال السياسية والعسكرية وهى بالنسبة للمسلمين أسوأ الأحوال [1]!

وهذا الذى حرص الاستعمار الصليبى على بثه فى نفوس الطلاب فى المدارس، هو الذى يحرص جهاز الغزو الثقافى الذى يمثل المستشرقون جانبا مهما منه على بثه في نفوس «المثقفين» مع التوسع فى الفكرة بما يناسب أولئك المثقفين الذين تثقفوا على يد الاستعمار الصليبى وتشربوا سمومه. فقد حرص ذلك الجهاز على حجب حقيقة الإسلام الدائمة الممتدة، التى لا تنتهى ما بقى البشر على الأرض، وأعطى صورة منتهية الصلاحية لا مكان لها فى حياة الناس الآن.. صورة محدودة ضئيلة محكومة بفترة معينة من التاريخ، وأوضاع قوم من البشر - كانوا - يعيشون فى وقت من الأوقات فى رقعة معينة من الأرض!

---

(١) انظر إن شئت حديثا أكثر تفصيلا فى هذه القضية فى كتاب «واقعنا المعاصر».

وبذلك يتحدد الإسلام فى نفوس أولئك المثقفين، وتنتهى مهمته فى حياتهم، ولا يبقى منه إلا « صلة العبد بالرب » فى صورة شعائر دينية يقوم بها « الاتقياء » من الناس إذا شاءوا، ومن لم يشأ فلا حرج عليه! وفى الوقت ذاته تملأ « الحضارة الأوربية (المسيحية) الفراغ الذى يتركه انحسار الإسلام فى النفوس!

نفس الشيء الذى قرره المعتمد البريطانى اللورد كرومر من قبل، وعهد بتنفيذه للقسيس دنلوب، وللمستشرقين !

« إن واجب الرجل الأبيض الذى وضعته العناية الإلهية على رأس هذه البلاد هو تثبيت دعائم الحضارةالمسيحية إلى أقصى حد ممكن، بحيث تصبح هى أساس العلاقات بين الناس، وإن كان من واجبه - منعاً من إثارة الشكوك - ألا يعمل على تنصير المسلمين. وأن يرعى من منصبه الرسمى المظاهر الزائفة للدين الإسلامى كعطلة الجمعة والاحتفالات الدينية، وما شابه ذلك » !

إن « الإسلام » ليس شيئا مختلفا عن « الحياة » بالنسبة للمسلم الحقيقى، لا « المسلم » المصنوع على يد الصليبية الصهيونية، المتغذى بسمومها !

﴿ قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لا شَرِيكَ لَهُ . . . ﴾ [الأنعام: ١٦٢ - ١٦٣] .

إنه - من جهة - يمتد فى نفسه بحيث يشمل كل لحظة من لحظات حياته الواعية، وكل عمل وكل تصرف وكل شعور. ومن جهة أخرى يمتد فى واقع الحياة بتعاليمه وتوجيهاته ومبادئه وقيمه بحيث يشمل كل الواقع المعاش بكل مجالاته السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية والروحية والعلمية، فلا ينفصل مجال واحد من المجالات عن الإسلام. ومن جهة ثالثة فهو المنهج الربانى، الذى يشمل كل جوانب الحياة على المستوى الأعلى الذى ينشيء « الإنسان الصالح » ويحرره من كل عبودية لغير الله، فينطلق بانيا عاملا فى عمارة الأرض بنشاطه كله، متطلعا فى الوقت ذاته إلى اليوم الآخر ورضوان الله :

﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴾ [الملك: ١٥] .

وهو بهذه المعانى شيء لا ينتهى ما دامت الحياة [1] !

ثم إنه – من جهة أخرى – لم ينته بالفعل فى واقع الحياة البشرية .

حقيقة إن الفترة المثالية الأولي، التى ارتفع فيها البشر المسلمون على أنفسهم ارتفاعا يشبه المعجزات، وحققوا فى أنفسهم تلك البطولات والعظمات النادرة فى التاريخ . . هذه الفترة لم تكن طويلة الأمد، وهبط الناس من هذا الارتفاع السامق درجات من الهبوط، وانحرفوا عن سبيل الإسلام المستقيم أنواعا من الانحراف .

ولكن الإسلام ذاته لم ينته يومذاك، كما يصر المستشرقون على تثبيت هذه الفكرة فى كثير مما يكتبون .

لقد انحسرت الصورة المثالية عن رقعتها الواسعة الشاملة الممتدة إلى أقصى الآفاق، وبقيت الصورة العادية للإسلام (وإن لم يخل جيل من أجيال الإسلام من نماذج رفيعة تذكّر بالجيل الأول) . ولكن هذه الصورة العادية ظلت – بالنسبة لحياة البشر خارج الإسلام – شيئاً رفيعاً جداً، وظلت قرونا متطاولة تمد البشرية كلها بالمفاهيم العالية البانية التى تحفز خطاها إلى الأمام .

فهذا الإسلام – العادى – هو الذى أنشأ « المنهج التجريبى فى البحث العلمى » الذى تقدم بالعلم أشواطا واسعة، وتتلمذ عليه علماء أوربا ليقيموا نهضتهم العلمية الحاضرة، وإن كانت هذه النهضة حين تولاها غير المسلمين، الذين لم يتربوا على منهج الله، لم ترتفع إلى الأفق الإنسانى الخيّر الذى كانت به لدى المسلمين، فراحت إلى جانب عملها فى نواحى الخير، تعمل على تدمير الحياة روحيا وخلقيا وماديا بصورة لا يصنعها إلا الشيطان وأولياء الشيطان، سواء فى نشر الالحاد « العلمى ! ! » أو حصر الإنسان فى محيط ما تدركه حواسه كالحيوان، أو نشر الفوضى الخلقية، أو إنتاج أسلحة الدمار الشامل .

---

(١) اقرأ إن شئت فصل « مفهوم لا إله إلا الله » من كتاب « مفاهيم ينبغى أن تصحح » وفصل « مقتضيات لا إله إلا الله » من كتاب « لا إله إلا الله عقيدة وشريعة ومنهاج حياة » .

وهذا الإسلام - العادى - هو الذى أنشأ مفهوم «الأمة» بمعنى المجموعة من البشر الملتقين فى «عقيدة» مشتركة، وتتلمذت أوربا على هذا المفهوم عند احتكاكها بالمسلمين فى الحروب الصليبية، فخرجت من حياة الإقطاع الذى لم يكن البشر فيه يتمثلون فى «أمة» وإنما فى إقطاعيات يحكم كلا منها سيد إقطاعى تتمثل فيه السلطة التشريعية والقضائية والتنفيذية، وتنفصل عن غيرها من الإقطاعيات انفصالا يكاد يكون تاما، فضلا عن انفصال الناس فيه عن الكيان الحقيقى للإنسان، إذ هم عبيد لذلك الإله الصغير صاحب السلطان المطلق عليهم.. وإن كانت أوربا حين خرجت من نظام الإقطاع ودخلت فى نظام الأمة لم ترتفع إلى المفهوم الإسلامى الشامل، ولم تفهم أن «الأمة» إنما تجتمع على العقيدة فى الله، فراحت تنشىء «أممها» على أساس قومى لا تتمثل فيه الحقيقة العليا للإنسان. ومن ثم راحت تلك «الأمم» غير المستوفية لكيان الإنسان الأعلى تحدث من الشر على وجه الأرض أضعاف ما تحققه من النفع، من خلال الصراعات والحروب، والاستعمار والاستعباد.

وهذا الإسلام - العادى - هر الذى وضع قواعد التعامل الدولى بين الأمم والأفراد والجماعات، وهذا لم تتعلمه أوربا إلا فى عالم النظريات، بينما كان الإسلام - العادى - يحققه في عالم الواقع حتى مع الصليبيين الذين يغدرون ويفجرون كلما واتتهم الفرصة للغدر والفجور!

وهذا الإسلام - العادى - هو الذى أنشأ مجتمعا ظل متكافلا عدة قرون، يكفل فيه القادرون غير القادرين، وتنفق فيه أموال وتحبس فيه أوقاف لنشر التعليم المجانى، والعلاج المجانى، وإيواء العجزة، والرفق بالحيوان، قبل أن تعرف أوربا تلك المعانى كلها بأكثر من ألف عام!

وهذا الإسلام - العادى - هو الذى أنشأ مجتمعا كان أقل المجتمعات شرب خمر، وأقلها وقوعا فى الفاحشة، وأقلها انغماسا فى الجريمة، وأقلها أمراضا نفسية وعصبية وقلقا وانتحارا لأنها تؤمن بالله، وتطمئن لقدر الله.

والإسلام - بهذا - لا ينتهى فى عالم المفاهيم، كما أنه لم ينته فى عالم

الواقع إلى هذه اللحظة، على الرغم من كل ما أصابه من ضعف وانحسار وتراجع.. **بل إنه ينبعث من جديد** !

ولكن الصليبية الصهيونية وجهازها الخاص بالغزو الفكرى، المتمثل فى المستشرقين، لم تكن بطبيعة الحال لترسم للإسلام هذه الصورة التى تفيد الامتداد، وهى تحرص كل الحرص على محاولة قتله ومنعه من الامتداد! إنما ترسم له تلك الصورة التاريخية التى تتمثل فى فترة محددة من التاريخ، فى قوم معينين، فى ظروف معينة قد انتهت من زمن بعيد.. وأما فى الوقت الحاضر فلا مجال له إلا أن يكون علاقة بين العبد والرب، محلها القلب، ولا شأن لها بواقع الحياة !!

* * *

وكما أوحى المستشرقون إلى المسلمين بأن الإسلام تراث تاريخى قد انتهت مهمته وأصبح فى ذمة التاريخ، كذلك ألحوا فى القول بأنه دين « عربى »، مطبوع بطابع العرب، ومفصل على قدهم !

ولهم فى ذلك مآرب شتى..

فالقول بأن الإسلام دين عربى يُرْبَطُ دائما بأنه من صنع محمد ﷺ وليس وحيا من عند الله!

ويربط بأنه يشتمل على الصفات العربية بمحاسنها ومساوئها، والمساوئ هى المقصودة بطبيعة الحال! فإذا كانت العقلية العربية - فى زعمهم - عقلية جزئية لا تقدر على الشمول ولا العمق، فقد جاء القرآن ، المنسوب إلى محمد ﷺ ممثلا لتلك الخاصية، فجاء مفرقا موزعا لا يربط بينه رابط! فوق أنه متأثر « بعيب » آخر في العقلية العربية، هو القفز السريع من موضوع إلى موضوع ! ومعالجة الأمور فى لمحات خاطفة كالبرق، تسطع، ولكن لا استمرار لها ولا عمق [1] !

---

(١) هناك دراسات كثيرة عن « الوحدة الموضوعية » فى سور القرآن فى متناول من أراد الإطلاع على هذا الجانب للرد على تخرصات المستشرقين فى هذا الشأن. وانظر إن شئت كتاب « دراسات قرآنية » .

ويربط بأنه كان تحقيقا لرغبة العرب فى التجمع فى « قومية » تربطهم وتوحدهم، أى أنه نتاج محلى بحت – فوق أنه صناعة بشرية بحتة! – نتاج تولد فى ضمائر العرب، ثم تمخض عن إبراز « زعيم » عربى، تلتقى في نفسه خلجات ضمائر العرب، وتتجسد فيه أمانيهم، فيوحد هذه الأمة، ويطلق طاقتها التى كانت مبددة فتجمعت، فصنعت ما صنعت !

ويربط بأنه دين بدوى غير متحضر، يحمل طابع العرب الحفاة الجفاة الذين لم تهذبهم الحضارة، ومن ثم فهو لا يصلح لحياة المدينة فى القرن العشرين !

ويربط بأن تقاليده وتشريعاته – بالنسبة للمرأة خاصة – هى تقاليد البيئة العربية التى تجعل السلطان للرجل، وتوثق عرى الأسرة ولكن تحت رعاية الرجل وسيطرته، ومن ثم فهو لا يصلح للأجيال « الحضارية » التى حررت المرأة من ذلك السلطان !

ويربط بأنه دين مفصل على حاجات الطبيعة العربية ومطالبها وأمزجتها فلا يصلح لغير العرب !

والهدف من وراء هذا الربط – إلى جانب التشويه، الذى هو السمة العامة فى الجهد الاستشراقى كله – هو محاولة وقف المد الإسلامى في الشعوب غير العربية فى آسيا وأفريقيا، ذلك المد الذى تفزع منه الإرساليات التنصيرية فى تلك البقاع، وتستصرخ الدول ذات الشأن للعمل علي وقفه بكل سبيل! ولأن القضية قضية سياسية – صليبية صهيونية – لا قضية « علمية » فإن السادة « العلماء » يغفلون كل دلالات التاريخ.. ولا يبالون !

يغفلون أن القرآن نص على عالمية الدعوة فى وقت مبكر جداً، فى السور المكية التى نزلت والمسلمون لا يزيد عددهم على أفراد. وحتى أولئك الأفراد لم يكونوا ممكنين مستقرين، بل مضطهدين مشردين مقهورين، يواجهون حرب قريش لهم، وتضييقها عليهم، بغير معين لهم من البشر. ومهما يجمح خيال بشر – حين يكون هو صانع هذا الدين ومؤلف قرآنه (!) – فلا يمكن أن تتجه مشاعره ولا أفكاره إلى العالم كله، وهو بعد لم يثبت أقدامه فى موطنه الأصلى،

بل فى بقعة صغيرة منه هى مكة المكرمة ! ولا يترك له أعداؤه فرصة إسماع صوته إلى عشيرته الأقربين – فضلا عن بقية العرب – لأن عشيرته الأقربين هم أول الأعداء المحاربين !

يقول تعالى في سورة التكوير، وهى من أوائل السور المكية : ﴿ **إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ** ﴾ [التكوير: ٢٧] .

وفى سورة المدثر – وهى مكية – ﴿ **إِنَّهَا لإِحْدَى الْكُبَرِ * نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ** ﴾ [المدثر: ٣٥ – ٣٦].

وفى سورة الأنبياء – وهى مكية – ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ** ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

وفى سورة سبأ – وهى مكية – ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا** ﴾ [سبأ: ٢٨].

وفى سورة الأعراف – وهى مكية – ﴿ **قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ..** ﴾ [الأعراف: ١٥٨] .

ويغفلون أن الإسلام قد امتد بالفعل فشمل العرب وغير العرب منذ صدر الإسلام إلى اليوم، فكان من بين « الأفراد » الذين آمنوا بلال **الحبشى**، وصهيب **الرومى**، وسلمان **الفارسى**، ثم انتشر الإسلام فشمل الفرس والهنود والصينيين والروس، والترك والمغول والتتار والبربر والزنوج، كماشمل الأوربيين فى الأندلس والنمسا والبلقان . . وفى كل بلد من بلاد الأرض بلا استثناء توجد جماعات تعتنق الإسلام !

فكيف حدث ذلك؟ أو ليست له دلالة؟

وإذا كان العرب قد فتحوا بعض البلاد فأخضعوها لحكمهم، فاعتنق أهلها دين الأمة الغالبة، فما بال الأقوام الذين دخلوا الإسلام بغير فتح فى أندونيسيا والملايو وفى أفريقيا فيما يلى الشمال الأفريقى إلى الجنوب؟ بل ما بال التتار – الذين جاءوا ليدمروا الإسلام ويقضوا عليه – ما بالهم بعد أن شبعوا تقتيلا وتذبيحا فى المسلمين، أسلموا هم أنفسهم، واعتنقوا دين الأمة المغلوبة؟!

أو ليس يدل ذلك على أن هذا الدين يخاطب « الإنسان » - نوع الإنسان - فيستجيب من شرح الله له صدره من بنى الإنسان ؟!

أم لا تستحى هذه الناس وهى تردد تلك الأضاليل ؟!

ولو كان الإسلام هو نتاج البيئة العربية ولا زيادة، فأى شىء دفعه إلى تحرير « الإنسان » من العبودية لغير الله، وإخلاص العبادة لله وحده بلا شريك !

﴿ **يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ * الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ * فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ** ﴾ [الانفطار: ٦ - ٨].

أى شىء فى تلك البيئة يومئذ - بل فى الأرض كلها يومئذ - يوجه الناس إلى العقيدة الصافية التى تنزه الله تنزيها خالصا، وتنفى كل ألوان الشرك عن الله جل جلاله؟

الوثنيات حول الجزيرة؟ أم اليهود والنصارى؟

فأما الوثنيات فى فارس والهند وغيرهما فقد كانت غارقة فى نفس الضلالة التى غرق فيها العرب، فلم يكن من الممكن أن تكون مصدر التوجيه إلى ذلك التنزيه الخالص الذى جاء به الإسلام، وتحرير « الإنسان » بذلك من كل عبودية لغير الله، وإطلاقه من ثم - وقد تحرر وجدانه التحرير الحقيقى - ينشىء الخلافة الراشدة فى واقع الأرض.

وأما اليهود والنصارى فهم الذين كانوا يقولون عزير ابن الله والمسيح ابن الله، فكيف يكونان هما مصدر هذا التنزيه الخالص الذى تميز به الإسلام؟

وأى شىء فى تلك البيئة الجاهلية - بل فى الأرض كلها يومئذ - كان يدفع لتحرير « الإنسان » من العبودية للسلطان، بحيث يقول أبو بكر رضى الله عنه: « أطيعونى ما أطعت الله فيكم، فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم » فيكون هذا هو دستور الحكم الإسلامى الذى يؤكده عمر رضى الله عنه فيقول: « إن أصبت فأعينونى وإن وجدتم فىّ اعوجاجا فقومونى » فيقول له سلمان رضى الله عنه: « والله لو وجدنا فيك اعوجاجا لقومناه بحد السيف » فيحمد عمر رضى الله عنه ربه أن جعل فى رعيته من يقوّمه بحد سيفه !!

آلبيئة العربية ؟! أم الفرس والروم ؟!

فأما البيئة العربية فقد كان « شيخ القبيلة » فيها سيداً مطاعا لا يناقش ولا يجرؤ أحد على عصيان أوامره، بل كانت القبيلة ذاتها ربا يعبد، فيقول القائل في إحدى تلك القبائل:

وهل أنا إلا من غزية إن غوت   غويت، وإن ترشد غزية أرشد !

وكانت قريش في تلك البيئة طاغوتا يحل الشهر الحرام فتطيعه العرب، ويشرع لبعض الناس أن يحجوا البيت عرايا - رجالا ونساء - فيحجون ! والإسلام هو الذى أذهب طغيان قريش، وجعل ذلك الحاكم القرشي يقول: إن وجدتم فيّ اعوجاجا فقومونى !

وأما الفرس والروم فقد كانوا يؤلهون حكامهم تأليها، ويقدمون لكسرى وقيصر من الشعائر ما لا يجوز أن يوجّه إلا لله، من ركوع وسجود، وطاعة بلا حدود!

وأى شيء في تلك البيئة الجاهلية كان يدعو إلى تحرير المرأة بصفة خاصة من العبودية الذليلة التى تعيشها فى ظل الجاهلية؟ ما الذى قد تغير فى تلك الجاهلية لتنقلب من سوء معاملتها للمرأة سواء بوأدها حية أو سوء استقبالها:
﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ ؟ ﴾ [النحل: ٥٨ ، ٥٩] أو حرمانها من الميراث أو جعلها هى ذاتها من الأشياء التى تورث، أو اتخاذها إلى جانب ذلك كله شهوة دنسة للرجل المزهو بحيوانيته، إلى تقرير كيان إنسانى مساوٍ لكيان الرجل الإنسانى !

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ [النساء: ١].

﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٩٧].

﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ .. ﴾ [آل عمران: ١٩٥].

﴿ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴾ [النساء: ٧].

﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ١٩].

﴿ خيركم خيركم لأهله .. ﴾ [أخرجه الترمذى].

﴿ استوصوا بالنساء خيرا ﴾ [أخرجه مسلم].

وأى شيء فى تلك البيئة كان يدعو إلى تحرير الرقيق، سواء بتجفيف منابعه كلها (ما عدا رق الحرب) [١] أو بالعتق أو المكاتبة، وقد كان العالم كله يومئذ، وإلى سبعة قرون تالية لمجيء الإسلام لا يرى أى غضاضة لا فى اتخاذ الرقيق، ولكن فى سومه سوء العذاب، والرق الرومانى الشهير معروف فى التاريخ..

وأى شيء فى تلك البيئة كان يدعو إلى تحريم الربا والخمر والميسر والفاحشة، وكلها كانت تسرى فى تلك البيئة سريان الأمر الطبيعى الذى لا يستنكر، بل يتفاخر بها :

ولولا ثلاث هن من عيشة الفتى ... وحقك لم أحفل متى قام عوّدى

فمنهن سبقى العاذلات بشربة ... كُميت متى ما تُعْلَ بالماء تزبد

وكرّى إذا نادى المضاف محنَّبًا ... كسيد الغضا - نَبَّهتَه - المتورد

وتقصير يوم الدجن والدجن معجب ... ببهنكة تحت الطراف المعمد [٢]

لو كان هذا الدين «عربيا» من صنع رجل «عربى» ونابع من البيئة

---

(١) حتى رق الحرب كان معاملة بالمثل للأعداء الذين كانوا يسترقون من يقع فى أيديهم من الأسرى المسلمين.

(٢) الأبيات لطرفة بن العبد. يفخر فيها بشرب الخمر، وحضور الوغى، وإتيان الفاحشة.

«العربية» ومفصل على تقاليد «العرب» وعاداتهم، فمن أين استقى ذلك المنهج المتفرد فى التاريخ، الذى ما يزال متفردا فى التاريخ ؟!

أم لا تستحى هذه الناس حين تردد هذه الأضاليل [1] ؟!

* * *

ولا يقل سخفا عن ذلك ما يقوله الفريق الآخر من المستشرقين الذين ينفون عن الإسلام أنه دين عربى، ويقررون أنه قلب معايير البيئة العربية كلها، ليزعموا أن الرسول ﷺ قد استقاه من اليهود والنصارى والفرس والروم ! فقد رأينا فى الفقرات السابقة أن اليهود والنصارى والفرس والروم لم يكن لدى أى واحد منهم، ولا لديهم مجتمعين، ما يعطونه لهذا الدين أو يوجهونه إليه. وأنه اتجه غير وجهتهم فى حقائقه الرئيسية كلها.

قام على التنزيه المطلق لله، ﴿ **وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ** ﴾ [التوبة: ٣٠].

وقام على تحرير الإنسان من كل عبودية لغير الله - بما فى ذلك عبودية التشريع - بينما اليهود والنصارى ﴿ **اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ** ﴾ [التوبة: ٣١].

وقام على إزالة التقديس والتأليه للحاكم، وكانت الفرس والروم تؤله حكامها.

وقام على نظام اقتصادى اجتماعى لم يعرفه اليهود ولا النصارى ولا الفرس ولا الروم، وما زالت البشرية لا تعرفه فى شموله وتوازنه، وهى تتخبط ذات اليمين وذات الشمال ما بين دكتاتورية رأس المال مرة، ودكتاتورية البروليتاريا مرة، وطغيان الفرد مرة، وطغيان الجماعة مرة.

ولكن السادة «العلماء» لا يناقشون قضية علمية! إنما هى قضية صليبية صهيونية يراد بها إفساد حياة المسلمين، وصرفهم عن التمسك بالإسلام!

* * *

---

(١) سنعود إلى مناقشة الموضوع مع «مرو برجر» فى كتابه «العالم العربى اليوم» فى الفصل القادم.

يتصل بالأضلولة السابقة أضلولة أخرى يتناقض موقف المستشرقين فيها كذلك من أقصى اليمين لأقصى اليسار، ليحاولوا الهدم من هنا ومن هناك فى ذات الوقت !

الإسلام دين رجعى جامد متأخر، لا يصلح للتطبيق فى الوقت الحاضر، وهو - بصفة خاصة - يكبّل المرأة بالقيود، ولا يسمح لها بالتحرر والانطلاق، لتشارك الرجل فى كل شيء، باعتبارها نصف المجتمع!

الإسلام دين متطور يستطيع مسايرة الحياة الحديثة بتطوير مفاهيمه وشرائعه وأحكامه بما يناسب الحياة المتطورة. وهو يكفل للمرأة كل وسائل التحرر والانطلاق!

كلا الفريقين من المستشرقين يؤدى - من جانبه - دوره فى هدم هذا الدين!

فأما القولة الأولى، وهى الغالبة على أقوال المستشرقين فى الماضى، وما تزال تُردَّد حتى اليوم، فالمقصود منها ظاهر بطبيعة الحال، وهو تنفير المسلمين من دينهم، ودعوتهم إلى الانسلاخ منه، هرباً من تهمة الرجعية والجمود، ويالها من تهمة لا يصمد لها إلا أولو العزم من البشر!

وقد فعلت هذه القولة فعلها على يد المنصرين من قبل، فى الطور السابق على الاستشراق «العلمى» إذ كانت من أخبث الأسلحة التى استخدمها أولئك المنصرون لفتنة المسلمين عن دينهم.

وكان أشد ما استخدموا فيه ذلك السلاح الماكر هو التركيز على حاضر المسلمين، وتخلفهم العلمى والحضارى والمادى، وضعفهم السياسى والحربى.. وإرجاع السبب فى ذلك كله إلى الإسلام! والدعوة الخبيثة من جانب آخر إلى أخذ الحضارة الغربية (أى المسيحية!) إذا رغب المسلمون فى التقدم والقوة والتحضر.

ثم جاء المستشرقون فأخذوا اللعبة جاهزة من يد المنصرين، واتكأوا عليها بوسائل «علمية!».

والوسائل «العلمية» تقول إن الإسلام قد انطبع بالطابع البدوى فى تشريعاته وتوجيهاته - لأن هذه هى طبائع الأشياء (حسب التفسير المادى للتاريخ) وأنه من ثم لا يصلح للتطبيق فى العصر الصناعى المتطور، الذى تغيرت

فيه كل القيم، وتحررت المرأة اقتصاديا فلم يعد يجوز عليها ما كان يجوز من قبل في البيئة البدوية المتأخرة، من اهتمام بقضية العفة، وصيانة من التبذل، وتفرغ للأسرة، واحتجاز عن الفاحشة، فتلك كلها من أخلاقيات المجتمع البدوى والمجتمع الزراعى. أما المجتمع الصناعى فله أخلاقياته الخاصة الناجمة أساسا من تحرر المرأة (!) وتفكك الأسرة (!) وانفلات كل فرد على هواه (!) وأنه إذا استمر الإسلام فى التطبيق، أو السيطرة على المجتمع، فمعنى ذلك تجميد المجتمع على الصورة البدوية والزراعية، ومنعه من « التطور » إلى صورة المجتمع الصناعى المتقدم، فلا بد من تنحيته عن السيطرة على المجتمع، وجعله على الأكثر - إذا لزم الأمر (!) - وجدانا دينيا يحكم عالم الوجدان ولا يتدخل فى واقع الحياة ! (أى فى الصورة الأوربية الكنسية التى آل إليها فى الغرب: علاقة بين العبد والرب، محلها القلب، ولا شأن لها بواقع الحياة، والتى تسمى باسم آخر لطيف جذاب: الصورة العلمانية!!) .

وتلك الأضلولة المركبة من أخطر وأخبث ما لعب به المستشرقون فى حياة المسلمين.

إنها تشمل أطرافا عدة مربوطة فى عقدة واحدة. قضية « المرأة » بصفة خاصة، وقضية « الأخلاق » وقضية « الحضارة والتقدم » وقبل ذلك قضية « هذا الدين ».

فأما قضية « هذا الدين » فإن الإلحاح المستمر مدى قرنين من الزمان فى آذان المسلمين وأذهانهم - على يد المنصرين ثم المستشرقين - بأن دينهم لا يصلح للحياة في الوقت الحاضر، لأنه مفصل على البيئة البدوية الرعوية (أو لأى سبب آخر، كقولهم إنه دين يدعو إلى التواكل والكسل والإحجام، ويصد الناس عن المغامرة والاقتحام!) فإنه ينتهى فى نفس المسلم المستضعف المهزوم إلى إحدى نتيجتين: إما الاعتقاد بأن « الدين » كله عنصر تخلف في حياة البشرية، فينبذ دينه (وإن احتفظ به وجدانا فى الضمير) وإما الشك فى أن « هذا الدين » من عند الله حقا (وتلك غاية الهزيمة الروحية) فينبذ الدين من حياته جميعا، بما فى ذلك الوجدان المستكن فى الضمير.

وأما قضية « الحضارة »، فإن الإلحاح المستمر مدى قرنين من الزمان بأن الدين عقبة فى سبيل التقدم والرقى، بينما إغراء الحضارة الحديثة (سواء بمنجزاتها العلمية، وتيسيراتها المادية، أو بمفاتنها الانحلالية) إغراء أقوى من أن يقاوم، وخاصة فى نفوس المستضعفين المنهزمين، هذا الإلحاح ليست له نتيجة – كما قلنا آنفا – إلا نبذ الدين من الحياة الواقعة (سعيا وراء التحضر والتقدم) مع إبقاء الدين وجدانا فى الضمير (بحكم العادة أو من أجل الآخرة – لمن بقى يذكرها! – أو بحكم الفطرة التى تبحث من تلقاء ذاتها عن إلهها وعقيدتها) أو نبذ الدين كلية من الواقع ومن الضمير، وتلك نهاية المطاف !

وهذا وذاك هما الهدف الذى تسعى إليه الصليبية الصهيونية بكل ما وسعها من جهد . . منذ قرون!

وأما قضية « الأخلاق »، فقد كان من أهم ما تسعى إليه الصليبية الصهيونية إفساد أخلاق المسلمين ليضعفوا وتنكسر شوكتهم، ولا يعودوا يقفون صامدين فى وجه الاستعمار الصليبى الصهيونى .

وكان الاستنكار الذى تواجه به الأمة الفاحشة الخلقية من أكبر العقبات أمام المخطط الصليبى الصهيونى الذى يهدف إلى حل أخلاق الأمة ليسهل استعبادها وقيادها من خطام الشهوات .

وصحيح أن الأمة لم تكن كلها من الأتقياء المتطهرين، وكان فيها من يمارس الفاحشة بصورة أو بأخرى على الرغم من تحريم الإسلام لها، وعلمهم بهذا التحريم . ولكن كانت هناك حقيقتان فى هذا الشأن . أولاهما أن نسبة من يقعون فيها ليست هى النسبة الغالبة من الأمة، إذا جعلنا فى حسابنا أن الإسلام يدعو إلى الزواج المبكر ويحث عليه، فتنتفى الحاجة إلى ممارسة الرذيلة مادام الطريق السوى النظيف فى حيز الإمكان، وإذا جعلنا فى حسابنا كذلك أن المرأة – لأى سبب من الأسباب – لم يكن من السهل عليها أن تنحدر إلى حمأة الرذيلة – حتى لو شاءت! – ومن ثم ينحصر الفساد فى بضع نساء فى المدينة ساقطات . والحقيقة الثانية أن سلطان الدين القائم فى النفوس كان يحد من

الانغماس فى الرذيلة حتى عند من يزاولها فعلا، فلا يتمادى فيها بل يتوب عنها عند أول فرصة تسنح له للسير فى الطريق المستقيم.

وبهذا وذاك كان الاستعمار الصليبى الصهيونى محصورا مقيد النشاط !

وكان لابد من تحطيم الدين ليسهل حل الأخلاق.

ومن هنا ألح المستشرقون الذين يتكلمون بروح «علمية»!» على أن هذه الأخلاق كانت جائزة وطبيعية ومنطقية فى البيئة البدوية الرعوية التى نزل فيها الإسلام (كأنما كانت موجودة فى تلك البيئة من قبل، ولم يكن الإسلام هو الذى أنشأها على مقاومة من تلك البيئة!!) وأن «التطور» الحتمى قد نقل المجتمع البشرى من الحالة الرعوية - والزراعية - إلى الطور الصناعى الذى لا تصلح فيه تلك الأخلاق، لأنها كانت قائمة على سيطرة الرجل وأنانيته وإذلاله للمرأة (إذلالها بالنظافة الخلقية!!) لأنها تعتمد عليه اقتصاديا فيتحكم فيها. أما فى العصر الصناعى - المتطور - فقد استقلت المرأة اقتصاديا ولم تعد تخضع لسلطان الرجل المتجبر فأصبحت حرة تفعل بنفسها ما تشاء! وعلى ذلك يكون التحلل الخلقى تقدما وتطورا، ويكون الدين الذى يحول دونه هو الرجعية والتأخر!

وللحق نقول إن أوربا ذاتها كانت «مصابة» بهذا اللون من التفكير حتى تجاه دينها هى، وأن اليهود هم الذين بثوا فيها هذه الأفكار ليفسدوها ويسيطروا عليها، وقام علماؤهم من أمثال ماركس وفرويد ودركايم بجهد «علمى!» واضح فى ترسيخ هذه الأفكار المفسدة فى نفوس الأوربيين تحقيقا لهدف معين - يصرح به التلمود - هو استحمار الأميين لحساب اليهود [1].

ولكن الصليبية التى تدفعها الصهيونية ليتعاونا معاً على تحطيم الإسلام كانت تعلم جيداً أن التماسك الخلقى عقبة فى سبيل السيطرة الصليبية الصهيونية، وأنه لابد من تحطيم تلك العقبة لتتم السيطرة على العالم الإسلامى. فلم يكن تقديم الفساد الخلقى للمسلمين يهدف إلى تحضيرهم وترقيتهم! إنما كان يهدف - بعلم وبنية مسبقة - إلى تحطيم هذه الأمة.

---

(١) «الأميون» (الجوييم) لفظ يطلقه اليهود على كل الأمم من غير اليهود. ويقول التلمود لليهود: الأميون هم الحمير الذين خلقهم الله ليركبهم شعب الله المختار !!

يقول المنصر الشهير «الأب زويمر» فى مؤتمر القدس الذى انعقد عام ١٩٣٥، مخاطبا زملاءه المنصرين:

«إنكم أعددتم نشئا (فى بلاد المسلمين) لا يعرف الصلة بالله، ولا يريد أن يعرفها، وأخرجتم المسلم من الإسلام، ولم تدخلوه فى المسيحية، وبالتالى جاء النشء الإسلامى طبقا لما أراده الاستعمار المسيحى، لا يهتم بالعظائم، ويحب الراحة والكسل، ولا يصرف همه فى دنياه إلا فى الشهوات. فإذا تعلم فللشهوات، وإذا جمع المال فللشهوات، وإن تبوأ أسمى المراكز ففى سبيل الشهوات يجود بكل شىء.

«إن مهمتكم تمت على أكمل الوجوه، وانتهيتم إلى خير النتائج، وباركتكم المسيحية، ورضى عنكم الاستعمار. فاستمروا فى أداء رسالتكم، فقد أصبحتم بفضل جهادكم المبارك موضع بركات الرب» [1].

أى رب هذا ياترى الذى يفرح بإفساد الناس.. إلا أن يكون هو الشيطان؟!

﴿.. قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩٣].

أما قضية «المرأة» بصفة خاصة، فلها قصة!

فمن قبل، فى أيام المنصرين، قبل المستشرقين، اهتمت مؤتمرات التنصير اهتماما بالغا بتعليم المرأة المسلمة! تلك المؤتمرات التى كانت تقول علانية إنها تسعى جاهدة لتدمير المسلمين!

جاء فى ص (٤٧) من كتاب (الغارة على العالم الإسلامى):

«ينبغى للمبشرين ألا يقنطوا إذا رأوا نتيجة تبشيرهم للمسلمين ضعيفة، إذ من المحقق أن المسلمين قد نما فى قلوبهم الميل الشديد إلى علوم الأوربيين **وتحرير النساء**».

وفى صفحتى (٨٨ و ٨٩) وردت الفقرتان الآتيتان بشأن قرارات مؤتمر لكنو ومؤتمر القاهرة: «كل هذه الحوادث (أى بوادر قيام «نهضة» فى العالم الإسلامى

---

(١) عن كتاب: المخططات الاستعمارية لمكافحة الإسلام، لمحمد محمود الصواف، طبع دار الاعتصام بالقاهرة، ط ٣ ص ٢١٨.

متأثرة بأوربا) تحتم على الكنيسة أن تعمل بحزم وجد، وتنظر فى أمر التبشير والمبشرين بكل عناية. وعلى ذلك فيشمل برنامج مؤتمر لكنو الأمور الآتية:

أولها: درس الحالة الحاضرة.

ثانيها: استنهاض الهمم لتوسيع نطاق تعليم المبشرين، والتعليم النسائى.

ثالثها: إعداد القوات اللازمة ورفع شأنها.

هذا ما نشرته مجلة الرئيس عن مواد تضمنها برنامج المؤتمر. أما البرنامج نفسه فقد عرض على المؤتمرين بعد قراءة الخطب الافتتاحية وانتخاب اللجنة وتلاوة تقارير لجنة مواصلة أعمال مؤتمر القاهرة، وهذه مواده:

الأولى ...

السابعة: الارتقاء الاجتماعى والنفسى بين النساء المسلمات.

الثامنة: الأعمال النسائية..

فما هذه العناية الشديدة من مؤتمرات التنصير «بتحرير» النساء المسلمات و«الارتقاء» الاجتماعى والنفسى بهن؟!

وما هذا الفرح التنصيرى بأن المسلمين قد نما فى قلوبهم الميل الشديد إلى تحرير النساء؟ ذلك الفرح الذى يعوضهم عن ضعف نتائج التنصير فى صفوف المسلمين؟!

لابد أن تكون هناك أسباب!

والأسباب هى التى يكشف عنها المستشرق اليهودى «مرو برجر» فى كتابه «العالم العربى اليوم» الذى يقول فيه إن أكثر العناصر فاعلية فى عملية التغيير الاجتماعى فى العالم الإسلامى (أى التى تضعف أثر الدين وتمنع سيطرته على شئون المجتمع) هو المرأة المتعلمة العاملة فى خارج البيت [1] !!

ومن أجل ذلك كانت عناية المنصرين الخاصة «بتحرير» المرأة المسلمة !

لقد جربت الصليبية الصهيونية فى محاولتها تدمير الإسلام أن المرأة

(١) سنناقش الكتاب فى الفصل القادم إن شاء الله .

المسلمة – الجاهلة القابعة فى بيتها – تبث فى نفوس أبنائها – رغم جهلها – ما ورثته من تعاليم الدين التى تسرى فى دمائها، ومن ثم لا يكون من السهل على الصليبية الصهيونية إفساد هؤلاء الأبناء! وحتى إن فسدوا فى شبابهم فإنهم يعودون بعد حين إلى حظيرة الدين، فيذهب هباءً ما بذل من الجهد فى إفسادهم!

فلابد إذن من إفساد هذه المرأة ذاتها وهى فتاة لكيلا تلقن أبناءها مبادئ الدين حين يكون لها أبناء. ولا يكون الإفساد إلا بتعليمها! وإلا بإخراجها من البيت! وإلا فكيف تتأثر بالتوجيهات المفسدة إذا لم تكن تقرأ ما يكتب [١] ؟ وكيف تمارس إفساد المجتمع وهى قابعة فى بيتها لا تخرج؟!

ولابد – لضمان نتيجة أكيدة المفعول – من إيغار صدرها ضد الدين، حتى لا تحن له أبدا، ولا تقع فى « حبائله! » أبدا.. وذلك بالإيحاء لها أن من حقها – بل من واجبها – أن تتحرر، وأن المانع الذى يمنع تحررها هو الدين!

* * *

من أجل هذه القضايا مجتمعة: قضية « الحضارة » وقضية « الأخلاق » وقضية « المرأة » عنى المستشرقون بأن يقولوا ويلحوا فى القول بأن الإسلام دين رجعى جامد متخلف لا يساير حركة البشرية وتطورها، مع وضع هذا « التطور » فى إطار من الإغراء الشديد الذى لا يقاوم، لتكون النتيجة هى تخلى المسلمين عن الإسلام، وهى النتيجة التى صرح المنصرون من قبل بأنها هدفهم وغايتهم من العمل فى بلاد المسلمين !

ولكن هذه القضايا كلها التى يثيرونها لتنفير المسلمين من الإسلام ليست قضايا « علمية » كما يزعمون، إنما هى قضايا سياسية، صليبية صهيونية، فإذا وضعناها على مائدة البحث العلمى فماذا يتحصل منها؟

فأما القول بأن الإسلام هو نتاج البيئة العربية البدوية فقد ناقشناه من قبل، ورأينا على ضوء الواقع التاريخى أنه لا البيئة البدوية العربية ولا أى بيئة فى

---

(١) لم تكن الإذاعة والتلفاز قد اخترعا فى ذلك الحين، ولكن لا غنى على أى حال عن تعليمها وإخراجها من البيت كما يقول مرو برجر !

الأرض كلها وقت ظهور الإسلام كانت تؤدى إلى عقيدةٍ تقوم على التنزيه المطلق لله، ونفى الألوهية والقداسة عن أى أحد إلا الله، وتقوم بتحرير «الإنسان» – نوع الإنسان – من كل عبودية زائفة لغير الله، ثم تعطى «الكرامة الإنسانية» للرجل والمرأة كليهما، وتحرر المرأة من الذل، والمحكومين من الطغيان، والرقيق من الرق (فيما عدا بقاياه التى تحدثنا عن ظروفها من قبل) وتحرم الربا وتحرم الخمر وتحرم الانحدار الحيوانى فى صورة فاحشة تلوث المجتمع البشرى..

وأما الحضارة فقد رسخ الإسلام أسسها ومبادئها على قواعد غير التى كانت قائمة فى الأرض كلها يومئذ، لأنها قواعد ربانية، أنزلها خالق الإنسان، الذى يعلم ما يصلحه وما يصلح له.

﴿ أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ [الملك: ١٤].

فأما البيئة البدوية العربية فلم يزعم أحد أنه كان لديها فى ذلك الوقت ما تنشىء به من عند نفسها حضارة يعتد بها فى مجال الحضارات، بصرف النظر عن **استعداداتها**، التى علم الله منها أنها صالحة لحمل رسالة الإسلام، والارتفاع إلى مستوى حضارته، والتى قال الله عنها: ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ [الأنعام: ١٢٤] بما تحمله الآية من معانٍ واضحة. وأما الحضارة الإغريقية فقد كانت تؤله العقل، وتجعله هو المحكّم فى جميع الأمور، سواء منها ما يمكن للعقل أن يستوعبه وما لا يمكن، وما يصلح أن يستفتى فيه وما لا يصلح! فخلطت بذلك أمورا مفيدة وأمور موبقة، كان من أبشعها الوثنية وتعدد الآلهة، وتصوير العلاقة بين الإنسان وبين الإله على أنها علاقة صراع وحقد متبادل؛ الإنسان يريد أن يثبت ذاته بتحدى الإله وعصيانه، والإله يريد أن يحطم الإنسان غيرة منه لأن الإنسان قد شاركه فى المعرفة [1]!! وأما الحضارة الرومانية فهى عبادة الجسد

---

(١) أوضح ما تكون هذه اللوثة فى أسطورة بروميثيوس سارق النار المقدسة، التى يتجلى فيها حقد الإله على الإنسان لأنه تعلم، وشارك الإله فى «المعرفة»، بعد أن سرق له بروميثيوس النار المقدسة! فلا الإله كان قد أعطى الإنسان العلم، ولا هو رضى عنه بعد ما تعلم! وأما الانتقام الذى انتقم به منه فهو أنه أرسل إليه مخلوقة أنثى، فى الظاهر لتؤنسه فى وحشته، ولكنه أرسل معها صندوقا هدية، فلما فتحه إذا هو مملوء بالشرور، فقفزت الشرور من الصندوق وملأت [illegible] الأرض!! راجع الحديث عن دلالات الأسطورة إن شئت فى كتاب «حول التأصيل الإسلامي للعلوم الاجتماعية».

ولذائذه، والرغبة في الاستغراق فى المتاع الحسّى بكل ألوانه، فتزين الحياة الدنيا إلى حد الفتنة بزخارفها، وفى الوقت ذاته هى حضارة الغلبة وحيازة القوة لإذلال الآخرين واستعبادهم [1] . وأما الحضارة الفارسية فهى حضارة الطقوس المقدسة والعنجهية المتألهة وعبادة النار !

وجاء الإسلام ليضع أسس الحضارة الحقيقية الجديرة «بالإنسان» . . الإنسان الذى كرمه الله وفضله على كثير ممن خلق: ﴿ **وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا** ﴾ [الإسراء: ٧٠] الحضارة التى تأخذ «الإنسان» كله، بجميع جوانبه وجميع مجالاته: سواء الجانب الروحى، أو الجانب العقلى، أو الجانب الجسدى. وسواء مجاله السياسى، أو مجاله الاجتماعى، أو مجاله الاقتصادى، أو مجاله العلمى، أو مجاله الأخلاقى . . وتوجه ذلك كله لله: ﴿ **قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ** ﴾ [الأنعام: ١٦٢ - ١٦٣].

فيعمل الإنسان لدنياه وآخرته فى آن واحد: ﴿ **وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا** ﴾ [القصص: ٧٧]، ويعمل بروحه وعقله وجسده فى آن واحد، ويعمل بنشاطه كله لعمارة الأرض وقلبه متعلق بالسماء: ﴿ **هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ** ﴾ [الملك: ١٥] . وهى هى الحضارة التى عرفتها أوربا ذات يوم فتتلمذت عليها، واستمدت منها أسباب نهضتها، وإن كانت قد أساءت التتلمذ (بما ورثته من الحضارة الإغريقية الرومانية من انحرافات) وأساءت الأدب فردت الجميل بالعدوان!

أما كون المسلمين اليوم متأخرين حضاريا فهذه حقيقة، ولكنها حقيقة

---

(١) مما تفخر به أوربا أنها وريثة الحضارة الإغريقية الرومانية، وهى على حق فيما تقول. فقد ورثت عنها عبادة العقل، وعبادة الجسد، وحيازة القوة لإذلال الآخرين واستعبادهم! وبئس الإرث ما ورثت!

تتعلق بالمسلمين لا بالإسلام! فالمسلمون حين ينحرفون عن الإسلام يتأخرون، وهم اليوم منحرفون، ويبقى الإسلام كما نزل من عند الله، يفيء إليه البشر إذا أرادوا أن يكونوا متحضرين!

والإسلام كذلك هو الذى وضع الصورة المثلى للأخلاق التى تليق بالإنسان.. الإنسان فى عمومه، لا فى طور معين من أطوار حياته. وما يزعمه التفسير المادى للتاريخ من أن الوضع المادى والوضع الاقتصادى هو الذى ينشىء الأخلاق، فهو حقيقة بالنسبة للجاهلية. فما دام البشر - في الجاهلية - هم الذين يضعون المعايير - الفكرية والخلقية والسياسية والاقتصادية - فلابد أن تتغير أفكارهم وأخلاقهم ومعاييرهم كلما تغيرت أوضاعهم!

والتفسير المادى للتاريخ الذى يزعم أن الأصل هو المادة، وأن الوضع المادى هو الذى يسيطر على الناس بحتميات لا قبل لهم بها، ولا فرار لهم منها، يعود فيناقض نفسه فيقول إن «الطبقة» التى تملك هى التى تحكم، وهى تحكم دائما لصالح نفسها على حساب الطبقات الأخرى. أى أن البشر - الطبقة المالكة منهم - هم الذين يشرعون، وليست المادة، ولا الوضع المادى!

وما بنا هنا أن نناقش التفسير المادى للتاريخ مناقشة تفصيلية، فقد ناقشناه فى فصل طويل عن الشيوعية استغرق أكثر من مائتى صفحة من كتاب مذاهب فكرية معاصرة، لمن شاء أن يرجع إليها.

إنما نحن هنا نقرر هذه الحقيقة: إن ربط الأخلاق بالوضع المادى أو الوضع الاقتصادي، والزعم - من ثم - بأن هناك أخلاقيات رعوية وأخلاقيات زراعية وأخلاقيات صناعية، هو فى ذاته زعم جاهلى، ناشىء من اتخاذ التفسير المادى - الجاهلى - للتاريخ!

إن أوضاع الإنسان المادية والاقتصادية تتغير. نعم. وهى دائمة التغير، نتيجة التفاعل البشرى الدائم مع الكون المادى، الذى ينشىء كل حين أوضاعا لم تكن قائمة من قبل، ولكن «الإنسان» لا يتغير تغيرا جوهريا من داخله بتغير أوضاعه المادية والاقتصادية.. وإنما له حالتان اثنتان فى كل أوضاعه المادية

والاقتصادية، لا تتعلقان بالوضع المادى، ولا بأية حتميات زائفة، إنما تتعلقان بأمر جوهرى فى كيانه هو الإيمان أو الكفر:

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ﴾ [التغابن: ٢].

ومن ثم لا توجد لأخلاقياته إلا حالتان اثنتان، فهى إما أخلاق الإيمان وإما أخلاق الكفر (أو بعبارة أخرى أخلاق الإيمان أو أخلاق الجاهلية). فأما أخلاق الإيمان فهى لا تتغير، لأنها من تقرير الله سبحانه وتعالى، ووحيه الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، المتعلقة بالإنسان من حيث هو إنسان. وأما أخلاق الجاهلية فهى عرضة دائماً لأن تتغير، كلما تغير طور من أطوار الإنسان، فتغيرت «الطبقة» التى تشرع للناس!

ومن ثم لا توجد في عرف الإسلام أخلاق رعوية وأخلاق زراعية وأخلاق صناعية، إنما توجد أخلاق إيمانية، يلتزم بها الإنسان المؤمن سواء كان فى البادية أو فى الريف، أو فى المدينة الصناعية المزدحمة بالسكان (على حد تعبير مرو برجر)؛ أما طرق المعيشة أو بالأحرى صورتها فتتغير، فيسكن الإنسان فى كوخ أو فى خيمة أو فى بيت خشبى أو فى بيت حجرى أو فى قصر مشيد.. فيعبد ربه فى جميع حالاته ويلتزم بأوامره لأن علاقته بربه لا تتغير: هو المخلوق والله هو الخالق، وللخالق على المخلوق حق عبادته. ويسير على قدميه أو يركب دابة، أو يركب عربة تجرها دابة، أو يركب سيارة أو يركب طائرة.. فيعبد ربه فى جميع حالاته، ويلتزم بأوامره، لأن علاقته بربه لا تتغير: هو المخلوق والله هو الخالق، وللخالق على المخلوق حق عبادته..

وهكذا فى جميع أحواله..

ومن ثم يصف القرآن الأخلاق على أنها ميثاق بين الإنسان وبين الله، تندرج تحته كل علاقات الإنسان: علاقته بربه، وعلاقته بأبويه، وعلاقته بأسرته، وعلاقته بالناس كافة؛ على تفصيل يناسب كل علاقة من هذه العلاقات ويبين حدودها.

﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ ؟ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ * الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ * وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ، وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ * وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ، وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ .. ﴾ [الرعد: ١٩ – ٢٢].

﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا .. ﴾ [المائدة: ٧].

وتشمل هذه الأخلاق كل معاملات الإنسان، وكل مجالات حياته، لا شيء منها يكون خارج دائرة الأخلاق كما تفعل الجاهلية المعاصرة فى السياسة، وفى الاقتصاد، وفى العلاقات الاجتماعية، وفى علاقات الجنسين، وفى كل شأن من شئون الحياة.. وتقدم للعالم «حضارة» بلا أخلاق! وتقدم معها معدلات دائمة الارتفاع فى الأمراض النفسية والعصبية، والقلق والجنون والانتحار، والخمر والمخدرات والجريمة، ثم تفرضها – باسم العولمة أو باسم النظام العالمى الجديد – على من يريد ومن لا يريد !!

أما قضية المرأة – أكبر قضايا الجاهلية المعاصرة وأكبر مفاسدها – فالله قد أنزل فيها حكمه فى كتابه المنزل وفى سنة رسوله ﷺ، والمؤمنون ملتزمون بما أنزل الله إليهم لأن الله قال لهم: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ [الأحزاب: ٣٦] . أما غير المؤمنين فلينظروا إلى الواقع المشهود فى الغرب، حين خالفت الجاهلية المعاصرة حكم الله. فلينظروا إلى الأمراض النفسية والعصبية ونسب الطلاق المتزايدة، ولينظروا بصفة خاصة إلى مصائب الشذوذ، وهو من «الآثار الجانبية» التى نشأت من «تحرير» المرأة على النحو الذى تحررت به، وأدى – من بين ما أدى – إلى ترجيل المرأة وتأنيث الرجل، وغياب قوامة الرجل على الأسرة.. وهذا ليس كلامنا نحن، إنما كلام عقلائهم أنفسهم.

وأما كون المرأة الأوربية كانت مظلومة مهضومة الحقوق، فنعم. وأما كون المجتمع الإسلامى فى عصوره المتأخرة قد انحرف إلى ألوان من الجاهلية فى معاملة المرأة، فنعم، ولكن هذا لا يبرر للمرأة الأوربية « تحررها » على النحو الذى تحررت به، وجلب من ألوان الخلل فى المجتمع الأوربى ما جلب، ولا يبرر للمرأة المسلمة أن تتخذها قدوة، وقضيتها غير قضيتها، ومنهجها غير منهجها، وقيمها ومبادئها غير قيمها ومبادئها [1] ..

وأما القول بأن الإسلام - كما أنزله الله، ومن يوم أن أنزله الله - قد ظلم المرأة وكبّلها، فقول لا يصدر عن مسلم يؤمن بالله ورسوله: ﴿ **كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ، إِن يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِباً** ﴾ [الكهف: ٥].

وإذا كانت الجاهلية المعاصرة قد أخرجت المرأة من بيتها، ومن وظيفتها الفطرية لتشارك فى الإنتاج المادى - على حساب عملها الرئيسى فى رعاية الإنتاج البشرى - فتلك حماقة لا يقدم عليها عاقل. والإسلام على أى حال لن يدور مع أهواء الجاهلية حيث دارت، وهو الذى نزل ليعالج انحرافات الجاهلية، وليقوم الناس بالقسط:

﴿ **لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ ، وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ** ﴾ [الحديد: ٢٥].

﴿ **وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ** ﴾ [المؤمنون: ٧١].

* * *

وأما القضية العكسية التى ظهرت فى كتابات المستشرقين المحدثين (من مدرسة المستشرق الانجليزى جب) فهى أخبث وأخطر من دعوى الرجعية فى هذا الدين!

إنها إغراء بتدمير كل مفاهيم الدين باسم الدين، وتحت ستار الدين! وذلك

---

(١) شرحنا هذه القضية بشىء من التفصيل فى كتاب « واقعنا المعاصر » .

بإدخال كل ما يراد إدخاله من «التطور» فى ظل دعوى تقول إن الإسلام دين مرن منفتح على الحضارة، قابل دائما للتفاعل مع ما يجدّ فى حياة الناس.

وهى كلمة حق يراد بها باطل!

فالإسلام دين مرن، نعم، منفتح على الحضارة، نعم، ولكن فى حدود الثوابت التى ثبتها الله. وشرط الاجتهاد المعروف لدى الفقهاء هو ألا يحل حراما ولا يحرم حلالا ولا يصادم مقاصد الشريعة. أما أن يفتح الباب على مصراعيه لإضفاء الشرعية على كل بدعة تبتدعها الجاهلية ولو صادمت نصا أو أصلا من أصول هذا الدين، فهذا تبديل صريح لدين الله، ولو تمسح بهذا الدين!

ولقد حكى الله عن جاهليات سابقة أنهم كانوا إذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها [١] !! أما اليوم فإنهم لا يقولون وجدنا عليها آباءنا! بل يقولون وجدنا العالم كله يقوم بها، وقد أصبح العالم اليوم كالقرية الواحدة، فلا نستطيع أن نشذ وحدنا عن بقية العالم! وأما الدين فإنه يتسع!

ويجىء الاستشراق بخبائثه فيسوغ للمنهزمين انهزامهم، وللمنحرفين انحرافهم، ويمد المترددين بالحجة!

إن مصادر التشريع فى الإسلام هى القرآن والسنة والإجماع والقياس. فإذا أجمعت الأمة اليوم على شىء، فإنه تكون له الشرعية، ولو خالف كل ما جرى عليه العمل فى ظل الإسلام خلال القرون! ولو خالف النص الصريح!

أما قول الفقهاء لا اجتهاد مع النص، فهو حجر على العقل البشرى أن يفكر! وأول ما يجب على «الاجتهاد» الجديد أن يلغى هذه القاعدة الأصولية، لينطلق الاجتهاد بلا حدود!

هكذا يقول المستشرقون [٢] ، وهكذا يتلقف سمومهم المتلقفون، من

---

(١) قال تعالى: ﴿ **وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ** ﴾ [الأعراف: ٢٨].

(٢) سنعرض نماذج من أقوالهم فى هذا الباب فى الفصل القادم.

الذين يريدون تغيير كل شيء فى الدين، وهم يلبسون مسوح الدين، ويزعمون « الدفاع » عنه إزاء الجامدين المنغلقين!

* * *

ويتصل هذا الكيد بالعمل الدائب الذى تقوم به الصليبية الصهيونية لتمييع مفاهيم الإسلام عند المسلمين. إنه جهد ضخم تقوم به كل الأجهزة الصليبية الصهيونية، السياسية وغير السياسية على السواء، ويعمل له المستشرقون بوصفهم جهازا من تلك الأجهزة المدربة لهدم الإسلام.

يقولون:

إن الإسلام ليس نصا جامدا. إنه روح!

وروح الإسلام هى الشيء المهم.. وليست النصوص!

والنصوص قابلة « للتطوير »! إما تطوير المفهوم مع بقاء النص.. وإما تطوير النص ذاته إذا لزم الأمر!

وما دامت روح الدين باقية، فلا خشية ولا جزع من تطوير المفاهيم أو تطوير النصوص.. فأنتم -- والله! – مسلمون مهما طورتم وبدلتم واستحدثتم من بدع فى هذا الدين!

بل أنتم مسلمون ولو عطلتم كل التشريع الإسلامى، وأخدتم بدلا منه « التجارب البشرية » الناضجة، التى جربتها البشرية فثبتت فائدتها، فهى ولا شك متفقة مع « روح الدين »، مادام فيها « مصلحة » للمسلمين!

هل تحسبون – أيها المسلمون – أن حكاية « الحكم بما أنزل الله » هذه ضرورية لحياتكم حتى تكونوا مسلمين؟!

لا تأخذوا الأمور بهذه الحرفية! لا تكونوا ضيقى الأفق.. لا تكونوا متعصبين!.. هل تريدون أن يقول عنكم العالم المتمدن إنكم رجعيون متخلفون؟!

حقا لقد جاء فى كتاب الله: ﴿ **وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ**

﴿ الْكَافِرُونَ ﴾ [المائدة: ٤٤]. ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [المائدة: ٤٥]. ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [المائدة:٤٧]، وكان هذا مفهوم المسلمين خلال القرون الماضية.. ولكن..!

جدت بعد ذلك أمور!

وتطورت الدنيا!

وجربت البشرية تجارب ناجحة فلماذا لا نستفيد بها؟!

و«الحضارة الغربية» هى خلاصة هذه التجارب الناجحة.. فهلموا إليها!

بالله أيها المسلمون! لا تترددوا فى أخذ الحضارة الغربية.. واطمئنوا على إسلامكم، فأنتم بخير.. مادمتم لا تخالفون روح الدين!

ألستم تصلون وتصومون وتحجون؟

إذن فأنتم مسلمون!

بل أنتم مسلمون ولو لم تصلوا وتصوموا وتحجوا..

هل أنتم فى ريب مما نقول؟!

إنكم تستطيعون أن تستحدثوا مفهوما جديدا للإسلام ليست فيه صلاة ولا صيام ولا حج، ثم يكون هذا «مفهوما إسلاميا» مادمتم استحدثتموه وأنتم مسلمون!!

إلى هذا المدى من المغالطة المستهترة وصل المستشرق الكندى المعاصر «ولفرد كانتول سميث» فى كتابه «الإسلام فى التاريخ الحديث»، حيث قال فى فصل «تركيا» (ص١٦١، ص١٧٥، ص١٧٧، ص١٨٣) إن الأتراك لم يتركوا الإسلام أبدا حين قاموا بحركتهم المعروفة، إنما هم استحدثوا مفهوما جديدا للإسلام ليس فيه صلاة ولا شعائر تعبدية.. ولكنهم مازالوا مسلمين [1] !

وتشترك تلك العصابة الحديثة من المستشرقين كلها فى تمييع الإسلام بهذه

(١) سنناقش الكتاب فى الفصل القادم.

الصورة التى لا تبقى فيه شيئًا من الإسلام، وإن اختلفت بينهم الوسائل والعبارات.. ولكنها تلتقى جميعا فى هذا التمييع المقصود.

وإنها لفتنة !

فيبدو أن تهمة الرجعية لم تكف لإقامة سد أمام حركات البعث الإسلامى، ويبدو أن قوما من المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها قالوا: لنكن رجعيين! فلن نتخلى عن هذا الدين، وليقولوا فى شأنه وشأننا ما يقولون!

وعندئذ أحس «أصحاب الشأن» من الصليبيين والصهيونيين أن شيئا ما يوشك أن يفلت من بين أيديهم، وأن جهد قرنين كاملين فى تشويه العقيدة، وتشويه صورة الرسول ﷺ، وصورة رجالات الإسلام، وصورة التاريخ الإسلامى، ووسم هذا الدين بالرجعية والجمود والتخلف، وتنفير الناس منه بكل وسيلة.. كل هذا لم يحل دون قيام حركات إسلامية فى العالم الإسلامى على اتساعه تدعو الناس حتى أولئك «المثقفين» أنفسهم إلى الدين الحق فيستجيبون، وتنزاح الغشاوة عن أعينهم فيبصرون، ويتحمسون لهذا الدين - على وعى وتمكن - ولا يبالون أن يقال عنهم إنهم رجعيون أو ما شابه ذلك من الأقاويل.

إذن لابد من تغيير الخطة !

كفوا أيها المستشرقون عن وسم هذا الدين بالرجعية.. فلم يعد ذلك السلاح يفيد.

خذوا هذا السلاح الجديد.. إنه ذو مفعول أكيد!

بثوا فى نفوس المسلمين ما تشاءون من أفكار ومفاهيم تدمر حقيقة الإسلام، وقولوا إنها من الإسلام، بل قولوا إنها هى هى حقيقة الإسلام!

وأسقطوا بصفة خاصة حكاية «الحكم بما أنزل الله» من الحساب.

إن جماعات من المسلمين - بعد كل الجهد الذى بذلناه، نحن الصليبيين الصهيونيين فى تشويه صورة الحكم الإسلامى - لَتقومُ بين الحين والحين تطالب بالعودة إلى الدين، والحكم بما أنزل الله.

وأى شيء أخطر علينا وأشد إزعاجا لخواطرنا من هذه الجماعات التى تريد العودة للإسلام وحكم القرآن؟!

كلا ! كلا ! لا ينبغى إتاحة الفرصة لأحد أن يقول بالعودة إلى الحكم بما أنزل الله.

قولوا للمسلمين - أيها المستشرقون - إن الحكم بما أنزل الله ليس شرطا للحياة الإسلامية على الإطلاق! وإن إسلامهم لن تخدش منه شعرة واحدة وهم لا يحكمون «بنصوص» ما أنزل الله، ماداموا يحكمون «بروح الإسلام»! ثم أدخلوا فى «روح الإسلام»، كل ما يعن لكم مما يصادم الإسلام ويقوّض أركانه، ولتوجهوا عنايتكم بصفة خاصة أن تدخلوا فى «روح الإسلام» أمرين أساسيين: الحكم بغير ما أنزل الله، «وتحرير» المرأة ! فإن المرأة المتعلمة على طريقتنا هى أكبر أعواننا على هدم الإسلام.. المرأة التى علمناها على المناهج التى وضعها وَلَدُنا دنلوب، وسرت فى العالم الإسلامى كله تؤتى أكلها كل حين بتوجيه الشيطان!

تلك هى الفتنة التى تدير رحاها الصليبية الصهيونية - وأجهزتها «الثقافية» - لهذا الجيل من المسلمين.

وهى ليست قضايا «علمية».. إنها فتنة.. فتنة مكشوفة مهما لبست ثياب «العلم».

فالإسلام منهج واضح محدد لا يختلط بغيره من مناهج الأرض، ولا يقبل التمييع.

وفوق أنه أعلى من كل مناهج الأرض، فهو مخالف لكل مناهج الأرض.

إنه يخالفها ابتداء فى كون الحاكمية فيه لله لا لأحد من البشر، بمعنى أن شريعة الله هى التى تحكم، وأن البشر فى ظله لا يشرعون لأنفسهم، وإنما يحكمون بشريعة الله، فيحتكمون إلى نصوصها، ويجتهدون فيما لا نص فيه، فى داخل الإطار المحكم لشريعة الله، بحيث لا يحلون حراما ولا يحرمون حلالا ولا يخالفون مقاصد الشريعة.

وليست هذه قضية عارضة فيه كما يحاول أن يصورها المستشرقون، ولا هى قطعة منه قابلة «للاستبدال»!

إنها صميم الإسلام.. إنها نابعة ابتداء من الشهادة بأنه لا إله إلا الله..

﴿ فَلا وَرَبّكَ لا يُؤْمنُونَ حَتَّىٰ يُحكّمُوكَ فِيما شَجَرَ بَيْنَهُمْ، ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥].

وليس الحكم بما أنزل الله قضية روح عامة كما يحاول أن يصورها أولئك المستشرقون. إنما هى نص وروح فى ذات الوقت بغير افتراق بين هذا وذاك..

﴿ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ [المائدة: ٤٩].

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ.. ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة: ٥٠].

والإسلام يقوم ابتداء على أساس العبودية الخالصة لله، وإفراد الله بالألوهية والربوبية، ونفيهما عن كل أحد سواه. والحكم بنصوص الشرع، والالتزام بها، ليس إلا وجها من أوجه إفراد الله يالعبادة، ومن ثم فهو ركن أصيل فى الإسلام لا يستبدل، لأنه حين يستبدل لا يذهب فقط بالنصوص. إنما يذهب كذلك بروح الإسلام.

والحضارة الغربية التى يريد المستشرقون إدخالها فى حياة المسلمين بعد إلباسها زى الإسلام، تقوم ابتداء على أساس مخالف للإسلام، وهو حاكمية البشر بدلا من حاكمية الله.. ومن ثم فكل محاولة لإلباسها زى الإسلام هى محاولة باطلة من أساسها، وإن كان هذا لا يمنع من أخذ «التنظيمات» النافعة فى هذه الحضارة، ولكن دون أخذ «النظم» - أى الأسس والمبادئ - التى تقوم عليها الحضارة الغربية، القائمة على حاكمية البشر بدلا من حاكمية الله، والتى تبيح الربا، وتبيح الخمر، وتبيح «العلاقات الحرة!» بين الجنسين، وتبيح العرى، وتبيح الشذوذ، وتبيح سرقة أقوات الشعوب، وتبيح للقوى أن يأكل الضعيف، أو يزيحه من الطريق.

* * *

ويتصل بعملية التمييع هذه، الخلط المتعمد بين «الإسلام» و «المسلمين».

يقول ولفرد كانتول سميث فى كتابه «الإسلام فى التاريخ الحديث» إن المسلمين يغضبون منا – نحن المستشرقين – من استخدام كلمة «الإسلام» بمعنى «المسلمين» لأننا نصف الإسلام فى هذه الحالة بصفات يريدون هم أن ينزهوه عنها.. ولكن هذا من طبيعة اللغة! (أى اللغات الأوربية التى يكتب بها المستشرقون).

وليس هذا الذى يقوله ولفرد كانتول سميث حقيقة! فاللغة – أى لغة فى الدنيا – لن تجبر المتحدث بها على هذا اللبس، مادام هناك لفظة خاصة بالإسلام ولفظة خاصة بالمسلمين! ومادام السيد المستشرق يعلم أن هذا مما يتأذى منه المسلمون فلماذا يصر عليه هو وزملاؤه؟ فلو لم يكن هو وزملاؤه يقصدون هذا قصدا ما فعلوه، ولن تجبرهم طبيعة اللغة -- أى لغة – أن يلبسوا هذا اللبس.

إنما المقصود تمييع صورة الإسلام، حتى يصير هو واقع المسلمين، ومن ثم يصبح شيئا متغيرا على الدوام، لا ضابط له ولا مرجع يرجع إليه في الحكم على ما هو من الإسلام وما ليس من الإسلام!

وهذا يخالف نصوص الإسلام وروحه على السواء.

﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ [النساء: ٥٩].

ومن ثم فهناك مرجع محدد يُرجَع إليه فى حالة التنازع. مرجع ثابت لا يتغير. وهناك إذن أصل ثابت للإسلام يحكم به على تصرفات الناس، إن كانت منطبقة على الإسلام أو منحرفة عنه. ومن ثم كذلك يفترق الإسلام عن واقع المسلمين حين ينحرفون عن الإسلام، فيصبح المسلمون منحرفين عن الإسلام، ويظل الإسلام هو هو كما نزل من عند الله.

أما اختلاف الفقهاء فيما بينهم فى الفرعيات فلا يلغى هذه الحقيقة، فإنهم لا يختلفون فى الأصول، ولا يملكون أن يضفوا الشرعية على ما لا شرعية له فى دين الله.

ولا يغيب ذلك عن المستشرقين بطبيعة الحال: ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٤٦].

يقول «جب» فى كتاب «الاتجاهات الحديثة فى الإسلام Modern Trends In Islam»:

«إن نوع المجتمع الذى تبنيه جماعة لنفسها يتوقف أساسا على معتقداتها حول كنه هذا الكون وغايته، وحول مكان النفس الإنسانية فيه. وهذه نظرية مألوفة إلى حد كبير، ولا تفتأ الكنيسة ترددها أسبوعا بعد أسبوع. وربما كان الإسلام هو الدين الوحيد الذى قصد فى ثبات وإلحاح إلى بناء مجتمع وفق هذا المبدأ، وقد كانت أداته الرئيسية لتحقيق هذا الغرض هى الشريعة».

ويقول جرونيباوم فى كتابه «الإسلام Islam»:

«إن الأمر الذى اقتضى عشرات السنين من المسيحيين الأوائل لكى يدركوه قد أدركه محمد (ﷺ) بعد سنوات قليلة، وهو أنه مادامت إرادة الله قد اقتضت أن تمتد الحياة الدنيا فترة من الوقت طالت أو قصرت فإن الجماعة الإسلامية ينبغى أن تستقر فيها على التقاء كامل مع تعاليم الوحى المنزل..».

ويقول سميث فى كتابه «الإسلام فى التاريخ الحديث Islam in Modern History»:

«وإذا كانت عقيدة ما أو نظام ثيولوجى يمكن أن يكون تعبيرا عن الصورة العقلية للاعتقاد الشخصى - كما هو الشأن فى كثير من الحالات، وفى المسيحية بصفة خاصة - فإن النظام الاجتماعى بما يحويه من ألوان النشاط المختلفة هو التعبير - فى صورة عملية - عن الاعتقاد الشخصى للمسلم».

ويقول كذلك فى نفس الكتاب:

«يرى المسلم، مثل الماركسى، وعلى غير ما يرى الهندوكى، أن ما يحدث هنا فى هذه الأرض ذو دلالة باقية ولا مفر منها. إن بناء حياة الجماعة فى الأرض

على أسس سليمة هو الواجب الأسمى . ولا شك أن المحاولة الإسلامية - بالنسبة لكل المحاولات التى بذلت لنشر العدالة بين الناس - كانت وما تزال إلى هذه اللحظة أشدها جدية وأكثرها جهدا . وإلى ما قبل قيام الماركسية كانت كذلك أعظمها وأشدها طموحا . ومع ذلك فهى تفترق عن الماركسية فى أن الإسلام يرى أن كل حدث دنيوى له مرجعان، وينظر إليه فى ضوءين معا . فكل حركة يتحركها الإنسان ذات صلة بعالم الخلد والعالم الأرضى فى وقت واحد . . . أى أن كل عمل له نتائج من نوع معين في الحياة الدنيا، ونتائج من نوع آخر فى الحياة الآخرة . وبمعنى آخر فإن كل عمل يجب أن يقوّم فى ذاته، ويقوم فى نفس الوقت بالنسبة لصلته بحركة التاريخ » .

فهناك إذن صورة واضحة المعالم للمجتمع المسلم، صورة يحكم بها على أى مجتمع هل هو مسلم أم غير مسلم . وانحرافات المسلمين عن هذه الصورة خلال التاريخ ليست لها حجية . . **إنها انحرافات** . ولا تؤخذ قط على أنها صورة من « الإسلام » . إنما هى صورة من حياة « المسلمين »، يقتربون فيها من الإسلام أو يبتعدون عنه بحسب أنماط سلوكهم، ويبقى الإسلام - دائما - هو الإسلام كما أنزله الله، وكما هو محفوظ فى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ .

ومع وضوح هذه الحقيقة فى كتابات المستشرقين أنفسهم - كما مر بنا فى المقتطفات السابقة - فإنهم يخلطون خلطا متعمدا بين « الإسلام » و « المسلمين » لعدة غايات .

ففضلا عن الغرض الخبيث الذى تسعى إليه الصليبية الصهيونية من إزالة القداسة عن هذا الدين فى نفوس المسلمين، باستخدام أوصاف مؤذية وتوجيهها إلى « الإسلام » (والمقصود بها - لو صحت، وليست دائما صحيحة - المسلمون لا الإسلام) وتكرار هذه الأوصاف حتى تذهب بوقار الإسلام واحترامه فى النفوس . .

فضلا عن هذا الغرض الخبيث فهناك الإيحاء المقصود بثه فى نفوس المسلمين من أن الإسلام أمر بشرى فى النهاية - ولو كان منزلا من عند الله ! -

فما دامت أعمال البشر تتخذ حكما على الإسلام المنزل من عند الله، فإن الصورة الربانية المنزلة تظل تتراجع فى النفس وتتضاءل وتخبو، وتبرز بدلا منها الصورة البشرية المعروضة، وتختلط الأمور فى النهاية، ويتميع مفهوم الإسلام !

إنك حين تقرأ - على الدوام - مثل هذه العبارات فى كتب المستشرقين:

إن الإسلام استمد من الفرس والبيزنطيين أنظمة الحكم..

إن الإسلام استوعب الهيلينية **وتأثر بها** فى صياغة أفكاره..

إن الإسلام أخذ التصوف من الهنود والفرس..

إن الإسلام تحول من موقف كذا إلى موقف كذا..

يقر فى خلدك - دون وعى منك - أن الإسلام ليس شيئا ثابتا محدد المعالم، وإنما هو صور مختلفة متعددة، فلا يكون منه فى نفسك ذلك الأثر الراسخ الفعال، الذى يشعه فى نفسك «الإسلام» المنزل من عند الله.

ومن جانب آخر فإنك حين تقرأ مثل هذه التعبيرات :

إن الإسلام فى القرن الثالث الهجرى اتجه إلى أخذ الثقافة الهيلينية (مثلا).

إن الإسلام المعاصر يبحث عن شخصية محددة المعالم يواجه بها العالم الحديث..

إن الإسلام فى محاولته الرد على تحدى الغرب قد لجأ إلى كذا وكذا..

فقد يقر فى خلدك - دون وعى منك - أن هذه المواقف المذكورة، والمحاولات المشار إليها هى مواقف ومحاولات إسلامية، أو أن الإسلام يرضى عنها، بينما هى قد تكون منحرفة عن الإسلام، كمحاولة المسلمين المنهزمين اليوم - مثلا - أخذ الحضارة الغربية بحلوها ومرها، وما يحمد منها وما يعاب (كما قال الدكتور طه حسين فى كتاب «مستقبل الثقافة فى مصر») أو «تحرير» المرأة على الطريقة الغربية التى يحاولها «التقدميون» و «التقدميات» فى العالم الإسلامى!

وبهذا وذاك تتميع صورة الإسلام فى نفوس المسلمين، ولا يعود له ذلك

الوضوح المؤثر الفعال الذى يكون له حين يعرض فى صورته الحقيقية الرائعة الصافية الأصيلة.

وهو أمر مقصود..

فالصورة الحقيقية الرائعة الصافية الأصيلة خطرة شديدة الخطر على مخططات الصليبية الصهيونية، لأنها ذات مفعول **لا يقاوم** ! إنها تملأ نفس صاحبها فينفعل بها فيسعى إلى تحقيقها فى عالم الواقع. وهذا - بالذات - هو الأمر المرهوب الذى تفزع منه الصليبية الصهيونية، وتعمل بكل السبل على منع وقوعه. أما الصورة المهزوزة المتأرجحة المتحولة التى يحرص المستشرقون على بثها فى نفوس المسلمين باستخدام كلمة «الإسلام» بدلا من «المسلمين» فهى صورة لا «تنبعث» فى نفس أحد، ولا يحدث منها خطر على الإطلاق !

والأمر فى ذلك ليس متروكا لتصور المسلمين ولا تصور المستشرقين، يتصوره كل منهم على هواه:

إن «الإسلام» من عند الله..

و «التطبيق» من عند البشر..

ومن ثم يظل «الإسلام» حقيقة قائمة بذاتها واضحة المعالم، غير مختلطة بغيرها من الصور. ويظل «التطبيق» هو محاولة البشر الدائمة للوصول إلى الإسلام الصحيح. وقد تنجح المحاولة كما نجحت فى الصدر الأول من الإسلام، فيصبح إسلام الناس صحيحاً ومكتملاً، وقد تفشل المحاولة درجات مختلفة من الفشل كما حدث خلال الفترات التالية لصدر الإسلام، فيصبح إسلام الناس متحققا بالقدر الذى استطاعوا فيه بالفعل أن يطبقوا حقيقة الإسلام، ﴿ **وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا** ﴾ [الأنعام: ١٣٢] ، ﴿ **فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ، وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ، وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ** ﴾ [فاطر: ٣٢] . فأما من خرج فى التطبيق جملة عن حقائق الإسلام، أو جحد أحد أركانه، أو أنكر معلوما من الدين بالضرورة، فقد خرج من دائرة الإسلام، وإن حمل اسما مسلما وزعم أنه مسلم: ﴿ **وَيَقُولُونَ**

آمنَّا بالله وبالرَّسُول وأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَولَّىٰ فَريقٌ مّنْهُم مّنْ بَعْد ذَلكَ ومَا أُوْلَئكَ بالْمُؤْمنينَ* وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّه ورَسُوله ليَحْكُمَ بيْنَهُمْ إِذَا فَريقٌ مّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ [النور: ٤٧ – ٤٨].

وليس هذا – كما يزعم المستشرقون – « تجريدا » لنظرية، أو صورة مثالية اسمها « الإسلام » .

فما دام هذا الإسلام قد طبق بالفعل فى واقع الأرض، لا سنة ولا سنتين، ولكن قرونا متصلة فهو ليس « نظرية » مجردة، إنما هو « واقع »، وليس صورة مثالية، إنما هو تطبيق واقعى.

ولا ينفى هذا بطبيعة الحال أنه تحدث تغيرات فى التفاصيل العملية لهذا الواقع، كلما جدت فى حياة الناس أمور جديدة، سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية أو غيرها، ومزية الإسلام فى ذلك أنه يتسع لكل نمو سوىٍّ فى حياة البشر، ولكن هذا النمو ليس له أن ينحرف بالناس عن الأصول العامة لهذا الدين، أى ليس له أن يحل حراما، أو يحرم حلالا، أو يصادم مقاصد الشريعة.

إنما الأحرى أن نقول إن الإسلام « منهج » ربانى شامل يشمل كل مجالات الحياة، من اتبعه فهو على صواب، ومن انحرف عنه فهو مخطىء بقدر هذا الانحراف.

وهذا المنهج له كتاب يحدد معالمه، ويبين حدوده، هو القرآن. وله « مذكرة تفسيرية » هى سنة الرسول ﷺ : ﴿ وأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ [النحل: ٤٤].

ومن ثم يرجع فى تفهم هذا المنهج وتصوره إلى القرآن والسنة، ويحكم بهما على تصرفات الناس الواقعية فى كل جيل، ليرى هل هى ملتزمة بقواعد الإسلام أم جانحة عنه.

وهذا الذى تحرص الصليبية الصهيونية أشد الحرص على صرف المسلمين عنه، لأنها تعلم – بالتجربة الواقعية – مكامن الخطر فيه، وأنه هو الذى يحرك

حركات البعث والتصحيح على مدار التاريخ. ومن ثم تجتهد كل جهدها فى تمييع صورة الإسلام، بجعلها لا تُستَمَد من هذين المصدرين الثابتين، بل تستمد من واقع المسلمين.. وعندئذ فيها فرج.. وفيها تيسير!!

* * *

ويتصل بهذا الجهد الخبيث كذلك القول بأن الإسلام ليس له «نظم» محددة، وإنما هو مجموعة توجيهات عامة يقصد بها تهذيب الروح، وتعميق الوجدان! وأنه استمد كل نظمه من الفرس والروم.

وهو قول مزدوج الهدف، ومزدوج المفعول:

الهدف الأول: هو تمييع صورة الإسلام فى نفوس المسلمين من زاوية جديدة تضاف إلى ما سبق من ألوان التمييع. فحين لا يكون للإسلام «نظم» يعرف بها، وتتحدد بها صورته فى عالم الواقع.. فماذا يكون؟!

إنه يكون صورة مهزوزة غامضة باهتة ضعيفة المفعول. صورة لا تحتل حيزا واضحا فى الأفهام، ولا تغرى أحداً بتطبيقها فى عالم الواقع.. وهذا أمر مقصود!

والهدف الثانى: هو إيهام المسلمين أنهم يستطيعون أن يأخذوا النظم الغربية التى يطلقون عليها جملةً اسم «الحضارة الغربية» ثم يظلون بعد ذلك مسلمين! فإذا كان المسلمون الأوائل - الذين لا شك فى إسلامهم - قد أخذوا النظم الفارسية والبيزنطية وظلوا مع ذلك مسلمين راسخى الإيمان، فما الذى يمنع المسلمين اليوم من أن يأخذوا النظم الغربية ثم يظلوا مسلمين؟! وهذا -كذلك- أمر مقصود.

وكلاهما مبنى على مغالطة علمية ضخمة يقوم بها السادة المستشرقون، يلبسون فيها الحق بالباطل، ويكتمون الحق وهم يعلمون!

فالنظام شىء.. والتنظيمات شىء آخر.

النظام هو مجموعة المبادئ والقيم والقواعد التى تحدد المفاهيم وتحكم السلوك. والتنظيمات أدوات تنفيذية تعين على تطبيق المبادئ والقيم والقواعد،

ولكنها شيء قائم بذاته، يمكن أن يخدم أى نظام، دون أن يكون بالضرورة قطعة من النظام.

فتقسيم الجهاز التنفيذى للدولة إلى وزارات ومصالح وإدارات وأقسام ووحدات، تنظيم إدارى بحت، يمكن أن يخدم أى نظام يرغب في استخدامه، وهو يخدم بالفعل فى عالمنا الحاضر الدول الرأسمالية التى تسمى نفسها «ديمقراطية» والدول الجماعية التى تقوم على «دكتاتورية البروليتاريا»، كما يخدم الدول الملكية والجمهورية بغير تمييز. ثم يبقى بعد ذلك لتلك النظم، الرأسمالية والجماعية والملكية والجمهورية.. إلخ استقلالها وتميزها، لا تختلط بعضها ببعض ولا تتميع صورتها بسبب استخدامها كلها تنظيماً إدارياً واحداً أو متشابه السمات، ذلك أنها لا تستمد ذاتيتها من التنظيمات الإدارية التى تقوم عليها، والتى تتشابه فيها مع غيرها، إنما تستمدها من مجموعة القيم والمبادئ والقواعد والمفاهيم التى تقوم عليها، والتى تختلف الواحدة فيها عن الأخرى أنواعا من الاختلاف.

والذى أخذه المسلمون الأوائل من الروم والفرس لم يكن هو «النظم»، إنما كان هو التنظيمات.

لقد كان العرب في جاهليتهم فى طور اجتماعى وسياسى واقتصادى متخلف. لا يكونون أمة، وإنما قبائل متفرقة، ولا يكوّنون دولة، وإنما حكومات محلية صغيرة هى مشيخات تلك القبائل المتناثرة. وليس لهذا الطور من الحياة تنظيمات تذكر، فيما عدا تنظيمات بدائية بسيطة يحكمها العرف القبلى البدوى السائد فى الصحراء.

فلما أن صاروا مسلمين نَمَوْا نُمُواً سريعا مفاجئا فانتقلوا من طور «القبيلة» إلى طور «الأمة» فى بضع سنوات قصار.. وكان هذا إحدى معجزات هذا الدين.

فلما قامت دولة المدينة أخذ الرسول القائد ﷺ يضع التنظيمات الضرورية لهذه الدولة الناشئة بتوجيه الوحى السماوى تارة وبمشاورة الصحابة رضوان الله

عليهم تارة . . ولكن هذه الدولة على أى حال كانت محدودة الأبعاد، محدودة المطالب، والتطوع النبيل فيها يغنى – فى أغلب الأحيان – عن التنظيم .

فلما اتسعت الدولة وصارت تشمل جزيرة العرب كلها واجهت المسلمين ضرورة وضع التنظيمات للدولة الجديدة، وأحس عمر رضى الله عنه – بصفة خاصة – بهذه الضرورة فبدأ يدون الدواوين، ثم توالت بعد ذلك التنظيمات .

ولكن الدولة كانت تتسع باستمرار، وبسرعة لا مثيل لها فى التاريخ، وتحتاج – بسرعة متزايدة – إلى تنظيمات جديدة، أو قنوات جديدة تسير فيها العلاقات بين الدولة الأم والبلاد المفتوحة، وبين المسلمين والمعاهدين والمحاربين، كما تنظم سير العلاقات الداخلية بين المسلمين وحكومتهم، ،وبين بعضهم وبعض .

وفى تلك الفترة كان المسلمون قد فتحوا بلادا ذات تنظيمات إدارية متقدمة، فى فارس والشام ومصر وغيرها من البلدان . ولم يتردد المسلمون لحظة فى استخدام هذه التنظيمات النافعة فى إدارة الدولة الجديدة ، سواء كان مصدرها البيزنطيين أو الفرس ، فأبقوا -- أولا – تنظيمات كل بلد مفتوح على ما كانت عليه قبل مجيئهم إليها ، ثم أخذوا هم فى حكومتهم الداخلية ما رأوه نافعا منها لتيسير الأمور، وإن كانوا قد حرصوا على تطويع ذلك كله لمبادىء الإسلام وقيمه ومفاهيمه، كما ألمح إلى هذا « مرو برجر » فى كتابه « العالم العربى اليوم » .

تلك قصة « الأخذ » الذى أخذه المسلمون من فارس والرم . .

ولكنهم لم يأخذوا عنهم « نظاما » ما . . وما كان لهم أن يأخذوا أى « نظام » من صنع البشر، وهم يملكون النظام الأعلى . . النظام الربانى، المنزل عليهم من رب العالمين :

إن النظام الإسلامى يتميز – ابتداء – على كل النظم البشرية بمزية تجعله مختلفا عن كل النظم البشرية، كما أشرنا إلى ذلك من قبل، وهو أن الحاكمية

فيه لله - أى لشريعته المنزلة سبحانه وتعالى - بينما تقوم النظم البشرية كلها على حاكمية البشر، سواء كان أولئك البشر فردا أو جماعة أو طبقة أو أمة بأسرها. وتلك الخاصية - منذ البدء - تحول بين المسلمين وبين الأخذ من أى «نظام» وضعه البشر بأنفسهم لأنفسهم لأن ذلك يدخل فى دائرة التشريع بغير ما أنزل الله، وهو محرم على المسلمين:

﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [المائدة: ٤٤].

ثم إن النظام الإسلامى - بحكم تنزله من رب العالمين - هو النظام الأعلى والأوفى، فكيف يتركه المسلمون إلى ما هو دونه من نظم البشر، التى هى نظم جاهلية مهما يكن فيها من خير جزئى، إذ فيها قصور البشر، وأنانية البشر وأهواء البشر وانحرافاتهم:

﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة: ٥٠].

ولا مجال هنا لنقاش تفصيلى حول هذه النقطة، فقد فصلنا الحديث عنها فى عدة كتب منها كتاب «مذاهب فكرية معاصرة» ولكننا نقول هنا كلمة عابرة عن «الديمقراطية» التى يقع فى فتنتها اليوم كثير من الدعاة المسلمين أنفسهم، ظنا منهم أنها تلتقى التقاء كاملا مع الإسلام. فنسأل أولئك المعجبين بها سؤالا واحدا يغنينا عن أسئلة أخرى: هل تقبل الديمقراطية أن تحكم بما أنزل الله؟ أم إنها ترفض رفضاً باتاً الالتزام بأى شىء خارج ما تقرره برلماناتهم؟ أو ليست برلماناتهم هى التى أباحت الربا والخمر والفاحشة والشذوذ وغيرها من الموبقات، وأعطتها شرعية الوجود؟!

فإذا قالوا نأخذ الديمقراطية **تنظيما**، ونحكم بما أنزل الله، نقول لهم: اتفقنا! ولكن الديمقراطية يومئذ **لن تقبلكم**! لأنها - ابتداء - ترفض الالتزام بما أنزل الله!

وهكذا يبدو - فى عالم الواقع - ألا سبيل للجمع - أو الخلط - بين الإسلام وبين النظم الأخرى التى يصطنعها البشر لأنفسهم من عند أنفسهم، غير

ملتزمين فيها بما أنزل الله . أما التنظيمات فلا حرج على المسلمين أن يستخدموا منها ما شاءوا، مادامت لا تصطدم بقواعد الإسلام .

ولكن السادة المستشرقين لا يرغبون فى هذا التميز الناشىء من الالتزام بما أنزل الله، لأن همهم الأكبر أن يخرجوا المسلمين من إسلامهم الذى يعتزون به ويعتزون بالانتساب إليه :

﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم ﴾ [البقرة: ١٠٩] .

﴿ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا ﴾ [البقرة: ٢١٧] .

* * *

ومن الكيد الماكر الذى يستخدمه المستشرقون - الصليبيون الصهيونيون - تجاه المسلمين، إحراجهم الدائم لهم فى كتاباتهم بأنهم لا مناص لهم من أخذ الحضارة الغربية بقضها وقضيضها إن أرادوا أن يعيشوا على مستوى القرن الذى يعيشون فيه، لأن عملية الانتقاء - التى ينادى بها المفكرون المسلمون - أمر مستحيل! .

لماذا هو مستحيل أيها السادة؟

فأما أكثر المستشرقين فيلقونها هكذا فى وجوه المسلمين تحديا لهم ليئسوهم من محاولة الاحتفاظ بذاتيتهم، ومعتقداتهم، وتقاليدهم، وأعرافهم، مع أخذ النافع الذى ينقصهم من مكونات الحضارة الغربية! ويغفلون عمداً عمليتى أخذٍ انتقائيتين كبيرتين تمتا فى التاريخ الإسلامى الأوربى (فضلا عن تجارب أخرى فى أماكن أخرى) الأولى هى أخذ المسلمين من الحضارات الأخرى - من فارس والروم بصفة خاصة - دون أن يتنازلوا عن شىء من دينهم ولا مفاهيمهم الإسلامية، والثانية هى أخذ أوربا كل مقومات نهضتها فى العصور الوسطى من الحضارة الإسلامية مع رفض الأساس الذى انبثقت منه وهو الإسلام، بل محاربته حربا شعواء!

ولكن واحدا من المستشرقين - على الأقل - يحاول بطريقة ملتوية أن يلقى الضوء على جزء من هذه القضية، ذلك هو « مرو برجر» فى كتابه « العالم العربى اليوم » إذ يفسر احتفاظ المسلمين بدينهم وعقائدهم مع أخذهم من الحضارات الأخرى، بأنهم كانوا هم الغالبين بالنسبة للحضارة الفارسية، وأنهم بالنسبة لأوربا كانوا يأخذون من حضارة كانت قد أصبحت فى ذمة التاريخ (١)! ومن ثم فلا خطر من الأخذ من هنا ومن هناك، وإمكانية الاحتفاظ بالذاتية المتميزة قائمة، لأن المغلوب لا يستطيع تغيير شخصية الغالب، والحضارة الميتة لا تغير شخصية الأحياء !

ثم مضى يقول - مشاركة منه فى حركة التيئيس التى يقوم بها المستشرقون جميعا - إن هذا الأمر لم يعدله اليوم مجال، لأن المسلمين فى الوقت الحاضر منهزمون أمام الغرب، فلا يستطيعون الانتقاء من مقومات الحضارة الغربية، إنما عليهم أن يأخذوها كما هى، حزمة واحدة لا تتجزأ، ولا ينفصل بعضها عن بعض:

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران: ٧١].

إن هذا التعليل الذى يحاول به « مرو برجر» تفسير احتفاظ المسلمين بشخصيتهم المتميزة فى حركة الأخذ الأولى - والذى يبدو مقنعا للوهلة الأولى- يغفل ما حدث فى حركة الأخذ الأوربية من الإسلام، فلم تكن أوربا فى حركة الأخذ هذه غالبة للإسلام، بل منهزمة أمامه، ولم تكن الحضارة التى تنقل عنها ميتة، بل حية موارة.. ومع ذلك أخذت أوربا كل ما أخذت ورفضت الإسلام!

وبصرف النظر عن حماقة أوربا فى رفضها للإسلام، ومحاربته حربا شعواء، فالذى يهمنا هنا هو قضية الانتقاء، ومدى علاقتها بالغلبة والهزيمة! والتجربة الأوربية فى العصور الوسطى تنفى أى علاقة بينهما، وتؤكد أن المنهزم يستطيع

---

(١) يقصد الحضارة الهيلينية .

الانتقاء من الحضارة التى ينقل عنها، ولا تفرض عليه هزيمته أن يأخذها بقضّها وقضيضها كما يريد المستشرقون أن يفرضوا على المسلمين فى الوقت الحاضر، ليستعبدوهم لسلطان الغرب، وليخرجوهم من الإسلام!

الانتقاء ممكن فى كل لحظة، ومع كل حضارة من حضارات التاريخ، ولو كره المستشرقون!

فإذا أراد المسلمون اليوم إقامة مجتمع «حديث»، واتجهوا إلى الحضارة الغربية لينتقوا من مقوماتها ما يستعينون به لتحقيق هذا الهدف، فسيجدون فى تلك الحضارة أشياء كثيرة نافعة، وسيجدون فى الوقت ذاته انحرافات وانتكاسات ربما كانت هى الأبشع فى التاريخ. ومن البديهى الذى لا يحتاج إلى جدال أن عليهم أن ينتفعوا بالنافع فى هذه الحضارة، ويتجنبوا - كل التجنب - ما فيها من انحرافات وانتكاسات.

فأما التقدم العلمى والتقدم المادى والتقدم التكنولوجى، وعبقرية التنظيم، والمثابرة على بذل الجهد، وطول النفس.. فكلها أشياء نافعة، وقد كانت الأمة الإسلامية تملكها جميعا حين كانت مستمسكة حقا بإسلامها، عاملة به فى واقع الحياة، ثم فقدتها كلها أو جلها حين انحرفت عن حقيقة إسلامها وصار الدين عندها تقاليد مرعية أكثر منه حقيقة واقعة، وقوة دافعة.. فعلى الأمة اليوم أن تتتلمذ فيها على الغرب وتقتبس منه، إلى أن تستعيد حاستها الذاتية التى فقدتها فى فترة جمودها وانحرافها.

وأما نظرة الغرب إلى الله والكون، والإنسان وغاية وجوده وحدود طاقاته ومعيار إنجازاته.. فهى نظرة جاهلية لا يجوز لمسلم أن يتخذها، أو يتخذ ما يترتب عليها من فلسفات وسلوكيات، لأنها تصادم عقيدته مصادمة مباشرة، فضلا عما تحتويه فى طياتها من شر..

فالإلحاد الصريح أو المبطن، والطبيعة الخالقة التى ابتدعها دارون وقال عنها إنها تخلق كل شىء ولا حد لقدرتها على الخلق (!) والتفسير المادى

للتاريخ [1] ، والتفسير الجنسى للسلوك البشرى [2] ، والتفسير الجمعى للحياة البشرية [3] ، وإطلاق العنان لحيوانية الإنسان بدلا من رفعه إلى مستوى الإنسان، وقانون الغاب الذى يحكم السياسة الدولية. . هذه وأمثالها كلها انتكاسات تمارسها هذه الحضارة الجاهلية، التى ما أنزل الله بها من سلطان، والتى تستمد مفاهيمها من الشيطان. . فهل يمكن أن يكون موقف المسلم منها هو مجرد القبول، فضلا عن الإقبال؟!

وأما أسطورة عدم إمكان الفصل بين مقوّمات هذه الحضارة بعضها وبعض، وضرورة أخذها حزمة واحدة، وكتلة موحدة. . فهى مجرد أسطورة، من بين عشرات الأساطير التى تعيش فى عصْر «العلم» و «العقلانية» و «التنوير» !!

* * *

ومن وسائل الكيد التى يستخدمها المستشرقون كذلك تبنى الحركات الإسلامية الزائفة أو المنحرفة، ومهاجمة كل حركة تهدف إلى بعث إسلامى أصيل.

جاء فى ص (٥٢) من كتاب «الغارة على العالم الإسلامى» :

«ومؤتمر المبشرين الذى عقد فى القاهرة (سنة ١٩٠٦) لم يفته البحث فى حركة الإصلاح (!) التى دخلت فى مسلمى الهند، والإشارة إلى السير «سيد أحمد خان» زعيم تلك النهضة (!) وما تبذله مدرسته الإسلامية فى «عليكره» ومؤتمر التربية الإسلامية. ولقد خطب القسيس ويتبرتشت فى مؤتمر القاهرة بموضوع «الإسلام الجديد» (!) فذكر أن تعاليم أوربا تقرب المسلمين من النصرانية».

---

(١) المسئول الأول عنه هو ماركس وإنجلز ولكنه انتشر فى الفكر الغربى كله حتى ما كان منه «ليبراليا».

(٢) المسئول الأول عنه هو فرويد، ولكنه أصبح واقعا معاشا فى الغرب كله.

(٣) مبتدعه هو دوركايم ، ولكنه يدرس فى جميع أقسام الاجتماع فى العالم، حتى العالم الإسلامى!!

وجاء قبل ذلك فى ص (٤٦) من الكتاب : « تبشير المسلمين يجب أن يكون بواسطة رسول من أنفسهم ومن بين صفوفهم **لأن الشجرة يجب أن يقطعها أحد أعضائها** » .

والمستشرقون - الذين هم الامتداد « العلمى ! » للمنصرين - يسيرون على نفس المنوال فى تبنّى الحركات الزائفة والمنحرفة لعلها تقطع الشجرة التى يغيظهم وجودها، ورسوخها فى الأرض، وتحديها لكل جهد يبذلونه لوقف امتدادها وانتشار فروعها.

ومن هنا تجد عناية كبيرة فى كتب المستشرقين بالتصوف [١] ، إلى حد أن يتخصص له مستشرقون مثل نيكلسون وأوليرى، وينفقوا معظم جهدهم فى هذا السبيل، كما تجد عناية خاصة بحركات الفرق الباطنية وتراثهم وآدابهم، وأدب الخوارج، والقاديانية والبابية والبهائية .. إلخ.

أما حركات البعث الإسلامى الحقيقية .. فياويلها من المستشرقين!

هجوم بكل وسائل الهجوم، وتشويه بكل وسائل التشويه، لعلهم ينفّرون منها « المثقفين » أو يقتلونها بالدعاية والتشويه.

* * *

وكما يتفق المستنشرقون علي مهاجمة الحركات الإسلامية الحقيقية، وإضفاء المديح على الحركات المنحرفة عن خط الإسلام الأصيل، فكذلك يصنعون مع الأشخاص العاملين فى الحقل الإسلامى.

فأما الأشخاص المنحرفون فيكال لهم المديح ..

وأما الأصلاء فهم موضع النقد والتجريح ..

ومن يتتبع كتب المستشرقين - الحديثة بصفة خاصة، التى تعنى بتسْجيل الاتجاهات الإسلامية المعاصرة، والإنتاج الفكرى الإسلامى الحديث - يجد

---

(١) تحدثنا عن الصوفية فى كتاب « واقعنا المعاصر » ومدى انحرافها عن منهج الإسلام الصحيح، والفرق بينها وبين « الزهد » الذى هو منهج إسلامى أصيل.

القاعدة سارية **بلا استثناء**. كل شخص قدم «جهدا» منحرفا يؤدى - بأية صورة من الصور - إلى تشويه حقيقة من حقائق الإسلام، أو تمييع مفهومه فى نفوس المسلمين، أو انساق وراء أضاليل المستشرقين فرددها فى كتاباته، أو تورط - ولو بحسن نية، نتيجة إحراج المستشرقين الدائم للمسلمين فى القضايا التى يثيرونها - فأدلى بكلام يوافق هدفا من أهدافهم، فهو موضع الحفاوة والتكريم من المستشرقين، يشيدون به فى كتاباتهم، ويبرزونه، ويستشهدون به استشهاد المؤيد الموافق المعجب بما يقول.

وأيما شخص من الجانب الآخر قدم المفاهيم الصحيحة للإسلام فهو موضع الهجوم: رجعى! مفكر «تقليدى»! متزمت! متعصب! ضيق الأفق! عاجز عن الإحاطة بحقيقة الأوضاع! عاجز عن الإحاطة بالتقدم البشرى.. إلخ!

* * *

تلك - تقريباً - هى الأمور التى يتفق عليها المستشرقون، ويرددونها فى كتاباتهم، ويلحون فى ترديدها حتى تحدث الأثر المطلوب.

وهناك بعد ذلك «تخصصات» لبعض المستشرقين، إلى جانب الجهد المشترك بينهم جميعا. ولكن هذه التخصصات لا تخرج فى النهاية عن الخطوط الرئيسية للكيد الصليبى الصهيونى الموجه ضد الإسلام.

وهذا كله فى «البند الأول» من المخطط الصليبى الصهيونى تجاه الإسلام.

ولكن المستشرقين - بوصفهم جهاز الاستخبارات الثقافى للصليبية الصهيونية - يؤدون - كما أشرنا فى مقدمة هذا الفصل - مهمة أخرى لا تقل خطرا بالنسبة للمخطط المرسوم.

إنهم يقومون بمهمة الدراسة التفصيلية الدقيقة - العميقة - لكل حركة إسلامية، وكل اتجاه مستقيم أو منحرف يحدث فى العالم الإسلامى، ليبلغوا الدول صاحبة الشأن بمجريات الأمور فى الساحة الإسلامية حتى تعد العدة

لمواجهتها بما ينبغى من وسائل الحرب والإفساد والتخريب والتدمير، كما يقومون بالنصيحة إلى جانب الدراسة، فيشيرون على دولهم بالتخطيط المطلوب!

يقول جرونيباوم فى كتابه «الإسلام المعاصر Modern Islam »: «إن المسلمين استغرقوا فترة من الوقت فى الاتجاه نحو الغرب (Westernization) وكان هذا هو الأمر الطبيعى بالنسبة لهم فى فترة من الفترات، ليحصلوا على القوة والتقدم. ولكن هذه الفترة انتهت، وبدأ المسلمون يبحثون عن ذاتيتهم المفقودة، **ولن يجدوا هذه الذاتية إلا فى الإسلام..»**.

وهو كلام له خبيىء!

معناه تنبيه الدول صاحبة الشأن إلى أن هناك «عودة» إلى الإسلام فى البلاد الإسلامية، بعد الجهد الذى بذل خلال قرنين من الزمان لصرف المسلمين عن الإسلام. فعلى هذه الدول إذن أن تعد عدتها لمواجهة هذا الأمر! (وإنها لتعدها بالفعل!) .

ويقول المستشرق الهولندى «نيوفنهويجى» فى مقال بعنوان «أثر القرآن فى صياغة الحياة الإسلامية: The Quran as a Factor in the Islamic Way of Life»، منشور فى الدورية الاستشراقية السنوية المسماة: «الإسلام Der Islam» عدد سنة ١٩٦٣، بعد كلام طويل يستغرق ٤٢ صفحة عن القرآن، وعدم تحريفه، وغير ذلك من القضايا القرآنية: «إنه لا فائدة ترجى من محاولة تغيير أفكار المسلمين عن طريق تغيير فهمهم لحقائق القرآن وحقائق الإسلام! فهى أرسخ من أن تقبل التغيير! **وإنما يكون التغيير عن طريق إدخال المفاهيم الأوربية فى حياة المسلمين كواقع لا علاقة له بالإسلام ولا بالدين !!»**.

أما مرو برجر فى كتابه «العالم العربى اليوم» فهو يدرس بالتفصيل، ويرسم بالتفصيل!

والآن، وقد شرحنا «القضايا العامة» فى كتب المستشرقين، فلعل من المناسب أن نعرض نماذج من كتاباتهم بشىء من التفصيل.

نماذج من كتب المستشرقين

نستعرض فى هذا الفصل مجموعة مختارة من كتب المستشرقين وأبحاثهم، اخترناها لتكون نماذج لمجموعة مختلفة من الاتجاهات والأساليب، وإن كانت تلتقى فى النهاية عند غاية واحدة، أو غايات متقاربة، هى التى تحدثنا عنها من قبل فى فصل « الأهداف والوسائل » .

وقد قسمنا هذه النماذج – بحسب طريقتها فى أداء مهمتها – إلى مجموعات مختلفة .

فالمجموعة الأولىٰ – أو المدرسة الأولى إن شئت تقسيمها إلى مدارس – يمكن أن نطلق عليها اسم « المهاجمين » وهى التى تغلب عليها صفة الهجوم المباشر، وكيل التهم جزافا بغير ذكر دليل فى كثير من الأحيان، أو بأدلة غاية فى التهافت فى بقية الأحيان ! وقد اخترنا لها اثنين من المستشرقين هما « مرجوليوث » و« فلهوزن » على أنهما مجرد نماذج . وليس على سبيل الحصر، فغيرهما على هذا النمط كثيرون .

والمجموعة الثانية – أو المدرسة الثانية – يمكن أن نطلق عليها اسم « المدرسة الحديثة » وهى التى تمزج المديح بالغمز واللمز، أو تدس السم فى العسل بالتعبير المشهور . وقد نستطيع مطمئنين أن نقول إن مؤسسها – فى اللغة الانجليزية على الأقل – هو المستشرق الانجليزى « جب » الذى كان يعيش إلى سنوات قريبة، وقد اخترنا لها ثلاثة من المستشرقين : « جب » نفسه واثنين من تلاميذه هما « فون جرونيباوم » و « ولفرد كانتول سميث » .

وثمت مدرسة ثالثة ظاهرها المديح الخالص الذى لا لمز فيه ولا تجريح، ولكنها – فى النهاية – لا تخرج عن الخط العام للمستشرقين، وقد اخترنا لها « واشنطن إرفنج » المستشرق الأمريكى الذى عاش فى القرن الماضى .

أما المجموعة الأخيرة من النماذج فهى لا تكوّن مدرسة بالمعنى السابق، لكن

يمكن أن نطلق عليها أنها « دراسات موجهة » . وكل كتب المستشرقين موجهة بلا شك! موجهة ضد الإسلام! ولكننا نعنى بقولنا « دراسات موجهة » أنها تحوى دراسات « للتعامل » مع الإسلام والمسلمين، موجهة إما إلى المسلمين أنفسهم وإما للجهات التى يهمها الأمر كدراسة « مرو برجر » عن « العالم العربى اليوم » ودراسة « هربر دكمجيان » عن « الحركات الأصولية فى العالم الإسلامى » .

ولسنا نستعرض هذه النماذج أساسا لنرد على ما يثيره المستشرقون من دعاوى وشبهات حول الإسلام، وإن كان هذا واردا فى نقاشنا لبعض النقاط التى تحتويها كتبهم. ولكنا نستعرضها لهدفين أساسيين:

الأول: بيان الوسائل الملتوية التى يلجأ إليها أولئك المستشرقون لتشويه حقائق الإسلام، لإبراز حقيقة معينة، تكون جوابا موضوعيا على السؤال الذى يتردد فى نفوس بعض الدارسين حول النزاهة العلمية لأولئك المستشرقين، وهل هم حقًا « علماء » يدرسون من أجل الحق، أم « أعداء » يدرسون من أجل هدف آخـــر؟

والثانى: بيان مدى التأثر المسموم الذى وقع فى نفوس « المثقفين » من كتابات أولئك المستشرقين، وكيف أصبحت كتابات أولئك « المثقفين » ومواقفهم من الإسلام صورة مترجمة من أقوال المستشرقين، يرددونها بوعى أو بغير وعى، دون أن يكلفوا أنفســهم - من أجل « العلم » على الأقل إن لم يكن من أجل دينهم وعقيدتهم - بمراجعة حقائق الإسلام من مصادرها الأصلية، والتثبت من صحة ما يرددون من كلام المستشرقين، والله يقول: ﴿ **وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولًا** ﴾ [الإسراء: ٣٦]

فأما بالنسبة للهدف الأول فسيكون عرضنا بالقدر المناسب من التوضيح، الذى يتناول الخطوط الرئيسية فحسب، حتى لا يتضخم الفصل، ومن ثم يتضخم الكتاب!

وأما بالنسبة للهدف الثانى، فسيتعرف القارئ من تلقاء نفسه فى أثناء

عرض النماذج على الأصول « الخفية » للكلام التى يردده « المثقفون » حول الإسلام! وهذا وحده يكفى. وإن كنا قد نشير أحيانا إلى قضايا معينة وردت فى كتابات أولئك « المثقفين » نقلا عن المستشرقين، حين تكون ذات دلالة خاصة، كقضية « الشعر الجاهلى » التى أثارها الدكتور طه حسين.

فإذا خلصنا من عرض هذه النماذج بهاتين النتيجتين، فلا علينا بعد ذلك إذا رددنا على بعض الشبهات والقضايا، أو سردناها مجرد سرد بغير تعليق!

وحين نتحدث عن « المثقفين » ونضع الكلمة بين أقواس، فإننا نعنى طائفة معينة منهم، وهم الذين تشربت عقولهم وأرواحهم الغزو الفكرى، فصاروا نسخا مشوهة من سادتهم، ولا نقصد كل المثقفين بطبيعة الحال، فإن فى كثير منهم خيرا كثيرا بإذن الله، ولقد أنتجت الصحوة الإسلامية أجيالا جديدة من المثقفين يستمدون ثقافتهم ابتداء من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ثم يطلعون على ما شاءوا من فكر الغرب وهم معتزون بدينهم، متحصنون به من كيد أعدائهم وسمومهم. إنما وضعنا تلك الطائفة المعينة بين الأقواس لأنهم – فى الوهم الذى يعيشون فيه – يحسبون أنهم هم المثقفون بحق، وأنهم – وحدهم – الجديرون بأن يوصفوا بأنهم مثقفون!

* * *

مرجوليوث

Margoliouth

مرجوليوث مستشرق بريطانى، ولد فى لندن سنة ١٨٥٨م، وظل حيًّا حتى سنة ١٩٤٠م. تخرج فى قسم اللغات الشرقية بجامعة أكسفورد، وأتقن العربية، وعمل أستاذا بجامعة اكسفورد منذ عام ١٨٨٩م، ونشر مجموعة من الكتب والأبحاث والدراسات عن الإسلام والآداب الشرقية، وانتخب عضوا بالمجمع العربى العلمى بدمشق، والمجمع اللغوى البريطانى، والجمعية الشرقية الألمانية وغيرها.

وقد اخترنا له هنا كتابه الشهير « الديانة المحمدية Mohammedanism » بالإضافة إلى الفصل المكتوب عن الإسلام فى الموسوعة التاريخية المسماة « تاريخ العالم Universal History of the World » بعنوان « الإسلام وتعاليمه ».

* * *

فأما كتاب « Mohammedanism » فيقع فى ٢٥١ صفحة [١] وينقسم إلى سبعة فصول: الفصل الأول من صفحة (٧) إلى صفحة (٤١) بعنوان « العالم الإسلامى » والفصل الثانى من ص (٤٢ إلى ص ٧٤) بعنوان « محمد والقرآن » والفصل الثالث من ص (٧٥ إلى ص ١١٤) بعنوان « الدولة الإسلامية » والفصل الرابع من ص (١١٥) إلى ص ١٥٣) بعنوان « النظرية والتطبيق » والفصل الخامس من ص (١٥٤ إلى ص ١٩٢) بعنوان « الفرق الإسلامية » والفصل السادس من (ص ١٩٣ إلى ص ٢٢٦) بعنوان « الدعاة والأولياء » والطرق الصوفية » والفصل الأخير من ص (٢٢٧ إلى ص ٢٥١) بعنوان « الفن والأدب والعلم الإسلامى ».

وقد أوردنا عدد صفحات كل فصل من فصول الكتاب لهدف معين. فنظره بسيطة إلى أحجام هذه الفصول وعناوينها، تعطينا صورة واضحة عن « اهتمامات » هذا المؤلف، ومدى نزاهة هذه الاهتمامات!

---

(١) طبعة « Home University Library » غير مبين عليها تاريخ الطبع.

إن الكتاب عنوانه «الديانه المحمدية Mohammedanism» وبصرف النظر عن الخبث المقصود في كتابات هذا المستشرق وغيره، من نسبة هذا الدين إلى محمد ﷺ، كأنه من صنعه هو، وليس وحيا منزلا من عند الله . . .

بصرف النظر عن ذلك، فالمفروض في الكتاب أنه مكتوب للتعريف بهذا الدين. سواء كان المقصود بالتعريف – كما هو في ظاهر الأمر – القارئ الغربي الذي يحب أن يتعرف على الإسلام، أو أي قارئ على الإطلاق [1] .. فالمفروض في الكاتب أن يعطيه صورة متناسقة لكل جوانب هذا الدين، وأن يوزع الاهتمامات بالعدل بين هذه الجوانب – ما دام ليس مغرضا! – بحيث يخرج القارئ في النهاية بتصور سليم عن طبيعة الموضوع.

ولا يمنع هذا بطبيعة الحال من أن يتخصص كاتب في جانب معين من جوانب الإسلام، أو أن يخصِّص أحد الكتاب كتابا كاملا أو حتى جملة كتب للحديث عن نقطة تفصيلية أثارت اهتمامه بصفة خاصة .. فهو حر في ذلك لا يملك أحد تقييده .. ولكن حين يتصدى الكاتب لإعطاء صورة شاملة للإسلام، وهذا هو مفهوم عنوان الكتاب، فهنا ينبغي عليه – ما دام ليس مغرضا! – أن ينسق في طريقة العرض، وفي توزيع الأضواء، بحيث تتكون عند القارئ صورة متكاملة ومتناسقة في ذات الوقت عن جوانب الموضوع.

فإذا أطال المؤلف إطالة ملحوظة في جانب معين، واختصر اختصارا ملحوظا في جانب آخر، فهنا يتبدى لنا على الفور أن هذه «اهتمامات خاصة» للمؤلف، وليست من مستلزمات البحث العلمي الأصيل.

ومرة أخرى نقول إن الكاتب – أي كاتب – حر فيما يكتب! وليس لنا أن نلزمه حتى بمستلزمات البحث العلمي الأصيل! ولكن من حقنا عندئذ أن ندرس

---

(١) الدراسة موجهة للدارسين المسلمين في الحقيقة «ليتتلمذوا» على هذا الفكر المسموم، ثم يعيدوا حكايته لبقية المسلمين بلغاتهم الأصلية!

هذه الاهتمامات دراسة خاصة، لأنها تكشف - ولا شك - عن « ميل » معين عند صاحب هذه الاهتمامات.

فأول ما يَبْدَهُنا فى النظرة السريعة إلى فصول الكتاب وأحجامها، وقبل أن نناقشها مناقشة موضوعية لنرى إن كانت تحتوى على حقائق علمية أو مغالطات علمية، أن الكاتب قد أطال إطالة ملحوظة فى الحديث عن « الدول الإسلامية » وعن « الفرق الإسلامية » بقدر ما اختصر اختصارا ملحوظا فى التعريف المبدئى بحقائق الإسلام، وفى الحديث الختامى عن الحركة العلمية والحضارية الإسلامية!!.

ولا شك أن ذلك له دلالته!

فعوامل « التجميع » فى حياة المسلمين الواقعية هى مفهومهم العام المشترك لحقائق الإسلام، وممارستهم الواقعية لهذا الدين - بدرجات متفاوته بطبيعة الحال - وتاريخهم المشترك الذى انبثقت من مجموعه حركتهم العلمية والحضارية...

وهذه بالذات هى التى وقع فيها الاختصار الشديد الذى يصل أحيانا إلى درجة الإخلال...

وعوامل « التفريق » فى حياة المسلمين الواقعية هى تلك النزاعات السياسية بين الدول الإسلامية، وهى تلك الفرق الإسلامية الخارجة على إجماع المسلمين، أو على إجماع أهل السنة بتعبير أدق، وهذه بالذات هى التى وقع فيها التطويل الشديد، الذى يصل أحيانا إلى درجة الإملال.

فأى دلالة لذلك الاختصار حيث ينبغى الشرح والتبيين، ولذلك التطويل حيث يكفى الإلمام؟!

إن أولى الدلالات التى تعكس نفسية المؤلف - أنه « لا يحب » الحديث عن عوامل التجميع، وأنه « يحب » الحديث عن عوامل التفريق! وهذا فى ذاته مخالف « للنزاهة العلمية » التى تقتضى التجرد من الهوى، ودراسة جميع الجوانب وجميع العوامل بذات الدرجة من البيان والتوضيح، أيا كان الموقف « الذاتى » من هذا العامل أو ذاك!

والدلالة الثانية أنه يريد أن يوحى لقارئه أن الإسلام لم يجمّع وإنما قام بالتفريق!

وسواء كان هذا القارئ هو القارئ الغربى الذى يحب التعرف على الإسلام، أو أى قارى على الإطلاق [١] فهذا الإيحاء بالنسبة إليه هو إيحاء موجه لغاية معينة، بعيدة عن الحقيقة العلمية والحقيقة التاريخية.

فعوامل الفرقة بين المسلمين حقيقة واقعة ولا شك، ولكنها لم تستطع أبداً على مدار التاريخ الإسلامى [بصرف النظر عن الفترة الأخيرة، وسنعود إليها بالحديث] أن تلغى انتماء المسلمين لشئ واحد مشترك بينهم جميعا هو «الإسلام».

فأما النزاعات السياسية بين «الدول الإسلامية» [بصرف النظر مؤقتا عن الفترة الأخيرة] فقد كانت شيئا يعنى الحكام أكثر مما يعنى المحكومين. وكان المحكومون فى الشرق والغرب – وهم المسلمون – يحسون دائما أنهم أمة واحدة متصلة مترابطة – سواء اصطلح حكامهم أو تخاصموا – وأن الرابط الذى يربط بينهم هو انتماؤهم للإسلام قبل انتمائهم إلى جنس أولون أو لغة أو وطن؛ فضلا عن انتمائهم لحكومة معينة! وكان أى مسافر فى أرض الإسلام يحس أنه فى «وطنه» أينما حل، منْ الأندلس إلى حدود الصين! لا يمنعه من هذا الإحساس اختلاف الحكومات، أو غيره من الخلافات.

وأما «الفرق الإسلامية»، ففيما عدا الخلاف الرئيسى بين الشيعة والسنة، فإن الفرق الأخرى كانت تثير الخلاف على المستوى الثقافى والعقلى والفكرى أكثر مما تثيره على مستوى الحياة الواقعة التى تعيشها جماهير المسلمين، ومن أجل ذلك لم يكن لها وقع حقيقى فى التيار العام لحياة المسلمين.

لذلك فإن هذا الاهتمام البالغ بعوامل الفرقة دون عوامل التجميع، هو اهتمام غير علمى! يكشف عن هوى صاحبه و«تمنياته» بالنسبة للإسلام والمسلمين.

---

(١) انظر الهامشة السابقة.

وثمة إيحاء آخر يأخذه القارئ من هذا العرض الذى أشرنا إليه من قبل، هو أن الإسلام ليس « واقعا » وإنما هو « تاريخ »! فبينما يعالج الكتاب الغربيون « الثقافة الهيلينية » مثلا على أنها « واقع » مع أنها « تاريخ » مضى عليه أكثر من ألفى عام، يريدون أن يقولوا إن « القيم » و « المفاهيم » و« المبادئ » و« التصورات » التى احتوتها الثقافة الهيلينية ليست شيئا من تراث التاريخ، وإنما هى تستحق أن تعيش فى حياة البشر على الدوام...

بينما يصنع أولئك الكتاب ذلك بالنسبة لتلك الثقافة، يأتى مرجوليوث فيتحدث عن الإسلام على أنه تاريخ! وذلك بالتوسع الشديد [بالنسبة لحجم الكتاب] فى سرد وقائع التاريخ - بصرف النظر عن نزاهة هذا السرد وصدقه العلمى - والاختصار الشديد فى الحديث عن القيم والمفاهيم والمبادئ والتصورات التى يحتويها الإسلام!

والنزاهة « العلمية » كانت تقتضى أن يعالج الإسلام - على الأقل - بمثل ما تعالج به الثقافة الهيلينية فى كتابات المؤلفين الغربيين، خاصة والمؤلف نفسه لا ينكر وجود تلك القيم والمفاهيم والمبادئ والتصورات فى الإسلام!

فإذا قال قائل إنه لا يُعْقَل أن يحتفى بحقائق الإسلام - وهو ليس مسلما - كما يحتفل بالثقافة الهيلينية التى يقوم عليها جانب من حضارته التى يعيش فيها ويعتز بها ... فهذا القول فى ذاته حقيقة ... ولكنها حقيقة أبعد ما تكون عن « النزاهة العلمية » وأقرب ما تكون إلى أهواء البشر وتعصباتهم ... فهل يليق بالسادة « المثقفين » من المسلمين أن يأخذوا ثقافتهم الإسلامية عن أهواء الأعداء وتعصباتهم، ويتركوا المنبع الأصيل؟!

على أن مرجوليوث لا يترك هذا الإيحاء مجرد إيحاء، إنما يبرزه إبرازا واضحا فى فصل « النظرية والتطبيق » حيث يقول إن التطبيق الواقعى فى حياة المسلمين قد افترق - على مدى التاريخ - عن « النظريات » التى يقدمها الإسلام ... ومن ثم يصبح الإسلام الحقيقى « تاريخا » حدث ذات مرة لفترة قصيرة من الزمن،

وأخلى مكانه لهذا التطبيق المبتعد عن الإسلام. ومن ثم كذلك تصبح القيم والمفاهيم والمبادئ والتصورات التى يحتويها الإسلام تاريخا يروى وليست واقعا يعاش!

وهذه القضية - كما أسلفنا فى الفصل الماضى - من أكثر القضايا التى يستخدمها المستشرقون لفتنة المسلمين عن هذا الدين.

وبصرف النظر عن التعصب الأوربى الذى أشرنا إليه فى الفقرة السابقة، والذى يجعل الكتاب الغربيين يتحدثون عن الثقافة الهيلينية على أنها واقع، بينما هى فى الحقيقة كانت نظرية لم تطبق فى واقع الأرض، ولم تعش إلا فى «أذهان» المثقفين فى أوربا، بينما القيم الإسلامية قيم واقعية طبقت تطبيقا واقعيا فذا فى حياة المسلمين - جمهور المسلمين - فترة من الزمن، ثم ظلت تطبق فى «واقع» مجموعة من الأفراد - على الأقل - على مدار الزمن كله.

بصرف النظر عن هذا التعصب الأوربى العام، الذى يجافى النزاهة العلمية المفروضة فى «العلماء!» ... فإن هناك مغالطات تاريخية ضخمة فى هذا الشأن، لا يتسع المقام للحديث التفصيلى عنها هنا [1]، ولكنا نكتفى هنا بإبراز سريع لبعض حقائق التاريخ.

الحقيقة الأولى أن الإسلام ليس دين الملوك ولا الحكام ولا المثقفين من المسلمين وحدهم، وإنما هو دين كل الناس. وميزان الإسلام الذى يقيس به قيمة «الإنسان» هى إسلامه! وليس مركزه الاجتماعى ولا السياسى ولا الاقتصادى ولا الفكرى! وإذا كان التفسير الجاهلى للتاريخ [2] أو أى تفسير آخر يجعل «التاريخ» هو تاريخ الطبقة الحاكمة، فإن الإسلام يجعل التاريخ هو تاريخ الناس ... كل الناس! فقط يرتفع الناس فى «المسئولية» كلما ارتفع مركزهم الاجتماعى أو السياسى أو الاقتصادى أو الفكرى، ويصبح محتما

---

(١) تحدثنا عنها فى كتاب مستقل عنوانه «كيف نكتب التاريخ الإسلامى».
(٢) التفسير المادى للتاريخ.

عليهم أن يكون تطبيقهم الواقعى للإسلام أعلى من مستوى الفرد العادى، ومن ثم يصبح مقياسهم الذى يقاسون به فى الإسلام هو مدى تمسكهم بتعاليم الإسلام وروحه، لا مدى استعلائهم بالسلطان!

فإذا طبقنا هذا المقياس الإسلامى نجد لأول وهلة أن الإسلام لم ينته من حياة الناس فى تلك الفترة القصيرة البالغة القصر التى توحى بها - أو تنص عليها - كتب المستشرقين. فإذا كان الحكام قد بعدوا - جزئيا وتدريجيا - عن تعاليم الإسلام وروحه، فقد بقيت الكتلة العظمى من المسلمين قريبة من الإسلام فى سلوكها الواقعى وحياتها الواقعة، وهذا لا شك هو الأثر الحقيقى للإسلام فى واقع الأرض.

الحقيقة الثانية أنه على الرغم من تلك الانحرافات التى هى حقيقة واقعة ولا شك - ومؤسفة ولا شك - فقد بقى من معانى الإسلام فى حياة الناس - لأمد طويل - ما يقطع بأن هذا الدين لم ينته بعد تلك الفترة القصيرة كما يزعم المستشرقون بالإيحاء أو التصريح.

بقى أولا تصورهم السليم لحقيقة الألوهية - فى صورة التوحيد - بينما البشرية كلها حولهم فى ضلال.

وبقى ثانيا شعورهم بأنهم أمة واحدة. وهذا معنى لم يتمثل قط فى أى تجمع آخر فى تاريخ البشرية [وليس هنا مجال التفصيلات] (1).

وبقى ثالثا التكافل الاجتماعى بين المسلمين، سواء من جانب الدولة أو من جانب الأفراد بعضهم وبعض حسبما تقضى تعاليم الإسلام وروحه. وذلك معنى لم تفئ إليه البشرية إلا فى القرن التاسع عشر والعشرين، سواء من ناحية مسئولية الدولة عن « رعاياها » أو مسئولية الأفراد بعضهم عن بعض.

وبقى رابعا وفاء تلك الأمة بمواثيقها بصورة لم تعهدها البشرية فى تاريخها كله حتى هذه اللحظة فى القرن العشرين.

---

(1) تحدثنا عنها فى كتاب : « كيف نكتب التاريخ الإسلامى » السابق ذكره.

وبقى خامسا وسادسا تلك الحركة العلمية الضخمة وتلك الحركة الحضارية الضخمة المتفردتان فى التاريخ لا من حيث منجزاتهما فحسب، إنما من حيث كونهما قائمتين بوحى من العقيدة، ومنبثقتين عنها، لا فى صراع معها ولا خصام، كذلك الصراع القائم اليوم فى جاهلية القرن العشرين، بين العلم والدين، وبين التقدم الحضارى والدين [1].

والحقيقة الثالثة أن التاريخ الإسلامى ليس تاريخ انحدار مستمر كما يزعم المستشرقون إذ يغفلون عمدا حركات التصحيح وأثرها فى واقع المسلمين، كما يغفلون حركات البعث الأخيرة فى القرن الماضى وهذا القرن، وهى حركات بالغة الدلالة على الحيوية الكامنة فى هذا الدين.

ونعود - قبل مناقشة بعض المغالطات العلمية فى كتاب مرجوليوث - إلى النقطة التى أشرنا إليها من قبل وأرجأنا الحديث عنها، وهى غلبة عوامل الفرقة فى الفترة الأخيرة على عوامل التجميع فى حياة المسلمين.

حقيقة إن هذه الفرقة قد حدثت ذاتيا داخل الأمة الإسلامية نتيجة عوامل داخلية بحتة، ناشئة كلها عن بعد المسلمين التدريجى عن حقيقة الإسلام، والمسلمون مسئولون مسئولية كاملة عنها لا يُعتذر لهم بعذر!

ولكن حقيقة كذلك أن النفوذ الغربى - الصليبى الصهيونى - قد عمد عمداً إلى توسيع الشقة وزيادة الفرقة لتيسير ابتلاع العالم الإسلامى وهو مِزَقٌ متناثرة، وإخضاعه للنفوذ الصليبى الصهيونى بما تحدثت عنه صراحة أقوال الغربيين أنفسهم فى كتبهم ومقالاتهم وتصريحاتهم السياسية [وخذ مثلا على ذلك كتاب الغارة على العالم الإسلامى تأليف شاتلييه الفرنسى].

وحقيقة أخرى أن العالم الإسلامى لم يستسلم لتلك الفرقة، المنافية لتعاليمه وروحه، ولواقع تاريخه أكثر من ألف عام، فقامت حركات

---

(١) انظر: « جاهلية القرن العشرين ».

البعث الإسلامى تهدف – من بين ما تهدف – إلى إعادة تجميع المسلمين . . . وهى هى الحركات التى ضربها الاستعمار الصليبى الصهيونى بضراوة . . . وما يزال .

فاتخاذ الفرقة الحالية – التى تقف الصليبية الصهيونية فى وجه أية محاولة لإزالتها – دليلا على أن هذا هو « الواقع » الذى انتهى إليه المسلمون، هو مغالطة تاريخية تضاف إلى جملة المغالطات!

وأخيرا – قبل الدخول فى مناقشة بعض المغالطات الجزئية الواردة فى ثنايا الكتاب – نشير إلى تلك العبارة الصريحة الصارخة التى جاءت فى صفحة (٢٢٤) من الكتاب حيث يقول، بعد الحديث عن فشل المبشرين فى تنصير المسلمين، وعن عدم إمكانية إحلال مذهب آخر أو عقيدة أخرى فى المنطقة الإسلامية غير الإسلام:

« فالمتوقع إذن ليس هو قمع الإسلام ولا إزالته من الوجود، ولكن تطويره بما يناسب الأحوال التى يفرضها العلم الأوربى على العالم بأجمعه، وذلك بقدر ما تسمح الأحوال المناخية فى العالم الإسلامى من هذا التطوير »!!!

إنها عبارة تكشف عن الـ[illegible] [illegible]ليبى الصهيونى كله!

إن المطلوب أولا وبصراحة هو القضاء على الإسلام!

ولما كان ذلك المطلب مستحيل التحقيق، فيكتفى على الأقل بتبديل أفكار المسلمين، وإبعادها عن الإسلام، تماما كما قال القس زويمر من قبل.

وبعد ذلك كله يكون للمستشرقين من المسلمين « تلاميذ » ويكون لهذا الكيد كله مستجيبون من « المسلمين » ينفذون ما يطلبه أو ما يتمناه أولئك الحاقدون!!

* * *

يتحدث مرجوليوث فى صفحة (١٠٥) من الكتاب عن التشريع الإسلامى – وذلك بعد أن أنفق الصفحات (١٠١ – ١٠٤) فى الحديث عن بربرية

العقوبات الإسلامية [1]! – فيقول «إن النظرية الأولى للأسلام – أى التى وجدت فى بادى الأمر – هى أن الدين الجديد لا ينبغى أن يتدخل فيما كان يجرى العمل به فى الجزيرة العربية قبل الإسلام إلا فى أضيق الحدود (!!) وربما كان هذا الاتجاه قمينا أن يتبع بالفعل لو أن الإسلام بقى محصورا فى الجزيرة العربية وهو الأمر الذى يحتمل أن يكون النبى ﷺ قد اعتزمه فى وقت من الأوقات (!!) ولكن الإسلام انتشر حتى شمل أمما وبلادا تختلف اختلافا تاما عن الجزيرة العربية فى عاداتها وتقاليدها، بحيث كان تنظيم مثل هذا المجتمع يصبح مشكلة ضخمة لو لم يشمله التوحيد الكامل لكل شئونه. ومن هنا برز بدلا من النظرية الأولى، القول بأن «الإسلام يجبّ ما قبله» وأن شرح مقاصد القرآن ينبغى ألا يستمد من فعل الجماعة بل من فعل النبى ﷺ !!!

أربع قضايا – أو أربع مغالطات علمية وتاريخية هائلة – تأتى فى هذه السطور القليلة . . . كلها بغير دليل على الإطلاق!

القضية الأولى أن الإسلام قرر فى بادئ الأمر ألا يتدخل فى واقع الناس قبل الإسلام إلا فى أضيق الحدود!

وفيم إذن جاء الإسلام، وفيم إذن هذه الخصومة اللدود بين العرب وبين الإسلام فى بدء الدعوة؟! أمن أجل التدخل فى أضيق نطاق كانت هذه الثورة العارمة من العرب ضد الإسلام؟! وماذا بقى من عرف الجزيرة قبل الإسلام لم يغيره الإسلام إلا ما كان من مكارم الأخلاق التى يدعو إليها كل دين سماوى، وحتى هذه فقد غير الإسلام القاعدة التى تقوم عليها، وأقامها على قاعدة جديدة تماما، مستمدة من مفاهيم الإسلام وتصوراته لا من مفاهيم الجاهلية وتصوراتها. «فالكرم» كان من مكارم الأخلاق فى الجاهلية، ولكنه كان يقوم على قاعدة جاهلية هى أن ينفق الإنسان لكى «تتحدث بذكره الركبان» أو ينفق خوفا من التعبير بالبخل، فبدّل الإسلام قاعدة التصور تماما، وجعلها الإنفاق فى سبيل الله،

---

(١) تحدثت عن هذه الشبهة فى كتاب «الإنسان بين المادية والإسلام» فصل «الجريمة والعقاب» وكتاب «شبهات حول الإسلام» فصل «الإسلام والعقوبات».

وقال: ﴿ **كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لاَّ يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ * وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ** ﴾ [البقرة: ٢٦٤ -٢٦٥] وكذلك فعل الإسلام بكل ما أبقى عليه من عرف الجاهلية مما لا يخالف - بعد تصحيح قاعدته - مبادئ الإسلام. أما ما يخالف هذه المبادئ وهو القسم الأكبر من سلوك الجاهلية يومئذ فقد قاومه الإسلام مقاومة شديدة حتى ألغاه، وهذا هو الذى يفسر عمق إحساس المسلمين بالتغيير الذى أحدثه الإسلام فى سلوكهم وتصورهم، حتى إن الرسول ﷺ لما سألهم فى حجة الوداع: أى يوم هذا؟ وأى شهر هذا؟ توقفوا عن الإجابة خوفا من أن يكون اسم اليوم قد تغير أو اسم الشهر قد تغير، وقالوا: الله ورسوله أعلم!!

ومع ذلك يلقى «العالم» قضيته هكذا بغير دليل، ثم يتبعه كتاب «مسلمون» ممن يتحدثون فى هذه الأيام عن «القومية العربية» فيقولون إن عرف العرب فى الجاهلية لم يكن جاهليا! لأن الإسلام أقرّه وأبقاه!!

والقضية الثانية أن الرسول ﷺ كان يعتزم فى بادئ الأمر - أو «ربما» كان يعتزم - حصر نطاق الإسلام فى الجزيرة العربية! ولا يعطينا «العالم» أى دليل له يبرر هذا «الظن» منه! والقرآن المنزل على محمد ﷺ منذ أوائل الدعوة يقول له إنه مرسل «للعالمين» وإن القرآن ذكر كذلك للعالمين: ﴿ **إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ** ﴾ [التكوير: ٢٧]، ﴿ **تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا** ﴾ [الفرقان: ١]، ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ** ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، فكيف يخطر فى بال الرسول ﷺ أن يحصر الإسلام فى الجزيرة، وهذا هو التوجيه المنزل عليه من السماء؟!

والقضية الثالثة أن القول بأن الإسلام يجبّ ما قبله لم يظهر إلا متأخرا، بعد

أن انتشر الإسلام فشمل بلادا وأمما غير الجزيرة العربية!! ولم يكن هذا القول معروفا ولا معمولا به والإسلام بعد فى حدود الجزيرة! وكأنما هذا لم يكن حديثا من أحاديث الرسول ﷺ، عرفه المسلمون ووعوه فى حياته ﷺ، ورأوا تطبيقه العملى على يديه!!

والقضية الرابعة أنه بعد انتشار الإسلام خارج الجزيرة فقط صار شرح مقاصد القرآن يستمد من فعل الرسول ﷺ!! أما قبل ذلك فقد كان عرف الجماعة - أى عرف ما قبل الإسلام! - هو المعمول به وحده فى بيان مقاصد القرآن!!

هل هذا كلام « علمى » يستحق النقاش؟!

* * *

ثم يتحدث العالم الكبير عن الفرق بين التشريع الإسلامى والقانون الأوربى (ص ١١١ - ١١٢) فيقول :

« إن الفارق الرئيسى بين التشريع الإسلامى والتشريع الأوربى هو فارق لا ينبغى إغفاله، ومن الواضح أنه نابع من الأحوال الطبيعية داخل المنطقة الحارة وخارجها (!!) فالتشريع الأوربى هو علم تجريبى، يشتمل على جهد يبذل فى تسجيل الحالات وتبويب النتائج، وتعيين لجان من الرجال تختار وتدرب بعناية، وتصحيحات وتحسينات لا تقف عند حد. أما نظرة الإسلام فهى أن التشريع عمل خارج عن إمكان الإنسان. وأن مهمة الإنسان محصورة فى معرفة مجموعة من الأوامر منزلة من عند الله، وتنفيذ هذه الأوامر. وعلى ذلك فالمبدأ الرئيسى فى الإسلام هو « فلنطع الله أكثر مما نطيع البشر »!!

وصدق العالم الكبير وكذب فى آن واحد!

فطاعة الله هى الأصل فى هذا الدين ...

ولكن هذا الدين، الذى نزل لكل البشرية منذ محمد ﷺ إلى يوم القيامة، لم يغفل دور « الإنسان » فى صياغة الحياة وتطويرها على ظهر الأرض، لا إشراكا له فى الألوهية كما تصنع الجاهلية الأوربية المعاصرة - وكل جاهلية فى التاريخ - حين تعطى البشر ابتداء حق التشريع، فتقسم الناس على الفور إلى سادة وعبيد،

أو أرباب وعبيد . . . أرباب يشرعون للناس ويحملونهم على إطاعة أهوائهم، وعبيد ينفذون! وإنما فضلا من الله ورحمة، حتى لا يقف الإنسان عن النمو السياسى والاقتصادى والاجتماعى والفكرى، الذى يتيح له دائما أن يقوم بالخلافة الراشدة فى الأرض . . .

إن فى الحياة البشرية أموراً ثابتة لا تتغير، أو لا ينبغى لها أن تتغير. وهذه جاءت شريعة الله فيها بقواعد ثابتة وتفصيلات كذلك ثابتة، كشعائر التعبد، والحدود، وعلاقات الأسرة، وعلاقات الجنسين . . . إلخ.

وفيها أمور أخرى متغيرة؛ ويريد الله لها أن تنمو على الدوام ولا تجمد، كالصورة السياسية والصورة الاجتماعية والصورة الاقتصادية للأمة . . . وهذه جاءت الشريعة فيها بالأسس الثابتة، وتركت العقل المؤمن يجتهد لوضع تفصيلاتها بما يناسب كل عصر، وذلك فضلا عن المباحات والمتروكات التى تنمو فى إطارها الحياة الإسلامية بحيث لا تصطدم بأصل من الأصول الثابتة فى التشريع.

وذلك هو الوضع السليم للإنسان فى حياته على ظهر الأرض: لا هو مكبل الخطى عن الحركة، ولا هو منفلت بغير رباط. ولكن الجاهلية المعاصرة – وكل جاهلية – ترفض الرباط السماوى . . . ترفض أن تطيع الله، فتقع كما يقرّ العالم الكبير نفسه فى طاعة البشر!! وإنها لحماقة أن يحس إنسان أنه أكرم على نفسه حين يطيع بشراً مثله، منه حين يطيع الله!

ولكنا هنا لا نناقش حماقة هذه الجاهلية التى تتنفج على الناس باسم «العلم» و«التقدم» و«الرقى». إننا فقط نناقش ذلك العالم الكبير فى مغالطاته المركبة التى تحتويها تلك الجملة الصغيرة.

يريد ذلك العالم الكبير – فى إحدى مغالطاته – أن ينفى الجهد الضخم الذى بذله فقهاء المسلمين فى الاستنباط والاستدلال والقياس، والدراسة العملية للحاجات المتطورة للناس، لتغطيتها بغطاء من الشريعة الربانية على حد قول

عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه « يجدّ الناس من الأقضية بقدر ما يجدّ لهم من القضايا » وذلك قبل أن تعرف أوربا الجهد الذى يبذل فى « تطوير » القوانين بعشرة قرون على أقل تقدير!!

ويريد - فى مغالطة أخرى - أن ينسب « الجمود » الذى يصف به التشريع الإسلامى ولا شك، إلى مناخ المنطقة الحارة، وعجز أصحابها عن بذل الجهد العقلى الذى يقتضيه التطوير والتحسين، بينما هذه الصفات التى يتسم بها فى نظره التشريع الأوربى نشأت من الوجود خارج المنطقة الحارة!!.

وهو لا يفتأ يردد تلك الفكرة التى كان يلذ للغرب ترديدها لتخذيل الشعوب الإسلامية عن النهوض، بالإيحاء الدائم إليهم بأنهم - لظروف خارجة عن إرادتهم - لا يستطيعون النهوض! وذلك لكى تتهيأ الفرصة للاستعمار الصليبى الصهيونى أن يستقر فى تلك البلاد أطول مدى مستطاع!

ولكنه مع ذلك ينسى!

ينسى أنه - فى أكثر من موضع فى الكتاب [1] - يقول إن اليهود والنصارى الذين ظلوا فى البلاد التى فتحها الإسلام كانوا دائما أبرع من المسلمين، وكان المسلمون يستعينون بهم فى المسائل الهامة! ولا نريد أن نناقش القضية من جهة نفيه عن المسلمين أنهم يستطيعون أن يبرعوا فى أى شئ على الإطلاق، ولكن نناقشها من الجهة الأخرى: أو ليس تأخر المسلمين راجعا إلى ظروف المناخ التى تجعل أهل « الحزام الحار » - كما يسميه - عاجزين عن بذل الجهد وعن البراعة فى أى شئ؟ فما بال اليهود والنصارى الذين هم من أهل المنطقة ذاتها، ذوى براعة دائمة وهمة ونشاط؟! أولا تجرى عليهم يا ترى « حتمية » المناخ وآثاره التى لا فكاك منها؟!

ثم ينسى مرة أخرى، فى فصله القصير البالغ القصر الذى خصصه فى آخر الكتاب للحديث عن الفن والأدب والعلم، والذى يكشف عن الغل الدفين فى

---

(١) خذ مثلا ص ٨٥ ، ص ٢٣٣ .

صدره لهذا التراث الإسلامى الضخم، إذ يتناوله فى خمس وعشرين صفحة هزيلة، وهو تراث أنار الدنيا سبعة قرون كاملة على الأقل، واستقت منه أوربا نهضتها ... ينسى فيذكر للمسلمين أنهم «برعوا» فى جملة علوم وفنون!

يا عجبا! أو لم يكونوا فى فترة نهضتهم وبراعتهم تلك من سكان المنطقة الحارة التى تمنع البراعة وتمنع النهوض؟!

* * *

فى صفحة (١٢٩) إشارة طريفة تستحق التنويه!

يتحدث عن فريضة الجهاد فى الإسلام، ثم يقول: « ... ولكن أحوال العالم قد تغيرت تغيرا كبيرا منذ أيام الخلفاء حتى إن هذا الخطر لم يعد له اليوم شأن يذكر»!

أرأيت كيف يتحدثون عن خطر الجهاد فى الإسلام؟!

ثم انظر بعد ذلك كيف يسعون إلى تخذيل المسلمين عن الجهاد وتنفيرهم منه لكى يأمنوا هذا الخطر المرهوب!

* * *

فى الصفحات من (١٣٤) إلى (١٣٧) يتناول العالم الكبير قضية الحجاب تناولا لا يخطر على بال أحد من عباد الله «غير العلماء»!

يقول فى صفحة (١٣٤) إن النتائج المباشرة لهذا المبدأ (حق الرجل فى تعدد الزوجات، وحقه فى الطلاق) هو كما بيّن السير «موير» بحق عزلة المرأة واستخدام الحجاب!!

وقد نتعب نحن - غير العلماء - فى تتبع الدليل فى هذه القضية العجيبة التى تربط بين الطلاق وتعدد الزوجات وبين الحجاب.

وقد يقول الواحد منا - لجهله، وعدم كونه من «العلماء» - إن الحجاب نزل بأمر مستقل من السماء، لا علاقة له بأمور الزواج والطلاق على الإطلاق.

ولكن دعنا مما نقول نحن، ولننظر ماذا يقول العالم الكبير فى موضع آخر:

يقول فى ص (١٣٥) «إن أمر الحجاب أهون بكثير فى البادية والريف منه

فى المدينة، بل قيل إنه فى الريف والبادية يكاد يكون أمرا استثنائيا وليس هو الأصل»!!

ويعود الواحد منا - لعدم كونه من العلماء - فيعجب! أو ليس الحجاب ناشئا فى أصله من حق الرجل فى الطلاق وتعدد الزوجات؟! وهل فى الريف والبادية لا يمارس الرجل حق الطلاق وتعدد الزوجات؟! أم العكس هو الصحيح، وأن رجل البادية والريف أشد استخداما لهذا الحق من رجل المدينة التى كانت - على وقته - يراعى فيها الحجاب؟!

ولكن عجبنا - نحن غير العلماء - لا ينتهى عند هذا الحد، فهو يعود فيقول فى ذات الصفحة بعد سطور قلائل: «ومع ذلك فإن استخدام الحجاب يرجع إلى زمن مبكر ... إلى ما قبل الإسلام بكثير» !!

ثم ... إن شئت أن تعجب مرة رابعة فاعجب لقوله بعد ذلك فى ص (١٣٧): «إن الحجاب يقود إلى تعدد الزوجات (!!) لأنه ما دام الرجل يتزوج دون أن يرى زوجته فهى مسألة «يانصيب» فعليه أن يسحب أكثر من ورقة لعل إحداها تكون رابحة» !!

واترك جانبا مغالطته فى أن الرجل فى الإسلام لا يرى زوجته قبل الزواج بينما توجيه الرسول ﷺ فى هذا الأمر صريح، إذ يقول للخاطب: «انظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينكما» [١].

اترك هذا جانبا وارجع إلى القضية كما عرضها فى صفحتى (١٣٤)، (١٣٧)، فى الأولى يقول إن تعدد الزوجات يؤدى إلى الحجاب، وفى الثانية يقول إن الحجاب يؤدى إلى تعدد الزوجات !!

وهكذا يكون «اجتهاد» كبار العلماء !!

* * *

---

(١) رواه النسائى وابن ماجه.

وقضية أخيرة نختم بها هذا العرض لكتاب مرجوليوث، لا لنناقشها مناقشة جادة فما يستحق شئ من ذلك أن يناقش مناقشة جادة! ولكن لنبين فقط كيف يلتوى الفكر والقلم بأولئك المستشرقين لهوى فى النفوس.

يتحدث فى صفحتى (١٩٤، ١٩٥) عن نشأة التصوف فى الإسلام، فيقول إن الإسلام يمكن أن يرضى عامة الناس، الذين يعيشون على فلسفة اللذة والألم « ولكن هناك دائما من له فى الحياة نظرية مغايرة، وآخرون يمكن اجتذابهم إلى مبدأ آخر غير مبدأ اللذة والألم، وهؤلاء من ثم لا بد أن يبحثوا عن شئ آخر غير ما يرضى بقية الناس. والداعية والولى والصوفى ينبعون جميعا من غريزة الزهد هذه التى لا يمكن إغفال دورها فى الوجود »

ثم يقول: « إن الداعية إذن رجل يركز على هذا الجانب من الدين (الذى يجعل رضوان الله فوق كل شئ، والغاية القصوى للإنسان) والولى أو الصوفى هو الذى يجد طريقة خاصة للوصول إلى مرضاة الله ».

وفى هذا الكلام إيحاء واضح بأن الصوفى « أرقى » من المسلم العادى، بل إنه ليؤكد هذا فى عبارة صريحة فى صفحة (٢٠٢) حيث يقول: « إنه فيما يتعلق بهذا السؤال: ماذا أصنع لأصل إلى طريق الخلاص؟ فإن هؤلاء المتصوفة قد أعطوا إجابة أعمق بكثير، وفى نظر بعض الناس أكثر دلالة بكثير، من تلك التى تعطيها عبارات الإسلام البسيطة »!!

فهو هنا لا يقول فقط إن الصوفى « أرقى » من المسلم العادى، بل يكاد يقول إن الصوفية أرقى من الإسلام ذاته!

ثم نعود الآن إلى ص (١٩٥) حيث يقول: « إن هذا الاتجاه (أى الاتجاه الصوفى) قد وجد غذاءه من تأثيرين أجنبيين: التصوف المسيحى فى الغرب، والتصوف الشرقى فى فارس والهند »!

أرأيت إلى الحصيلة النهائية لهذا الالتواء كله؟ إنه « إغواء » للمسلمين يسير فى اتجاهين. إغواء أولا بالتصوف باعتباره – على أقل تقدير – هو الصورة

الراقية للعقيدة، وإغواء آخر خفى « للمثقفين » بأن الإسلام يناسب العامة ولكنه لا يرضى مطالب الطبقات الأعلى فكرا أو الأعلى مشاعر ... إنما الذى يعطى هذه المطالب هو الفكر المسيحى ... أو غير الإسلامى فى أية صورة من الصور!!

فأما الإغواء بالصوفية فلعلنا لا نعجب أن يكون المستشرقون من دعاته بعد أن رأينا كيف يفزع الغرب من خطر الجهاد، فإذا وجدت الصوفية التى يقول عنها فى ص (١٩٥) : إنها تؤدى إما إلى الغيبوبة وإما إلى التأمل الفكرى المجرد فقد أمن الغرب من ذلك الخطر المفزع القتّال!

وأما إغواء « المثقفين، فأمر لا يحتاج - بعد - إلى بيان!!

* * *

وقد كان هذا كله يكفينا بشأن « مرجوليوث » .

ولكن الفصل الذى كتبه فى موسوعة تاريخ العالم Universal History of the World بعنوان « الإسلام وتعاليمه » فى المجلد الخامس، يحوى إضافتين « طريفتين » تستحقان سطورا أخرى من الحديث!

الأولى قوله، إن الرسول ﷺ مجهول النسب! لأنه يسمى محمد ابن عبد الله، وكانت العرب تطلق على من لا تعرف نسبه اسم عبد الله!

والثانية هى كلامه عن الشعر الجاهلى وإعجاز القرآن حيث يقول ما خلاصته إن القرآن « يقال عنه » إنه معجز، بالقياس إلى الشعر الجاهلى الذى كان أعلى إنتاج بلاغى للعرب وقت نزول القرآن، ومن ثم يستدل على أنه كلام الله وليس كلام البشر، لأن أعلى ما يستطيع البشر أن يقولوه لا يقاس بشئ من بلاغة القرآن ....

ومرجوليوث لا يعجبه هذا القول!

وبصرف النظر عن رأيى الخاص فى هذه القضية، وهو أن بعض البلاغيين القدامى قد ركزوا على الإعجاز البيانى للقرآن حتى نسوا - أو كادوا - جوانب الإعجاز الأخرى، بينما القرآن فى الحقيقة معجز فى كل اتجاهاته، وليس فى بنائه اللفظى فحسب ... وأن إعجازه ككتاب تربية، أخرج من قبائل العرب المتناحرة

المتنافرة تلك الأمة العظيمة التى شهد لها خالقها سبحانه بقوله: ﴿ **كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ** ﴾ [آل عمران: ١١٠] وإعجازه ككتاب عقيدة، ينفذ إلى النفس البشرية من كل منافذها الفطرية ومكامنها، ليقرر فيها عقيدة التوحيد بذلك الحسم والوضوح والشفافية ... لا يقل بحال - هذا وذاك - عن إعجازه البيانى.

بصرف النظر عن رأيى الخاص فى هذه القضية ... فإن مرجوليوث - كما قلنا - لا يعجبه القول بإعجاز القرآن! ومن ثم يروح يرتب القضية هذا الترتيب:

المسلمون يقولون إن القرآن معجز، بالقياس إلى الشعر الجاهلى وهو أبلغ ما قاله العرب ...

ولكن الشعر الذى يقول عنه المسلمون إنه الشعر الجاهلى، ويقيسون إليه القرآن فيظهر إعجازه، ليس هو الشعر الجاهلى الحقيقى! إنما هو شعر انتحله المسلمون وسموه «الشعر الجاهلى» بعد أن أعدموا الشعر الحقيقى الأصلى! وقد فعلوا ذلك لأن الشعر الجاهلى الحقيقى الأصلى كان بليغا جدا ... أبلغ مما نتصور! كان أبلغ من القرآن! ولو بقى على حقيقته لما بدا القرآن معجزا بالقياس إليه! ولذلك رأى المسلمون أن يطمسوا عليه، وينتحلوا شيئا آخر أقل منه بلاغة بكثير ... يزعمون أنه هو الشعر الجاهلى، ليبقى القرآن معجزا فى نظر الناس !!!

أرأيت إلى هذه السخافة التى ليس لها دليل علمى واحد يسندها؟!

فالانتحال الذى يشير إليه - إن كان قد حدث - كان فى القرن الأول الهجرى. ولكن العرب الذين واجههم القرآن أول مرة، وتحداهم، وعجزوا عن الرد على التحدى، لم يكن الشعر الذى بين أيديهم هو الشعر المنتحل، الذى يقال إن المسلمين انتحلوه فيما بعد، إنما كان هو الشعر الجاهلى الأصلى، الذى يعرفونه جيدا سواء فى المعلقات أو غيرها، والذى كانوا يحفظونه ويتداولونه فى

مجالسهم، فلماذا لم يقل هؤلاء -- وهمِ أهل الصنعة -- إن الشعر الجاهلى أبلغ من القرآن، أو إن القرآن أقل بلاغة من الشعر الجاهلى؟!

ومع ذلك فقد كانت هذه السخافة هى « الوحى » الذى استوحى منه طه حسين كتابه عن الشعر الجاهلى، الذى لا يزيد على أن يكون ترجمة حرفية لما قاله مرجوليوث، والذى قال عنه طه حسين فى لقاء صحفى عام ١٩٧٠ إنه ما زال مصراً على كل كلمة قالها فيه!!

فِلْهَــــوزِنْ

Von Julius Wellhausen

فلهـوزن مـسـتـشـرق ألمانى عـاش مـا بين ١٨٤٤ و ١٩١٨م، بدأ بدراسـة اللاهوت ثـم درس اللغات الشرقية وأتقن دراستها، وله مؤلفات كثيرة عن الإسلام بالألمانية، ترجم بعضها إلى اللغة العربية، وكان أكثر اهتمامه بالتاريخ الإسلامى، كما اهتم بدراسة الشعر العربى.

وقـد اخـترنا له كـتابه « تاريخ الدولة العـربيـة من ظهـور الإسلام إلى نهـاية الدولة الأموية "Das Arabische Reich und sein & turg" معـتـمـدين فيـه على الترجمة العربية الدقيقة التى قام بها الدكتور « محمد أبو ريدة » عن الألمانية – لغة الكتـاب الأصليـة – وصـدرت فى مـشـروع الألـف كـتـاب بالقـاهرة ١٩٥٨ برقم (١٣٦) فى سلسلة المشروع.

والكتاب كبير الحجم، فهو يقع – فى الترجمة العربية – فى ٥٣٤ صفحة من القطع الكبير، بالإضافة إلى « فـهرس الأشـخاص » الذى يقع فى ١٨ صفحة، و« فـهرس الأمـاكن والمواضع » الذى يقع فى ١٢ صـفـحـة، و« فـهـرس الموضـوعـات والمواد » الذى يقع فى ٢٢ صفحة.

وقد قسم المؤلف كتابه إلى « كلمة تمهيدية » فى تسع صفحات، يتحدث فيـها المؤلف عن الروايات التـاريخيـة التى تتعلق بالفـترة التى يتناولها بالبحث، وعن منهجه الخاص فى التعامل مع هذه الروايات. ثم تسعة فصول تجرى على النحو التـالى: الفـصل الأول بعنوان « مـقـدمـة » والثـانى بعنوان « علىٌّ والحـرب الأهليـة الأولى » والثـالث بعنوان « السـفـيـانيـون والحـرب الأهليـة الثـانيـة » والرابع بعنوان « بنو مـروان الأولـون » والخـامس بعنوان « عـمـر بن عـبـد العـزيز والموالى » والسادس بعنوان « المروانيون المتأخرون » والسابع بعنوان « مروان بن محمد والحرب

الأهلية الثالثة » والثامن بعنوان « القبائل العربية فى خراسان » والتاسع بعنوان « سقوط الدولة الأموية » .

والذى يهمنا بصفة خاصة من هذه الفصول جميعا هو فصل المقدمة، لأنه – على صغر حجمه نسبيا، إذ يقع فى ٦٩ صفحة – هو الذى نفث فيه المؤلف معظم سمومه، بروح « علمية! » خالصة، لا تفترق عن الروح « العلمية » التى شاهدناها عند مرجوليوث من قبل! وإن كان اهتمامنا الخاص بفصل المقدمة وما يحويه من مغالطات علمية والتواءات، لا يصرف نظرنا عن « السم العام! » المنفوث فى الكتاب كله، من أول اختيار الموضوع، إلى اختيار عناوين الفصول، إلى طريقة معالجة الموضوع، مما سنشير إليه فى نهاية الحديث عن الكتاب .

* * *

فى ص (٢) يتحدث المؤلف عن القرآن فيقول : « ويبرز فى القرآن شأن القدرة الإلهية تارة، وشأن العدل الإلهى تارة أخرى، وذلك بحسب ما كان يحس به [النبى عليه السلام] دون مراعاة للتوازن بين الطرفين، ولا يشعر محمد [عليه السلام] (١) بما فى ذلك من تناقض لأنه لم يكن فيلسوفا ولا واضعا لمذهب نظرى فى العقائد (Dogmatiker) » .

وبصرف النظر عن كون المؤلف ينسب القرآن إلى الرسول ﷺ، وهو أمر يشترك فيه المستشرقون جميعا بطبيعة الحال، فإن المؤلف يضيف إلى ذلك أن هناك تناقضا وعدم توازن فى القرآن، لأنه يبرز شأن القدرة الإلهية تارة وشأن العدل الإلهى تارة أخرى! ثم يرد ذلك إلى الحالة النفسية الخاصة التى يكون عليها الرسول ﷺ وقت « التأليف »! ثم يقول إن الرسول ﷺ لا يشعر بذلك التناقض لأنه ليس فيلسوفا ولا مفكرا عقائديا!

والمؤلف هنا يثير مشكلة « كلامية » تتعلق بالجبر والاختيار، وكيف يكون الله سبحانه وتعالى « عادلا » إذا كان قد قدّر أعمال الإنسان، أو إذا كانت أعمال

(١) ما بين الأقواس هو من وضع المترجم بطبيعة الحال وليس المؤلف!

الإنسان لا تجرى إلا بقدره ومشيئته. وهى مشكلة «ذهنية» خاض فيها الكلاميون ووقفوا منها مواقف شتى، وليس من همنا هنا الحديث عنها ولا الخوض فى المواقف المختلفة منها. ولكنا نسأل فقط: ماذا فعل الفلاسفة والمفكرون العقائديون خلال التاريخ كله فى حل تلك المشاكل «الذهنية» أو «العقلية» التى يثيرونها فيما يتعلق بالذات الإلهية أو الصفات؟ وأين منهم - جميعا - من استطاع أن يقدم للناس فى شأن الألوهية كلاما أبسط وأوضح مما قدمه الإسلام؟ ثم - وهذا هو الأهم - من منهم جميعا استطاع أن يقدم للبشرية عقيدة فى الله - فوق وضوحها وبساطتها - تستطيع أن تكون قوة دافعة بانية مُرَشِّدَةً للإنسان، تعينه على القيام بمهمة الخلافة الراشدة فى الأرض كما فعل الإسلام؟ وماذا فعل أولئك الفلاسفة والمفكرون العقائديون فى واقع البشرية، وماذا قدموا لها من زاد تقتات به وتنشئ حياتها عليه؟! أفهذه المعاظلات الذهنية المعقدة الجافة المجردة هى الزاد الذى كان يريد المؤلف من الرسول ﷺ أن يتزود به وهو يدعو البشرية إلى الرشاد؟ وذلك بصرف النظر عن دعاوى المستشرقين فى أن محمدا عليه الصلاة والسلام هو مؤلف القرآن، فتلك - كما أشرنا من قبل - هى قولة الجاهلية منذ أربعة عشر قرنا من الزمان!.

* * *

فى ص ٣ يقول المؤلف: «وكان أول من اتبع محمدا [عليه السلام] أفراد، من أصدقائه وأقربائه ومن الموالى والرقيق، غير أنه كان يعتبرهم طلائع لأتباعه، لأن طموحه كان منذ البداية متجها إلى ضم أهل مكة جميعا إلى دعوته: عشيرته من بنى هاشم وعبد المطلب، وقومه قريش. ولقد كان محمد [عليه السلام] عربيا، فكانت له، بحكم ذلك، إحساسات بالعشيرة والقبيلة ...».

دعوة الرسول ﷺ أهله وأقرباءه وقومه بادئ ذى بدء ناشئة إذن من كونه ﷺ عربيا، له إحساسات خاصة بالعشيرة والقبيلة !

وبصرف النظر عن كون الرسول ﷺ لم يتصرف فى هذا الأمر من عند

نفسه وإنما طاعة للوحى الربانى: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١٤] وهى قضية لا يؤمن بها فلهوزن ابتداء - فأى نبى فى التاريخ كله - عربيا أو غير عربى - بدأ بغير قومه الأقربين؟! وما صلة ذلك بالطبيعة العربية للرسول ﷺ؟! بل أى داعية فى الأرض كلها، لأى دعوة كانت، بدأ بغير قومه الأقربين؟! وما مجال التعليق على هذه النقطة وهى ظاهرة طبيعية مكرورة على مدى التاريخ؟!

إنما يريد المؤلف، العالم النزيه، ذو النزعة الموضوعية [1]، أن يقول إن الإسلام - منذ حركته الأولى - مصطبغ بالصبغة العربية، لأنه دين من صنع العرب، وللعرب، وليس مصطبغا بالصبغة «الإنسانية» العامة التى يقررها القرآن حيث يقول: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً ﴾ [سبأ: ٢٨]

* * *

فى ص (٤) يقول: «ولقد كان فى وسع محمد [عليه السلام]، من طريق عقيدة تتجاوز دائرة معتنقيها الدائرة التى ترسمها رابطة الدم، أن يحطم رابطة الدم هذه لأنها لم تكن بريئة من العصبية وضيقها، ولا كانت ذات صبغة خارجية عارضة، هذا هو الذى جعلها لا تتسع لقبول عنصر غريب عنها. ولكن محمدا [عليه السلام] لم يرد ذلك، ومن الجائز أيضا أنه لم يكن يستطيع أن يتصور إمكان رابطة دينية فى حدود غير حدود رابطة الدم، ولذلك فإنه لم ير أن رسالته هى أن يضم إلى دعوته أتباعا متفرقين هنا وهناك».

محمد عليه الصلاة والسلام لم يرد إقامه رابطة عقدية أوسع من رابطة الدم، وربما لم يكن يستطيع أن يتصور إمكان وجودها! هذا هو الذى يقوله العالم الفذ «المؤرخ!» الذى يتعامل مع تاريخ الإسلام!!

ومهما تصورنا من إمكان جهل «العالم البحاثة» بوقائع التاريخ الإسلامى،

---

(١) نردد هنا ما يقوله تلاميذ المستشرقين من «المسلمين!» عن أساتذتهم المستشرقين.

فلا يمكن بحال أن نتصور جهله بالوقائع الأولية التى يعرفها تلاميذ المدارس الابتدائية، من أن بلالا العبد الحبشى كان من بين المسلمين الأوائل فى مكة، وكانت حفاوة الرسول ﷺ به بالغة، وكذلك مولاه زيد، الذى تبناه الرسول ﷺ حتى نزل أمر الله بإبطال التبنى، أفكان هذا تعبيرا عن عجز الرسول ﷺ عن إدراك إمكانية قيام رابطة عقدية أوسع من رابطة الدم، أو تعبيرا عن عدم إرادته عليه الصلاة والسلام ذلك؟!

ويعرف تلاميذ المدارس الابتدائية كذلك أن الرسول ﷺ آخى فى المدينة بين بلال بن رباح وخالد بن رويحة الخثعمى وبين مولاه زيد وعمه حمزة، وبين خارجة بن زيد وأبى بكر، وأنه قال عن سلمان الفارسى «سلمان منا آل البيت».

فهل كان هذا هو التعبير عن عجز الرسول ﷺ عن التصور، أو عدم رغبته فيه؟!

أم إنه الالتواء المقصود، الذى لا يصدر عن جهالة ولكن عن حقد مسموم؟!

إنه يقول ما يقول إشارة إلى قول الله سبحانه وتعالى: ﴿**وَأُوْلُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ**﴾ [الأنفال: ٧٥] فهل هذا التوجيه من القرآن الكريم تحديد لرابطة العقيدة برابطة الدم؟ أم هو تقوية لرابطة الدم فى ظل العقيدة؟!

أوليس القرآن هو الذى يقول: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ**﴾ [الحجرات: ١٠]

فيقرر أخوة المؤمنين جميعا على أساس العقيدة؟

أو ليس القرآن هو الذى ينهى عن إقامة رابطة الدم إذا خرجت على العقيدة: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ * قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ**

وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾ [التوبة: ٢٣ - ٢٤]

بلى !ولا يجهل العالم الكبير ذلك! ولكنه مصداق قول الله عز وجل: ﴿ ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم ﴾ [البقرة: ١٢٠] وقوله تعالى: ﴿ الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون ﴾ [البقرة: ١٤٦]

* * *

في ص (٥) يقول: « وأخيرا وضع قدمه في يثرب، أعنى المدينة، وكانت هجرته إليها حادثا جليلا، بدأ به عهد جديد، على أن هذا العهد الجديد لم يكن معناه التنصل من الماضى تنصلا مقصودا، لأن محمدا [عليه السلام] لما صار رئيسا سياسيا بعد أن كان مبشرا ونذيرا لم يتنكر لنفسه، وذلك أنه منذ البداية لم يكن يرمى إلى اجتذاب أفراد، بل إلى ضم القبائل بجملتها، وكان من أول الأمر أيضا يرى أن النبى هو الرسول الذى يرسله الله ليكون على رأس قومه، ولم يكن يفصل بين الجماعة السياسية والجماعة الدينية. وهو إذا كان قد أراد أن يظل فى المدينة على ما كان عليه فى مكة من قبل، وهو أن يكون نبى الله ورسوله، فلم يكن ذلك منه لعبا ولا نفاقا، لكنه في مكة لم يوفق أما فى المدينة فقد نجح وشق الطريق ».

أرأيت إلى الإنصاف الهائل العميق الذى أضفاه المؤلف العظيم على رسول الله ﷺ ؟! لم يكن الأمر لعبا من الرسول ﷺ ولا نفاقا !! إنما كان الرسول ﷺ جادا فى « دعواه » !!

أرأيت إلى قوله: « ... إذا كان قد أراد أن يظل فى المدينة على ما كان عليه فى مكة من قبل، وهو أن يكون نبى الله ورسوله ... » كأنما الأمر من عند نفسه ﷺ، يريد أولا يريد! مرة - إذا شاء - يكون نبى الله ورسوله، ومرة - إذا شاء -

يتخلى عن النبوة والرسالة ويكون حاكما فحسب! ولكن المؤلف الكبير - والحق يقال - يقرر للرسول ﷺ ثباته على المبدأ، وعدم رغبته فى التخلى عن أن يكون نبىّ الله ورسوله!

هل تريد إنصافا أكبر ولا أعظم من هذا الإنصاف؟!

* * *

فى ص (٥، ٦) بعد الكلام السابق مباشرة: «هو كان فى مكة ثائراً على قومه مخالفا لما هم عليه، أما فى المدينة فقد بلغ ما كان يرمى إليه، وقد أحدث هذا تغيراً كبيرا، لا مجرد فرق ظاهرى، وذلك أن المعارضة دائما تتغير عند ما تصل إلى الرياسة، وأن السياسة عند تطبيقها تبعد كثيرا عن الفكرة التى قامت عليها ... وهذا هو الذى يفسر لنا أن النبى لما صار رئيسا سياسيا تغير عما كان عليه لما كان لا يزال طامحا فى الرياسة، وأن الحكومة الثيوقراطية (Theokratie) من حيث السياسة الفعلية تغيرت عنها لما كانت فكرة. وعلى هذا صار الطابع السياسى يزداد بروزا والطابع الدينى يزداد تراجعا. ولكن على الإنسان مع هذا ألا ينسى أبدا أن الدين والسياسة امتزجا وسارا يدا بيد، وإن كان قد جُعلَ تمييز بين السياسة الدينية والسياسة الدنيوية، وبقى للتقوى إلى جانب ذلك مكانها فى القلوب».

حشد من المغالطات العلمية والتاريخية والتناقضات الظاهرة يملأ تلك السطور القليلة من حيث يدرى أو لا يدرى العالم الكبير!

ففى الصفحة الخامسة كان يقول ما أثبتناه فى الفقرة السابقة: «لأن محمدا [عليه السلام] لما صار رئيسا سياسيا بعد أن كان مبشرا ونذيرا لم يتنكر لنفسه ...» وهنا يقول: « ... أن النبى لما صار رئيسا سياسياً تغير عما كان عليه لما كان لا يزال طامحا فى الرياسة ...» فأيهما نصدق؟!

ثم يقول: « ... وأن الحكومة الثيوقراطية من حيث السياسة الفعلية تغيرت عنها لما كانت فكرة» فما هو التغير الذى حدث؟ إنه كما يصفه فى

العبارة التالية: «وعلى هذا صار الطابع السياسى يزداد بروزا والطابع الدينى يزداد تراجعا» فأى دليل يقدمه - من حياة الرسول ﷺ - يثبت به هذه القضية؟ لا شئ! إنما عليك أنت أيها المسلم أن تراجع تاريخ نبيك ﷺ بروح التشكك التى ألقاها إليك العالم الكبير، بعد إذ كنت تنظر إليها على أنها حياة مثالية لا يتسرب إليها الشك! عليك أن تنظر فى وقائع السيرة النبوية الشريفة عن وقائع المفارقة بين النظرية والتطبيق! فإذا لم تجدها فراجع نفسك! لعلك متعصب! يعمى التعصب عينيك عن حقائق التاريخ، التى رآها - ولم يصرح بها - ذلك العالم الكبير!!

ثم هذا الالتواء فى التعبير، الذى لا تستطيع معه أن «تضبطه» فى نقطة ثابتة.

ازداد الطابع السياسى بروزا وازداد الطابع الدينى تراجعا.

الدين والسياسة امتزجا وسارا يداً بيد.

جُعِلَ تمييز بين السياسة الدينية والسياسة الدنيوية.

بقى للتقوى إلى جانب ذلك مكانها فى القلوب.

أين يقف المؤلف بالضبط بين هذه المتناقضات المتوالية فى جملة واحدة؟!

وهل هذا أسلوب عالم «مدقق»؟! أم رجل سياسة - على الطريقة الجاهلية - يتلاعب بالألفاظ؟!

هذا وهو ذاته يقول فى ص (١٠): «ولم تكن بين المسلمين طبقة من الرهبان، ولا كان هناك تمايز بين الرهبان وبين غيرهم، ولا بين الأمور الدينية والدنيوية»!!

فكيف بالله توفق بين قولتى العالم الكبير فى فصل واحد: «جُعِلَ تمييز بين السياسة الدينية والسياسة الدنيوية» «ولا كان هناك تمايز ... بين الأمور الدينية والدنيوية»؟! وقوله بعد ذلك فى ص (٥٩) من نفس الفصل: «وميدان النشاط الدينى هو السياسة، وهذا هو معنى الحكومة الثيوقراطية»؟!

وهذا الذى يلتوى ويتلوى على هذه الصورة ... هو «الأستاذ» الذى يتلقى عنه التلاميذ من «المسلمين!».

* * *

فى ص (٧) يقول: «... ولما كانت لحمة الدم قد فشلت فى أن تكون رباطا يؤلف بين الناس [١] فقد أحلّ النبى محلها رابطة العقيدة!

هكذا! رابطة العقيدة جئ بها بسبب فشل رابطة الدم! لا لأنها الأصل الذى يقوم عليه هذا الدين!!

وهل كانت رابطة الدم ناجحة فى مكة بين الرسول ﷺ وقريش؟! فلماذا جئ برابطة العقيدة فجأة فى المدينة فقط، مع أن موجباتها كانت موجودة فى مكة؟!

هذا إذا سلمنا جدلا بهذا «الاجتهاد» العميق الذى يفسر به العالم الكبير أحداث التاريخ! وإلا فقد كانت العقيدة هى الآصرة من قبل ومن بعد فى كل حركة تحرك بها هذا الدين.

* * *

فى ص (٩) يقول: «والذى كان راجحا فى فكرة الألوهية هو العدل لا القداسة».

المسلمون يحسون بالعدل الإلهى ولكنهم لا يقدسون الله ... تقدست أسماؤه وله الأسماء الحسنى.

هل ثمت دليل – من القرآن أو من واقع المسلمين – يقدمه العالم الكبير؟!

* * *

فى ص (١١) يقول: «ومبدأ المساواة السياسية بين المسلمين، وهو المبدأ

---

(١) يقصد فى المدينة.

الذى يلزم من فكرة الحكومة الثيوقراطية، لم يطبَّق على النحو الذى من شأنه أن يمحو الفوارق التى كانت موجودة بالفعل، فبقى المكيون الذى جاءوا مع النبى [عليه السلام] وهم المسمون المهاجرة، على حدتهم، وبقيت إلى جانبهم قبائل العرب التى كانت تسكن المدينة، وهم المسمون الأنصار، على حدتها، وكذلك بقيت قبائل اليهود فى المدينة على حدتها، وبقى التابع تابعا والمولى مولى والنزيل نزيلا، وإن كانوا قد اعتنقوا الإسلام ».

أرأيت إلى هذه « الضبطية » الخطيرة التى ضبطها العالم الكبير فى تاريخ الإسلام؟!

أرأيت - أيها المسلم - كم كنت غافلا عن وقائع تاريخك وأنت تحسب أن المساواة السياسية قد طبقت فى صدر الإسلام؟! قم منذ هذه اللحظة راجع تاريخك ... راجعه بروح التشكك فى كل ما يقوله لك المؤرخون والكتاب المسلمون ... فقد أعماهم التعصب عن هذه الحقائق الخطيرة التى تفتحت لها بصيرة العالم البحاثة الخطير!

يكشف العالم الخطير بادئ ذى بدئ عن نفثة مسمومة إذ يريد أن يمنح الإسلام اليهود المساواة السياسية مع المسلمين فى المدينة! ذلك وهم يحاربون الإسلام ويناوئونه بكل ما أوتيت عبقريتهم من شر، ويحاولون قتل الرسول ﷺ مرتين، مرة بإلقاء الحجر عليه، ومرة بدس السم له فى ذراع الشاة! ويعلنون عدم إيمانهم برسول الله ﷺ وإصرارهم على الكفر بما جاء به من عند الله!

أما تفضيل المهاجرين فيعلم سببه كل من يعرف شيئا على الإطلاق من تاريخ هذا الدين، فيعلم أنهم هم الذين احتملوا العذاب كله إزاء ضغط الجاهلية العنيف فى مكة ... فكان من حقهم أن يكونوا « سابقين » فى كل أمر كما كانوا سابقين إلى الإسلام وإلى احتمال الأذى فى سبيله، دون أن ينقص الإسلام من حقوق الآخرين.

وأما الموالى، الذين يلتوى الكاتب بذكرهم ليغمز بهم الإسلام ... فكيف كان وضعهم فى المدينة؟ أليس زيد - المولى - هو الذى ولاه الرسول ﷺ قيادة جيش من المهاجرين والأنصار؟ وحين قتل ولى ابنه أسامة بن زيد قيادة جيش فيه أبو بكر وعمر رضى الله عنهما وهما من هما فى القمة من المهاجرين وفى القمة من قريش؟

أو ليس زيد كذلك هو الذى زوجه الرسول ﷺ بنت عمته زينب بنت جحش القرشية؟!

وفلهوزن لا يجهل ذلك كله لأنه «مؤرخ» يؤرخ للإسلام ... ولكنه الالتواء الذى تمليه الأحقاد.

* * *

فى ص (١٥) يقول: «ولم يبق الإسلام على تسامحه، بل شرع فى الأخذ بسياسة الإرهاب فى المدينة»!

هكذا: الإرهاب! الإرهاب ضد من؟ يقول فى السطر التالى: «فلم يسمح للمشركين بأن يبقوا داخل الأمة على شركهم، كما كان الحال حتى ذلك الحين».

يا سبحان الله! المطلوب من الإسلام أن يبقى على الشرك فى داخل قاعدته التى ينطلق منها، وإلا فهو يسير على سياسة الإرهاب! يسمح بالتخريب فى قاعدته وإلا فهو مستبد!

حقيقة إنه من قبل لم يتعرض لهؤلاء المشركين، لأن مركزه الحربى لم يكن يسمح بالقتال، لا لأن ذلك أصل من الأصول التى ينبغى أن تراعى! فإذا جاءت القوة فلا يجوز السكوت على هذا الأمر، لا لأن القوة قد غيرت «المبادئ» ولكن لأنها قد أوجدت الإمكانيات العملية للمبدأ الذى ينبغى العمل به، وكان معطلا بسبب الملابسات.

على أن الذى يوجع المؤلف حقا، ويتمحك بذكر المشركين مجرد تمحك لتغطيته هو أمر اليهود!

يقول فى نفس الصفحة: «ولكن موقف اليهود كان أسوأ من موقف المنافقين ... وحاول محمد [عليه السلام] أن يظهرهم بمظهر المعتدين الناكثين للعهد. وفى غضون سنوات قليلة أخرج كل الجماعات اليهودية أو قضى عليها فى الواحات المحيطة بالمدينة حيث كانوا يكونون جماعات متماسكة كالقبائل العربية. وقد التمس لذلك أسبابا واهية ...».

ولا يجهل أحد فى التاريخ ما فعل اليهود فى المدينة، ولا أنهم هم الذين نكثوا العهود مع المسلمين ... ولكن هل تتوقع من الكاتب الكبير أن يرضى عن الإسلام وهو يعاقب اليهود على الشر الذى ارتكبوه؟

* * *

فى ص (١٧) يقول: «وفى أثناء هذا الصراع الذى كان دائرا فى الظاهر بين الإسلام وبين الوثنية العربية تم على نحو يستلفت النظر تعريب داخلى للإسلام نفسه. وقد كانت نقطة البداية فى دعوة محمد [عليه السلام] اقتناعه فى أول الأمر، بأن ما جاء به من دين يتفق مع اليهودية والنصرانية، فكان ينتظر طبقا لهذا الاقتناع أن يهود المدينة سيستقبلونه مرحبين. ولكنهم لم يعترفوا له بأنه نبى، ولم يعترفوا بأن الوحي الذى أنزل إليه هو الوحى الذى عندهم ... وعلى هذا خاب أمله فى اليهود خيبة مريرة. ولما كانوا لم يعتبروا اليهودية مثل الإسلام، بل جعلوا منها خصما له، فإنه من جانبه جعل الإسلام خصما لليهودية ثم خصما للنصرانية أيضا ...»!

ثم يقول بعد كلام آخر، لا يقل عن ذلك سخفا، فى ص (٩)١ :
« ... وبذلك انتزع إبراهيم، أبو التوحيد، من اليهود وجعل مؤسسا لإسلام عربى قبل الإسلام، واعتبرت مكة هى مركز هذا الإسلام. ومن هذا الطريق فُصِل الإسلام عن اليهودية فصلا نهائيا وجعل دينا عربيا قوميا»!

الذى يوجعه دائما هو اليهود! وموقف الإسلام من اليهود ... ومن هذه الوجيعة التى تملأ قلبه بالحقد يروح يصور الرسول ﷺ فى هذه الصورة المشوهة، صورة السياسة المكيافلية الانتهازية المتقلبة التى لا مبدأ لها تثبت عليه، والتى تبرر الوسيلة بالغاية ... وتجعل الغاية هى إرضاء الهوى الشخصي والنزوات الشخصية ... التى تعيب الشخص العادى لو اتصف بها، فضلا عن الرسول.

والأدلة؟!

لا شئ على الإطلاق ... أو قلب الحقائق وليها لتتفق مع الهوى والأحقاد! ثم يتتلمذ «المسلمون» على أحقاد المستشرقين!!

* * *

فى ص (١٨) يقول: «وأصبح الحج إلى الكعبة، بل تقبيل الحجر المقدس، من الشعائر الدينية المفروضة، وبذلك دخل فى الإسلام مركز للشعائر وعيد وثنى شعبى، وكان لا بد فى تبرير هذا الصنيع من الاستشهاد بالتاريخ، كما هى العادة، فقيل إن البيت الحرام فى مكة والشعائر الدينية المكية كانت فى أول الأمر للتوحيد وإن إبراهيم هو الذى أسسها، ولكنها بعد ذلك فسدت وصارت وثنية» ثم تجئ بعد ذلك مباشرة العبارة التى أثبتناها فى الفقرة السابقة ص (١٩): «وبذلك انتزع إبراهيم، أبو التوحيد، من اليهود ...».

ومثل هذا التبجح ليس كلاما علميا حتى يناقش مناقشة علمية ... إنما هو تبجح فحسب. ولكنا نناقشه مناقشة سريعة لا من أجله فى ذاته – فهو لا يستأهل المناقشة – ولكن لأن بعض «المسلمين!» من تلامذة أولئك المستشرقين يرددونه بين الحين والحين.

يقول المؤلف إن الرسول ﷺ حين خاب أمله فى اليهود حول الإسلام دينا «عربيا!» وجعل الكعبة بدلا من بيت المقدس، ثم أدخل عبادة «وثنية» هى الحج ضمن شعائر الإسلام!

فأما تحويل القبلة فقد تحدث القرآن عنه: ﴿ **سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا** ﴾ [البقرة: ١٤٢] ووصف القرآن يغنينا عن كل قـول.

وأمـا إدخـال العـبادة «الوثنيـة» ضـمـن شـعـائر الإسـلام بسـبب اليـأس من اليـهـود فلنا فـيـهـا - لا من أجل المسـتـشـرقين ولكن من أجل «المسلمين!» - ملاحظتان:

الأولى: أن القـول بأن إبراهيم هو الذى بنى الكعبـة، وأن شـعـائر الحج هى هى التى كان يقوم بها إبراهيم عليه السلام، لم ينشأ من ذكر ذلك فى القرآن - الذى يزعم فلهوزن أنه من صنع محـمـد عليـه الصلاة والسلام - إنما هذا تاريخ معروف عند العرب ومتداول بينهم قبل القرآن بقرون طويلة. وكان الرسول ﷺ - بوصفه عربيا ومكيا من قريش - يعرف هذا التاريخ كما كان العرب كلهم يعرفونه. فهو ليس شيئا مفاجئا اخترع فى المدينة للرد على موقف اليهود كما يزعم ذلك العالم الكبير المتجرد للحق!!

والثـانيـة: أن الإسلام لـم يأخـذ الشـعـائـر الجـاهليـة ثم يدخلهـا ضـمن شعـائـره، فى الحج أو فى غـيـره من الأمور، كـمـا يتـردد ذلك على لسـان بعض «البـاحـثين!» «المسلمين» الذين يسـتـمـدون بحـوثهم «القـيـمـة» من أفـواه أولئك المستشرقين.

لقـد كـان الحج شعيرة «إسلامية» بدأها النبى المسلم إبراهيم عليه السلام وحافظ العرب عليها حتى وهم ينزلقون إلى الوثنية حتى يستقروا فيها. فإن استرد الإسلام شعائره يقال إنه أقر العرب الجاهليين عليها و«اعتمدها»؟! ثم إن العرب فى جاهليتهم أدخلوا فى هذه الشعيرة الإسلامية كثيرا من الخبائث، فجاء الإسلام لينقيها من خبثها ويعيدها سيرتها الأولى كما كانت على عهد إبراهيم عليه السلام، فأزال الأوثان من الكعبة أولا، وألزم قريشا أن تحافظ على الشعائر

فقال: ﴿ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ ﴾ [البقرة: ١٩٩] وكانت قريش تستكبر أن تفيض من حيث أفاض الناس، ثم منع أحدًا أن يحج وهو عريان كما كانت قريش تفعل فى الجاهلية.

فالإسلام لم «يعتمد» عرفا جاهليا ولا عبادة جاهلية على قاعدة جاهلية كما يردد بعض «المثقفين» وما كان له أن يصنع ذلك. إنما كان يرد الأمور كلها - ولو بقيت صورتها الخارجية - إلى التصور الجديد .. التصور الإسلامى الصحيح.

* * *

فى ص (٢٢) يقول عن الرسول ﷺ: «... وليس ما يدعو الإنسان لأن يعيب عليه أنه حقق إنشاء مملكة الله [فى الأرض] على الأساس الطبيعى الذى وجده أمامه. فهو وإن كانت الضرورات العملية، فى كثير من الأحيان، قد اضطرته أو هى انحرفت به إلى استعمال وسائل غير مقدسة، من غير أن يسند ذلك إلى الله، فلا يسوغ لمؤرخ من أجل ذلك أن يعتبره منافقا»!!

مرة أخرى ... يا للإنصاف! النبى كان ميكيافيليا ... ولكن لا يسوغ للمؤرخ من أجل ذلك أن يعتبره منافقا!

والمسلمون يعتقدون أن كل أقواله وأفعاله ﷺ كانت بوحى من الله، وما كان منها مخالفا فقد عاتبه الله عليها ووجهه لتصحيحها، كما حدث فى شأن أسرى بدر، أو شأن ابن أم مكتوم ... ولكن العالم المجتهد يقول إن الرسول ﷺ كان يتصرف تصرفات ميكيافيلية، ثم يتحمل تبعتها الشخصية ولا يسندها إلى الله !!

والأدلة يا سيادة العالم الكبير ... ؟؟

* * *

فى ص (٢٣) يقول: «ولم يكن الجهاد لنشر الدين أكثر من ذريعة وتعلة

للحرب، كما لم تكن دعوة أعداء الله إلى الدخول فى الإسلام قبل محاربتهم إلا مسألة شكلية »!

وعبثا نسأل المؤلف الكبير عن الأدلة على ما يقول ... فليست هناك أدلة بطبيعة الحال إلا إرواء حقد كامن فى النفوس.

فكل تلك الأمثلة التاريخية الرائعة لأولئك الذين كانوا يحرصون على الموت لينالوا الشهادة فى سبيل الله، يمحوها الكاتب الكبير بجرة قلم فى عبارة من نصف سطر! ليضع مكانها أنها كانت مجرد تعلة للحرب!

والدعوة إلى الإسلام قبل القتال كانت شكلية ... لأنه - كما يقول بعدها - « لم يكن ينتظر منهم أن يلبوا هذه الدعوة حقيقة »! أرأيت المنطق؟!

وماذا يصنع لهم الإسلام والمسلمون أكثر من أن يعرضوا عليهم الأمر؟!

وهل حدث مرة واحدة فى التاريخ أن قبل قوم الإسلام ثم حاربهم الإسلام لحرصه على الحرب؟!

* * *

وأخيرا نصل إلى هذه العجيبة فى ص (٣٢) : « وكان أبو بكر وعمر يعلمان أنهما لم يتوليا الخلافة بفضل حق شرعى، بل من طريق الاغتصاب »!

ماذا تقول لرجل يقول هذا الكلام؟ أتناقشه؟! وبأى منطق تناقشه يا ترى؟!

أبو بكر وعمر اغتصبا الخلافة ... ويعلمان ذلك!

يقول : « وهما لم يستطيعا أن يسبغا على رياستهما، التى كانت غير شرعية فى أول الأمر، ثوبا شرعيا إلا فيما بعد، وذلك بأن سارا فى الحكم على المبادئ التى تقضى بها الحكومة الثيوقراطية »!

أى أن خلافة كل منهما ظلت غير شرعية، والمسلمون ساكتون على

عدم شرعيتها، حتى تبين لهم أنهما يسيران على كتاب الله وسنة ورسوله، فأغمضوا أعينهم على عدم الشرعية الذى كان فى البدء، ورضوا بما رأوه من السلوك!

ولو أنه كان يردد قول الشيعة فى أحقية علىّ رضى الله عنه لفهمنا ... ولكنه يطلقها عامة! أى أنها مغتصبة من المسلمين جميعا، وهم -- مساكين -- غير شاعرين بذلك، حتى يجئ فلهوزن بعد ثلاثة عشر قرنا كاملة فينبههم إلى ما كانوا عنه غافلين!!

* * *

هذا السم كله - وأكثر منه مما لم نعرض له - فى فصل واحد من الكتاب! ومنه ينطلق ليتحدث عن تاريخ الإسلام!

لذلك كان عجيبا غاية العجب فى حسى أن يقول المترجم (وهو رجل فاضل فى ذاته ولا نزكى على الله أحدا) عن هذا المؤلف بالذات أمثال هذه الأقوال :

« برهن فلهوزن، بهذا الكتاب، على أنه مؤرخ من الطراز الممتاز »! (ص د) .

« وهو قد استقبل البحث من غير تعصب، وخصوصا من غير مجموعة الأفكار التى يقبلها بعض الباحثين مقدما، فتفسد عليهم تصور الوقائع وفهمها، وتقديرها التقدير الصحيح، وإنما كانت طريقته أن يستوحى النصوص، لا أن يحاول بكل الوسائل أن يستغلها فى إثبات آراء أو فروض قد بدأ بها من عنده »! (ص هـ) .

« كان فلهوزن عالما يتمسك بروح البحث العلمى ويعتد بالوقائع »! (ص هـ) .

« والحق أن فلهوزن فى كتابه الذى نقدمه اليوم لقراء العربية، قد جمع بين الجهد العلمى و العمق والعدالة إذا قورن بغيره »! (ص و)

نعم كان ذلك عجيبا غاية العجب فى حسى ، لأن المترجم الفاضل لم يغفل عن مواضع الانحراف فى تفكير فلهوزن، وعلق عليها جميعا فى مواضعها، أو على معظمها، . . . فكيف بالله يصفه بكل تلك الصفات، وهو يرى ما يقع فيه من انحرافات؟!

شئ واحد هو الذى بهر المترجم فجعله يغفل عن الدوافع الحقيقية وراء هذا الكتاب : ذلك هو الجهد « العلمى » الذى بذله المؤلف فى تحقيق النصوص وترجيح الروايات .

ونسلم جدلا بأنه كان بارعا أقصى درجات البراعة فى هذا الجهد « العلمى » . . . أفما نسأل أنفسنا – بعد قراءة فصل المقدمة السالف الذكر – فيم أجهد نفسه فلهوزن كل هذا الجهد فى دراسة تاريخ الإسلام؟!

إن هناك أمراً واضحا جدا لا ينبغى أن يغيب عن أذهاننا ونحن نقرأ الكتاب .

إن هذه الروح المسمومة التى صبها فى فصل المقدمة، هى المنطلق الذى ينطلق منه ليتحدث عن التاريخ الإسلامى .

لقد تقول على الرسول ﷺ ما تقول، ووصفه بالسياسة الميكيافيلية التى تبرر الغاية بالوسيلة .

ثم من هنا ينطلق ليقول : إن كل التاريخ الإسلامى هو هذه الميكيافيلية التى بدأ بها الرسول ﷺ !

فهى إذن من الإسلام شئ لا يستغرب، ولو خالفت كل الدعاوى « النظرية » للإسلام!

فأى تشويه لتاريخ الإسلام كله أسوأ ولا ألأم من هذا التشويه؟

إننا نقول – كما يقول كل دارس للتاريخ الإسلامى – إن تاريخ بنى أمية كانت فيه انحرافات عن الإسلام . ولكن المؤلف الخبيث – بفصل المقدمة – يوحى إليك أنه لا انحراف! إنه هكذا الإسلام . . . حتى فى أصفى عصوره . . . حتى فى

عصر الرسول ﷺ ! فهل يبقى لك اعتزاز بالإسلام وبتاريخ الإسلام بعد أن « تكتشف » هذه « الحقيقة » التى يكشفها لك العالم الكبير؟!

وتاريخ بنى أمية – الذى اختاره المؤلف ليكون موضوع بحثه لغاية فى نفس يعقوب – فيه ولا شك أعمال تخالف مبادئ الأخلاق والدين . . . ولكن لا تاريخهم كله كان انحرافا، ولا تاريخ الإسلام كذلك. ولكن تركيز المؤلف الشديد عليه لم يكن لوجه العلم، ولا لوجه الله . . . .

إنه إبراز لأسوأ ما فى تاريخ الإسلام على أنه هو تاريخ الإسلام . . . بل على أنه هو طبيعة الإسلام!

ولقد قلنا من قبل – ونحن نتحدث عن مرجوليوث – إن انحراف التاريخ السياسى للمسلمين لم يلغ الإسلام من الأرض ولم يكن انحرافا للواقع التاريخى كله . . . فقد بقى من حقيقة الإسلام ما ذكرناه هناك.

ولكن المسلمين مع الأسف – حتى الطيبون منهم كمترجم هذا الكتاب – تأخذهم دوامة الإعجاب بالمستشرقين فيغفلون عن هذه السموم التى يبثونها فى ثوب زائف من « العلم » و« البحث » و« التدقيق » .

جب Gibb
الاتجاهات الحديثة فى الإسلام
Modern Trends in Islam

« هـ.ا.ر جب H.A.R.Gibb » مستشرق انجليزى معاصر، كانت له شهرة واسعة فى حياته، وما يزال يذكر من بين أبرز المستشرقين المعاصرين، وكان عضوا فى مجمع اللغة العربية بالقاهرة، واختياره عضوا فى هذا المجمع الذى لا يدخله إلا الفطاحل من أهل اللغة، يدل من ناحية على مدى تضلعه فى اللغة العربية، ويدل من جهة أخرى على مدى إعجاب الناس به فى وقته، ومدى إحسانهم الظن به!

وقيمته عندنا أنه صاحب اتجاه جديد فى الاستشراق [١]، الاتجاه الذى لا يتخذ الهجوم الشرس المتواصل منهجا له للوصول إلى أهدافه، إنما هو المنهج الذى جاء ذكره فى كتاب الله:

﴿ وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ ﴾ [آل عمران: ٧٢ – ٧٣]

فهو لا يتظاهر بالحياد فحسب – فكلهم يدعون ذلك – إنما هو يزجى من المديح ما يريح أعصاب القارئ المسلم، فيظن أن الكاتب متعاطف معه، مقدر – على الأقل – لبعض جوانب العظمة فى دينه، فلا داعى لإساءة الظن به ابتداء، إنما الأولى إحسان الظن به! فإذا ألقى القارئ سلاح الحذر بتأثير هذا المديح المريح، دس له المستشرق ما يشاء من السموم، فيتشرب بها من لديه استعداد لابتلاع الطعم ويتأثر بها بقدر ما ألقى من سلاح الحذر، وبقدر ما انشرحت نفسه للطعم المسموم!

---

(١) أشرنا إليه فى الفصل السابق.

وقد كان لجب تلاميذ، من أبرعهم « جرونيباوم »، أما أبرعهم جميعا في ظني فهو « ولفرد كانتول سميث » الذي بذّ أستاذه في استخدام هذا المنهج، مع دقة في الفهم، وبراعة في الأداء.[1].

* * *

والكتاب الذي اخترناه له هو من أشهر كتبه، وعلى الرغم من مضي أكثر من نصف قرن على تأليفه[2]، فما زال مذكورا عند الذين يهتمون بكتب المستشرقين، والذين يهتمون بجب بصفة خاصة. وهو يتحدث عن الأزمة التي يمر بها المسلمون في واقعهم المعاصر، ويدل على متابعة دقيقة لما كان يصدر في وقته من الكتب والأبحاث والدراسات الإسلامية من إنتاج المسلمين، المكتوب بالعربية بصفة خاصة، وبالأوردية كذلك، فضلا عن الانجليزية بطبيعة الحال[3].

وعند ظهور الكتاب احتفى به كثير من المسلمين، وقال عدد منهم: هذا هو الذي فهم أوضاعنا تماما، وحللها تحليلا دقيقا، وقدم تشخيصا واعيا للأزمة التي نمر بها، بمختلف تياراتها وعناصرها، ووضع يده على جسم المشكلة ... فيجدر بنا أن نثق به ونتبع توجيهاته؛ فهو رجل ينظر إلى الأمور نظرة محايدة بل يتعاطف معنا، ويرجو لنا الخلاص من أزمتنا والاستقرار على أرض صلبة راسخة!

* * *

أما وجود الأزمة فأمر متفق عليه! فلا أحد ينكر أن المسلمين يمرون بأزمة شديدة في الوقت الحاضر.

أما التشخيص والعلاج فليس من المستغرب ابتداء أن تختلف فيه وجهات

---

(١) سنناقش كتبهما فيما يلي من هذا الفصل.
(٢) صدرت طبعته الأولى سنة ١٩٤٦م. (٣) من الكتاب الهنود وغيرهم.

النظر، حسب زاوية الرصد التى يرصد منها كل راصد، وحسب الهدف، الذى يريد تحقيقه من خلال العلاج ... هذا إذا افترضنا حسن النية والإخلاص فى واضعى العلاج جميعا ... أما حين تدخل الأهواء في الموضوع – وهى فى حالتنا داخلة لا محالة – فإن الخلاف قد يصل من النقيض إلى النقيض!

الأزمة فى تصورنا نشأت من عوامل داخلية وعوامل خارجية فى آن واحد.

ففى الداخل كان الانحراف المستمر عن التصور الإسلامى الصحيح، والسلوك الإسلامى الصحيح، وخاصة حين تحول الإسلام فى نفوس الناس فى الفترة الأخيرة إلى تقاليد تراعى لذاتها، ويُحْرَصُ عليها، ولكنها خاوية من الروح الحقيقية التى أنشأتها أول مرة، تلك الروح الحية الدافعة التى صنعت بحيويتها الأعاجيب، مضافا إلى ذلك جمود الفقه على ما كان عليه فى القرنين الرابع والخامس الهجريين، مما نشأ عنه ضمور فى تلك الأداة الفذة التى جعلها الله أداة للتجدد الدائم فى حياة الأمة، وصلاحية هذا الدين لكل زمان ومكان، باستنباط أحكام متجددة لما يجد فى حياة الناس من أمور، مستمدة من الأصول الثابتة فى الشريعة الربانية، لكى تتسع لكل نمو سوى فى حياة البشرية، وتضبط منطلقات الناس فى الوقت ذاته فلا ينحرفون خارج إطار الشريعة.

ثم أدى هذا الجمود إلى ضعف تدريجى فى كل مناحى الحياة، السياسية والحربية والاقتصادية والعلمية والعملية، استغلته القوى المتربصة بالإسلام والمسلمين منذ جاء هذا الدين إلى الوجود، فهجمت هجمتها، فاحتلت بقوتها العسكرية بلاد العالم الإسلامى، وجاءت معها فى هذه المرة بلون جديد من السلاح، هو الغزو الفكرى، الذى يحاول اقتلاع العقيدة من جذورها، أو فى القليل صرف المسلمين عن التمسك بالإسلام، ولىّ أعناقهم نحو الغرب ليكونوا مستعبدين له من داخل نفوسهم، فتسهل السيطرة عليهم، وتمتد السيطرة ما دام الاستعباد.

هذه هى القضية كما نراها، مستندين فيها إلى وقائع التاريخ [1].

والعلاج فى نظرنا هو العودة إلى الإسلام، بمفاهيمه الحقيقية كما أنزلها الله، وعلمها رسول الله ﷺ لأصحابه رضوان الله عليهم، لتتوارثها الأجيال.

ولكن جب -- وغيره من المستشرقين -- لا يستريحون لهذا التفسير، ولا هذا التشخيص، ولا هذا العلاج، لأمر لا يخفى ... لأن مطلوبهم هو زحزحة المسلمين عن إسلامهم لا تثبيتهم عليه، وصرفهم عن التمسك بالإسلام لا دعوتهم إلى الرجوع إليه.

﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾ [البقرة: ١٢٠]

وهم يتخذون إلى غايتهم هذه وسائل شتى شرحناها فى الفصل السابق، من بينها الإيحاء إلى المسلمين أن سبب ضعفهم وتأخرهم هو الإسلام ذاته! ومن ثم عليهم أن ينبذوه لكى يتقووا ويتحضروا ويتقدموا!

وهنا يختلف جب -- ومعظم تلاميذه -- عن المستشرقين الآخرين.

ليس الإسلام فى ذاته هو سبب ضعف المسلمين وتخلفهم، فقد أنشأ هذا الدين فى يوم من الأيام حضارة مشرقة باسقة من أكبر حضارات التاريخ ... إنما السبب أنهم وقفوا فى أفكارهم وتصوراتهم عند تفسير معين له، كان يتناسب مع ظروف القرون التى بزغ فيها فجر تلك الحضارة وامتد فى الآفاق. ثم تغير الزمان، وجدت فى حياة الناس أمور -- خاصة فى العصر الحديث -- لم يعد يناسبها ذلك التفسير، فلزم المسلمين أن يقدموا لدينهم تفسيرا جديدا يناسب ما جدّ فى حياة الناس -- كما فعلت المسيحية -- ولكنهم لم يفعلوا، وأصروا على تفسيرهم الأول فكان هذا هو الخطأ الذى ارتكبوه.

ثم جاء التفوق الأوربى ففرض على المسلمين أوضاعا جديدة كل الجدة، مخالفة فى كثير من الأحيان للتفسيرات الدينية التى وضعت فى القرون

---

(١) تحدثنا عن هذه الأمور تفصيلا فى كتاب « واقعنا المعاصر ».

الوسطى، فحدث الاضطراب فى حياة المسلمين بين الشد والجذب، إذ هم يرغبون فى الأخذ بما تقدمه الحضارة الأوربية من مفاهيم تقدمية، ولكنهم يجدون دينهم - أو بالأحرى تفسيرات القرون الوسطى لدينهم - حاجزا يحول بينهم وبين ما يرغبون، فتضطرب خطاهم على الأرض، وتضطرب أفكارهم وتتشتت، فمنهم من يصر على اتباع القديم لا يتزحزح عنه، ومنهم من ينبذ الدين كله، ومنهم من يطلب تفسيرا جديدا للدين يناسب الأوضاع القائمة، ومنهم من يحاول تأويل النصوص ذاتها للخروج منها بالمعانى المطلوبة ... وتلك هى «الاتجاهات الحديثة فى الإسلام»!

تلك خلاصة ما يقوله جب فى هذا الكتاب ...

وبعض ما يقول قد يبدو للوهلة الأولى صحيحا مائة بالمئة، ومحايدا مائة بالمائة، ولكن فلننظر فى تفصيلات الكتاب، لنرى القدر الصحيح والقدر الزائف، وما هو محايد وما هو متحيز مما يقول.

* * *

ولنبدأ من أول اكتاب ...

فى صفحة (٣) يقول: إن المسلمين يعتقدون اعتقادا جازما لا سبيل إلى زحزحتهم عنه، أن القرآن كلام الله، وإن هذا الأمر - الذى لا سند له فى رأيه - له ما يفسره من العقلية الساميّة التى يسهل عليها الإيمان بعالم الغيب، وإمكان الاتصال به عن طريق النبوة والأنبياء!

إذن ... فليسَ القرآن فى حقيقته كلام الله، ولا موحىً به من عنده. إنما هذا ما يتوهمه المسلمون - العرب الساميون - بما ركب فى طبيعتهم من سهولة تصديق مثل هذه الأوهام!

موقف «استشراقى» مائه فى المائة!

والأمر فى نظرنا ليس بمستغرب! فكما قلنا فى الفصل الماضى: لو أنه أقرّ بأن القرآن كلام الله للزمه أن يؤمن به، وهو لا يريد! وأن يؤمن بالرسول ﷺ، وهو لا

يريد! فالمخرج إذن أن ينفى عن القرآن مصدره الربانى، ليصبح هو على صواب فى عدم الإيمان به! وصدق الله: ﴿ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴾ [الأحقاف: ١١]

شنشنة نعرفها من أخزم!

ولكن حيث يطلقها غيره من المستشرقين ليشككوا فى صدق الوحى فحسب، ويزلزلوا بها عقائد المسلمين الذين يتأثرون بهم، ويأخذون كلامهم مأخذ الجد، يهدف هو إلى هدف بعيد، يتبين كلما توغل الإنسان فى القراءة، إذ يقول - بالتلميح الذى يقرب من التصريح - إن ما تتشبثون به أيها المسلمون على أنه - حرفيا - كلام الله، ليس وحيا فى الحقيقة، إنما هذا وهم توهمتموه، وقد أدى تشبثكم به إلى ما أصابكم من ضعف وتخلف، فلا عليكم أن تنفضوا أيديكم منه، وتغيروه بما يناسب الأوضاع القائمة اليوم، ويكون لكم بذلك «إسلام جديد» يمنحكم التقدم والقوة والرقى!

وفى صفحة (١٠) يشكك فى المصدر الثانى من مصادر الإسلام وهو السنة النبوية، فيقول إنها من وضع المسلمين فى وقت لاحق لحياة الرسول ﷺ، وإنما صاغوها من خيالهم لتناسب صورة متخيلة لما ينبغى أن يكون عليه الرسول ﷺ، فنسبوا إليه صفات لم تكن له، إنما هى الصفات النموذجية التى تخيلوها، ونسبوا إليه أقوالا ليست له، إنما هى الأقوال التى تخيلوا أن الرسول الموحى إليه من عند الله ينبغى أن يقولها فى شتى الموضوعات!

فإذا كان هذا شأن الكتاب وشأن السنة فماذا بقى من الإسلام؟!

ليس العجب أن يقول ما يقول!

إنما العجب أن تغشى أبصار قوم يقولون عن أنفسهم إنهم مسلمون، ثم يقولون عن هذا المستشرق وأمثاله إنهم قوم نزيهون، يبغون البحث الموضوعى الخالص ولا يلتوون ولا يغالطون؟

* * *

فيما بين الضربة الأولى المتعلقة بالقرآن والضربة الثانية المتعلقة بالسنة، يضرب ضربة أخرى فى صفحة (٧) يقول فيها عجبا من العجب!

يقرر أولا قاعدة عامة مفادها أن التفوق فى بعض الجوانب كثيرا ما يكون ناشئا عن نقص فى جوانب أخرى! ثم يقول إن المنهج التجريبى فى البحث العلمى، الذى استحدثه المسلمون وكان سببا فى التقدم الهائل الذى حدث فى ميدان العلوم، ناشئ من عيب فى الطبيعة العربية (!!) فهى طبيعة حسية جزئية تدرك الحالة المفرده وتعجز عن إدراك الكليات، وتميل إلى التعامل مع المحسوس وتعجز عن التجريد !!

أرأيت!

أرأيت إلى الحقد الكائن فى نفوس الغرب من أن يكون للمسلمين أى تفوق يذكرون به؟!

لو أن المنهج التجريبى فى البحث العلمى كان مما اهتدت إليه أوربا، وسبقت به، كم كان كتابها سيشيدون به، وبعظمة أوربا التى اهتدت إليه، وبالعبقرية الفذة التى أنتجته، وبالدلالة الواضحة على الذكاء والتفوق، والأهلية للسيادة والريادة، وقيادة البشرية!

أما والمسلمون هم الذين استحدثوه، ولا سبيل إلى إنكار ذلك أو تجاهله، فليكن الأمر عيبا ونقصا فى المسلمين، والنقص قد يؤدى إلى التفوق ... ولكنه تفوق معيب منقوص !!!

ذلك هو الغرور الأوربى المقيت، الذى يستنكف أن يكون لأحد مزية غيرهم. فإذا أضيف إليه الحقد الصليبى، فالنتيجة هى ما ترى من كلام المستشرقين!

إن المنهج التجريبى فى البحث العلمى هو ثمرة ناضجة من ثمار الإسلام!

فلم يكن للعرب قبل إسلامهم أى اتجاه علمى، نظرى ولا تطبيقى،

والإسلام هو الذى دفعهم إلى النظر فى ملكوت السموات والأرض، والتدبر فى آيات الله فى الكون. والإسلام كذلك هو الذى دفعهم إلى تحقيق التسخير الربانى لما خلق الله فى السموات والأرض لفائدة الإنسان :

﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾ [الجاثية: ١٣]

﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ ﴾ [الملك: ١٥]

﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ... ﴾ [الإسراء: ١٢]

كلا! إنه ليس منهجا «عربيا» ناشئا من عيب فى الطبيعة العربية، إنما هو منهج «إسلامى» ناشئ من اكتمال هذا الدين وعظمته، وشموله كل جوانب الحياة، الحسى منها والمعنوى، النظرى منها والتطبيقى .

ولا يستحى المستشرقون - ومن بينهم جب - وهم يرمون المسلمين بالنقائص التى من بينها العجز عن التجريد واستخلاص الكليات، أن يقولوا - كما يقول جب فى هذا الكتاب الذى نحن بصدده - إن «عيب» المسلمين أنهم يتصورون الله فى صورة فوقية سامية تجريدية Transcendent بينما «مزية» أوربا فى نهضتها الحديثة أنها تصورت الله فى صورة قريبة محسوسة واضحة فى الكائنات Immanent وإن تصور المسلمين هذا - الذى يصرون عليه لعيب فيهم (!) - كان مناسبا للعصور الوسطى، بينما المناسب للعصر الحديث هو التصور الأوربى !!

* * *

فى صفحة (١٦) يعترف بالمرونة فى هذا الدين، ولكنه يرجعها إلى عيب فى طبيعة البيئة، هو عدم القدرة على الدقة والانضباط !!

وفى أماكن أخرى من الكتاب يعيب على المسلمين الحرفية فى تطبيق تعاليم الإسلام، والتزمت فى التعامل مع نصوصه !!

أى أنه العيب من هنا والعيب من هناك، ولا توفيق هنا ولا توفيق هناك!

﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾ [البقرة: ١٢٠]

* * *

فى صفحة (١٩) يتحدث عن المعركة التى قامت بين الإسلام والثقافة الإغريقية، وانتصر فيها الإسلام انتصارا حاسما على الثقافة الإغريقية، ولكنه يرتب على ذلك جمود الإسلام بعد ذلك، وعدم قدرته على الترقى، بينما ارتقى الغرب بسبب تزوده بالثقافة الإغريقية!

وانتصار الإسلام لم يكن لأى تفوق فى تفكير المسلمين، إنما كان لعيب فى تكوينهم (!) جعلهم يتعلقون بالحقائق القرآنية تعلقا وجدانيا، وليس عقلانيا كما تفعل الثقافة الإغريقية!

* * *

فى صفحتى (٢٤ - ٢٥) يعتبر القرنين السابع عشر والثامن عشر (الحادى عشر والثانى عشر الهجريين) قمة النشاط الإسلامى، ولا يوافق من يقول إنها كانت فترة انتكاس وتقلص بسبب نشاط الصوفية !! ويقف يدافع دفاعا حارا عن الصوفية و« جهادها » فى إحياء الإسلام!

ومن الحق أن يقال إن العقيدة كانت تقدم للناس فى قالب جاف يفتقد الحيوية والنداوة الروحية، ويحول العقيدة إلى قضايا ذهنية جافة، لا يجد فيها العامة إشباعا لوجدانهم الروحى، وأن الصوفية هى التى قامت بتغذية هذا الوجدان، كما أن الصوفية هى التى حافظت على ترابط العالم الإسلامى حين جنحت الخلافات السياسية إلى التباعد والتمزق ... ولكن هذا لا ينفى انحراف الصوفية فى جانب العقيدة وفى جانب السلوك. ففى جانب العقيدة دخلت مفاهيم مخالفة للتوحيد الخالص الذى جاء به الإسلام، سواء فى عقيدة الحلول أو الاتحاد أو وحدة الوجود، وكلها لا أصل لها فى الإسلام، ولا تتقبلها عقيدة التوحيد، وفى جانب السلوك حل التواكل السلبى المريض محل التوكل الصحيح

مع اتخاذ الأسباب، فتأخر العالم الإسلامى فى جميع المجالات العملية الواقعية المتصلة بالحياة الدنيا، بزعم توثيق الصلة بالله واليوم الآخر، بينما الإسلام يدعو إلى بذل كل النشاط الحيوى فى واقع الأرض، مع الاتجاه فى الوقت ذاته إلى اليوم الآخر، ليتوازن الإنسان ما بين قبضة الطين ونفخة الروح، وليتكامل تكوينه كله ويترابط، فلا يجنح من هنا ولا من هناك:

﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ [ص: ٧١ - ٧٢]

﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴾ [الملك: ١٥]

﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ﴾ [القصص: ٧٧]

أما دفاع المستشرقين عن الصوفية فهو مفهوم ... فكل انحراف عن الخط السليم هو مكسب لهم فى معركتهم ضد الإسلام.

* * *

وفى صفحة (٢٥) يعود فيقرر أن الإسلام كان يضعف ويتقلص فى ذات الفترة التى نفى عنها منذ هنيهة أنها كانت فترة ضعف وانحسار، وذلك لينفى أن الضعف جاء نتيجة الغزو الأوربى للعالم الإسلامى، وسوء أحوال المسلمين فى ظل الاحتلال. ولا يبالى أن يتناقض كلامه فى الصفحة الواحدة فى القضية الواحدة. فلكل مقام مقال! المقام الأول كان دفاعا عن الصوفية لأسباب مفهومة، والمقام الثانى كان دفاعا عن الغزو الصليبى للعالم الإسلامى لأسباب مفهومة كذلك! ولا حرج أن تجئ الضربة الآتية من اليمين مضادة فى اتجاهها للضربة الآتية من اليسار، فالمهم هو الضرب من كل الجوانب، إرواء لأحقاد الصليبية الصهيونية، التى لا يهمها «المنطق العقلانى» بقدر ما يهمها التدمير!

* * *

في صفحتى (٣٧ – ٣٨) يبدى أسفه على ما فقدته الصوفية من نفوذ بسبب الصحوة الإسلامية، ولكنه يعود فى نفس السياق فيبدى سروره من أن نفوذها ما زال باقيا فى صفوف العامة بسبب « حيويتها الفائقة ! ! »

* * *

في صفحة (٤٢) يقول إن التوسع فى التعليم الابتدائى والثانوى (فى مصر) أنتج اتجاها علمانيا متزايدا، وجعل التعليم يتفرق إلى تعليم دينى وتعليم علمانى، وأوجد وضعا تتصارع فيه مدرسة إزاء مدرسة وجامعة إزاء جامعة !

وهذا حق يراد به باطل ضخم !

فما الذى جعل التعليم ينقسم على هذه الصورة، التى يتصادم فيها تياران متضادان فى بلد واحد ؟ هل حدث ذلك من تلقاء نفسه كما يريد أن يوحى إلى القارئ ؟ ! أم كان ذلك بفعل الاستعمار وبقصد منه ؟ ! وماذا كان يفعل دنلوب – القسيس – وماذا كان يقصد حين وضع سياسته التعليمية، التى تخرّج علمانيين لا يعرفون عن إسلامهم إلا الشبهات التى يثيرها المستشرقون، ولا يعرفون عن تاريخهم إلا أسوأ ما فيه، بينما تسلط الأضواء أمامهم على أوربا، وحضارتها، وقيمها، ومفاهيمها، وتقدمها فى كل ميدان، وتخفى سيئاتها كلها التى فى مقدمتها الاستعمار وبشاعاته ؟ !

فهل كان التوسع فى التعليم – من ذات نفسه – هو الذى أنشأ هؤلاء العلمانيين النافرين من الدين، أم كان الحَقْنُ المسموم الذى يحقن به الطلاب فى كل درس من الدروس ؟

وعلى أى حال فقد عاش المؤلف حتى رأى بدايات الأجيال التى خرّجتها الصحوة الإسلامية، التى كان المتفوقون فيها فى الكليات العلمية العلمانية : الطب والهندسة والعلوم، هم أصحاب الاتّجاه الإسلامى، الذين أنقذتهم الصحوة مما يراد لهم من البعد عن الدين !

* * *

فى صفحة (٤٥) يقول إن علماء اللاهوت فى المسيحية الأوربية طوروا نظرتهم إلى الكتب المقدسة بحسب نظرية التطور، والنظرية التاريخية، فأدركوا أنها كانت حلقة فى عملية نمو مستمرة لا تتوقف، ولا تعطى الكلمة النهائية فى الأمور، وعلى ذلك تكون ممثلة لعصرها ولا زيادة، وهو عصر يختلف تماما عن عصرنا.

وفى صفحة (٤٧) يقول إن علماء اللاهوت فى الغرب المسيحى قد أعادوا تشكيل الفكر الدينى عندهم بما يتمشى مع الفلسفات المعاصرة والنظرة التاريخية، ولكن لم يحدث مثل ذلك فى الإسلام إلا فى الحدود الضيقة التى قام بها محمد عبده!

فما الذى قام به محمد عبده على وجه التحديد؟! وما المطلوب من علماء المسلمين فى الوقت الحاضر؟

إن أوربا حرة تصنع فى دينها ما تشاء. ولكن ماذا عن الإسلام؟

لقد اختلط فى الدين الأوربى ما كان منزلا من عند الله، وما أضافه البشر من عند أنفسهم، وزعموا أنه من عند الله.

﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾ [البقرة: ٧٩]

﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران: ٧٨]

فإذا وجدت أوربا فى يوم من الأيام أن الأفكار المستمدة من دينها لا تتفق مع العصر، أو أنها تحتاج إلى إعادة النظر، أو إلى التبديل الكلى، فهذا شأنها مع دينها، تفعل فيه ما تشاء. أما الكتاب المنزل من عند الله، الذى لم يختلط بحرف واحد من أقوال البشر، فما المطلوب من المسلمين تجاهه؟

أما التفسير العقلانى الذى أراده محمد عبده، وفسر فيه المعجزات بما ينفى

المعجزة ويحيلها إلى السنن الجارية، فالطير الأبابيل جراثيم الجدرى، وانقسام البحر ﴿ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴾ [الشعراء: ٦٣] إنما هو مد وجزر، ففى الجزر مر موسى ومن معه من بنى إسرائيل حتى إذا جاء فرعون وجنوده كان المد قد عاد فأغرقهم . . . إلخ، أما هذا التفسير فقد رفض فى حينه، وما يزال مرفوضا حتى اللحظة، وهو يمثل هزيمة أمام « عقلانية » الغرب الحسية المادية التى لا تؤمن إلا بما تدركه الحواس، وتعتقد بحتمية « قوانين الطبيعة » وأن الله سبحانه وتعالى مقيد بها لا يستطيع أن يغيرها حتى لو أراد كما قال نيوتن! [١] والمسلم الذى يعرف قدرة الله التى لا تحد، لا يخضع عقله لهلوسات العقلانية المادية التى صار إليها الغرب لظروف خاصة به. ومهما يكن من حسن النية عند محمد عبده، وأنه كان يريد أن يدافع عن الإسلام ضد الهجوم الشرس الذى كان الغرب عن طريق المنصرين يوجهه للإسلام، والذى كانوا يقولون فيه إن القرآن ملئ « بالخرافات! » . . . فإن هذا لا يبرر للمسلم أن يتراجع عن مقتضيات إيمانه بالله، وعظمته، وقدرته، ليجارى سفاهة السفهاء المطموسى البصيرة، الذين يظنون بالله ظن الجاهلية، فيحسبونه عاجزا عن أعمال قدر سبحانه على أعظم منها وأجلّ!

﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ [الزمر: ٦٧]

* * *

فى صفحة (٤٩) يزعم – دفاعا عن الغرب وسموم العلمانية التى بثها فى العالم الإسلامى فى مناهج التعليم ووسائل الإعلام – يزعم أن تلك العلمانية لم تؤثر تأثيرا يذكر على الناحية الاعتقادية عند المسلمين!

وقد نعذره حين نعلم تصور الغرب لأمور العقيدة، ومحدوديتها، وتعلقها بأمور الآخرة وحدها. ولكنا لا نعذره من جانب آخر حين نعلم أنه يعرف حقيقة هذا الدين، وأن الدين والدولة فيه شئ واحد لا ينفصلان، وأن تحكيم الشريعة الربانية هو جزء لا ينفصل عن العقيدة، كما ذكر هو نفسه فى الكتاب!

---

(١) اقرأ عن قولة نيوتن هذه إن شئت فى فصل « العلمانية » من كتاب « مذاهب فكرية معاصرة ».

﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٤٦]

فما دام يعرف أن العقيدة والشريعة (أو الدين والدولة كما يحلولهم أن يعبروا) لا ينفصلان عن بعضهما البعض فى هذا الدين (كما أقر هو نفسه فى صفحة ٨٩) ويعلم فى الوقت ذاته أن الغرب المستعمر قد فرض على المسلمين فصل الدين عن الدولة، وحصر الدين فى أمور الآخرة وحدها – باسم العلمانية – فكيف يقول إن العلمانية – المجلوبة من الغرب – لم تؤثر تأثيرا يذكر فى الناحية الاعتقادية عند المسلمين؟!

* * *

فى صفحة (٥٠) كلام مبطن بالأسف (أم بالحقد؟) لكون الأبحاث العقلانية النقدية قد تناولت السنة النبوية، ولكنها حتى الآن لم تتناول القرآن! وبقى القرآن فى حس المسلمين غير قابل للتبديل ولا التغيير، وما زال فى حسّهم ملزما فى الوقت الحاضر كما كان قبل ألف عام!!

أليس هذا تحريضا واضحا على التعرض للقرآن بالنقد الذى يزيل عنه القداسة والإلزام، وهو ما يقوم به تلاميذ المستشرقين شر قيام؟!

* * *

فى صفحة (٥١) يزعم أن العلمانية لم تأت إلى المسلمين من النفوذ الغربى فقد كانت موجودة من قبل حتى فى إسلام « العصور الوسطى » كما يجرى اصطلاح المستشرقين ، ثم إنها وجدت فى العالم الإسلامى ردَّ فعلٍ لانحرافات الصوفية. . ثم يحاول تغطية الفساد القادم من الغرب مع العلمانية بأنه جاء على كيان مخرب بالفعل . ثم يضطر فى النهاية إلى الاعتراف بأن علمانية الغرب قد أحدثت فسادا فى التفكير والسلوك فيمن تأثروا بها كالفساد الذى أحدثته فى الغرب ذاته حين لم يعد فى قلوب الناس حساب للآخرة ولا خوف من عقاب الله في اليوم الآخر !

ثلاثة مواقف مختلفة فى صفحة واحدة من كتاب واحد ، يلاحظ فيها التلوى من موقف إلى موقف إلي موقف ، كالتواء المتهم الذى يحاول أن يتملص من تهمة لاصقة به ! ومع ذلك يزعمون أنه بحث « علمى » « موضوعى » « برئ »!

إن القول بوجود العلمانية فى «إسلام القرون الوسطى» فرية تحمل فى طياتها مغالطة ضخمة لا يجيدها إلا المستشرقون ! فما أبرز سمات العلمانية التى تميزها لأول وهلة عن المفاهيم الدينية ؟ إنها فصل الدين عن الدولة .. فهل حدث ذلك في إسلام تلك الفترة ؟ أى - بتعبيرنا نحن - هل وقع المسلمون في هذه الخطيئة التى تقسم الأمور إلي دنيوى وأخروى ؛ وتبعد الدين عن أمور الدنيا وتحصره فى أمور الآخرة ؟!

المغالطة - المقصودة - هنا أن الإسلام - دائمًا في كل عهوده - يشمل أمور الدنيا وأمور الآخرة معًا فى آن واحد ، مترابطتين متشابكتين لا تنفصل إحداهما عن الأخرى . «وجب» نفسه يعرف ذلك جيدا ، ويردده فى أكثر من موضع فى كتابه (وخذ مثلا على ذلك ما جاء فى صفحة ٨٩ من الكتاب) فوجود الجانب الدنيوى فى تشريعات هذا الدين وتوجيهاته أمر أشهر من أن يشار إليه ، أما تسمية هذا «علمانية» للزعم بأن العلمانية كانت موجودة فى الإسلام قبل الغزو الأوربى ، ولم تأت إليه من الخارج ، فمغالطة مكشوفة ، ولعب بعقول القراء قبل أن يكون لعبا بالألفاظ !

أما الخراب الذى كان قائما فى «البيت الإسلامى» كما عبر «جب» ، ويقصد به الكيان الإسلامى بصفة عامة ، فقد كان سببه تحول الإسلام فى حياة الناس إلي تقاليد تراعى لذاتها دون أن يكون لها الأثر الحىّ فى النفوس ، الذى يدفعها إلي السلوك الإسلامى الصحيح ، وهذا كان موجودا بالفعل ، وكان فى حاجة إلى إصلاح عميق ، بتجديد صلة الناس بدينهم ؛ ليصبح سلوكهم نابعا من ضمير حىّ ؛ لا مجرد مراعاة للتقاليد . ولكن قبل أن يحدث هذا (وقد حدث فى موعده المقدور عند الله مع حركات البعث الإسلامى التى عملت على تجديد صلة الناس بدينهم) جاءت العلمانية الأوربية مع الغزو العسكرى ، فلا هى أعطت العلاج للمرض القائم ، ولا هى تركته على حاله ، بل أضافت إليه أمراض الانحلال الخلقى التى تصحب العلمانية أينما حلت ، والتى أشار إليها جب نفسه ، وقال إنها تحدث نتيجة عدم الإيمان بالآخرة - أو عدم الاهتمام بشأنها - وعدم الشعور بالخشية من عقاب الله .

فأين هذه الرؤية الواقعية للتاريخ من التواءات جب ، التى يريد بها مجرد تبرئة الغرب من إفساد حال المسلمين ، بصرف النظر عن وقائع التاريخ ؟ وليجب من شاء على سؤال واحد من أسئلة كثيرة : لماذا حرص الاحتلال الأوربى على تنحية الشريعة الإسلامية فى كل بلد دنسته قدماه ؟!

* * *

فى صفحة (٨٦) يعترف - بعد كلام طويل - بهزيمة الكنيسة الأوربية أمام القانون الرومانى . ثم يقول إنها عندما كانت على وشك الانتصار عليه وقعت فى يد خصمين عنيدين ، أحدهما « النزعة الإنسانية Humanism » ، والآخر « العلم Science » ، وأنها انهزمت أمامهما أيضًا .

وهذا الاعتراف فى ذاته جيد ، وهو ما يميز مدرسة « جب » عن المدارس السابقة التى ترمى الإسلام بكل نقيصة وتصف الغرب بكل فضيلة ولو كان عاريا منها .

نعم ! ولكنه اعتراف ناقص ، ومشوب كذلك !

فالكنيسة الأوربية فى أول عهدها كانت مغلوبة على أمرها بالفعل ، لا تملك أمرها إزاء الإمبراطورية الرومانية الطاغية الجبارة التي تضطهد الدين الجديد وتحارب أهله وتتعقبهم بالقتل والتشريد فى أرجائها الواسعة . ولكنها منذ القرن الرابع ، منذ اعتناق قسطنطين للنصرانية (أو تظاهره باعتناقها) سنة ٣٢٥ م ، بدأ نفوذها يبرز حتى صار البابا هو المسيطر على الإمبراطورية الرومانية ، حكامها ومحكوميها على السواء، وظل هذا النفوذ قائما حتى القرن الثانى عشر على الأقل، فلماذا لم تفكر الكنيسة فى فترة سيطرتها فى تحكيم الشريعة الربانية بدلا من القانون الرومانى ؟! إنما كان البابوات مشغولين بفرض نفوذهم الشخصى ، وسلطانهم الذاتى ، عن تحكيم الشريعة الربانية الواردة فى إنجيلهم والتى قال الله عنها : ﴿ **وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ** ﴾ [المائدة : ٤٧] .

على أن أمر الكنيسة الأوربية هذا لا يعنينا فى شئ ، إنما هو تعليق عابر على كلام « جب » الذى يجافي وقائع التاريخ .. ولكننا نقف وقفة عند قوله : إن الكنيسة وقعت فى يد خصمين عنيدين : النزعة الإنسانية والعلم .

فلماذا كان هذان الخصمان العنيدان عدوين للكنيسة ؟!

لو كان الدين الذى اعتنقته الكنيسة يعطى « الإنسان » قدره ويلبى إحساسه بذاته وبإيجابيته ، وفى الوقت ذاته لا يعادى العلم والبحث العلمى، فهل كانت هاتان النزعتان الفطريتان تقفان موقف العداء من الكنيسة ، ومن الدين الذى تقدمه للناس ؟!

إنما نشأت « النزعة الإنسانية » فى أوربا ردَّ فعلٍ للتصور الكنسى للدين، الذى يحقّر الإنسان ، ولا يراه إلا خاطئا منحرفا ، قاصرا مقصرا ، لا أمل فى صلاحه إلا بكبت نوازعه الحية كلها - بالرهبانية - والانخلاع من الحياة الدنيا جملة ، والتفرغ للآخرة .. فمن أجل تمجيد الله - فى تعاليم الكنيسة - يحقر « الإنسان » ومن أجل تمجيد الآخرة تلعن الحياة الدنيا ، ومن أجل تمجيد الروح يلعن الجسد . وحين وقع التمرد على هذا التصور - أيًّا كانت أسبابه - مُجِّد الإنسان بدلا من الله (١) ، ومجّدت الحياة الدنيا بدلا من الآخرة ، ومجّد الجسد بدلا من الروح ، وانقلبت أوربا فى موقفها مائة وثمانين درجة كاملة ، من أقصى اليمين إلي أقصى اليسار !

ثم جاءت الطامة حين وقفت الكنيسة تحارب العلم بوحشية لا مثيل لها ، فتحرّق العلماء أحياء لأنهم قالوا بكروية الأرض ، وبأن الأرض ليست مركز الكون ! فوقع الصراع بين العلم والدين - وانتصر العلم - كما وقع من قبل بين « النزعة الإنسانية » وبين الدين ، وانتصرت النزعة الإنسانية !

---

(١) ليس مفهوم « النزعة الإنسانية » - كما يظن بعض الناس حين يقرأون هذا التعبير - الاهتمام بأمور الإنسان ، إنما معناه الأمور التى يؤخذ العلم فيها من الإنسان لا من الوحى الربانى ، فهى نزعة لا دينية منذ مولدها ، ولهذا قام الصراع بينها وبين الكنيسة ، وانهزمت الكنيسة في الصراع كما يقرر « جب » !

وكان ينبغى لجب – لكى يكون بحثه نزيها وخالصا للحق – أن يذكر هذه الوقائع التاريخية ، ويذكر فى مقابلها موقف الإسلام من هذين الأمرين بالذات ، ذلك الموقف الذى يشهد للإسلام بأنه الدين الصحيح ، الشامل المتوازن ، الذى يحقق « للإنسان » كيانه ، ويحقق للبشرية التقدم والازدهار ، لأنه « دين الحق » :

﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ... ﴾
[الصف : ٩]

إن تمجيد الإسلام لله سبحانه وتعالى ، وتقديسه له ، وتعظيمه وتوقيره ، وإفراده بالألوهية والربوبية ، وإخلاص العبادة له وحده دون شريك ، أوضح من أن يحتاج إلى دليل . ولكن تكريم الإسلام للإنسان واضح كذلك ، أوضح من أن يحتاج إلى دليل :

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾ [الإسراء : ٧٠]

لذلك لم يكن المسلم فى حاجة إلي « نزعة إنسانية » معادية للدين لإثبات وجوده ، فوجوده متحقق من خلال دينه ، وتكريمه منصوص عليه فى هذا الدين، وفاعليته ، وإيجابيته مقررة فيه ، فقد أسند إليه هذا الدين عمارة الأرض :

﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ [هود : ٦١]

﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ ... ﴾
[الملك : ١٥]

وأسند إليه كذلك مهمة عظمى هى « الجهاد » لإقامة العدل فى الأرض ومقاومة الطغيان :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [الصف : ١٠، ١١]

﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ﴾ [الأنفال : ٣٩]

﴿ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ [البقرة : ٢٥١]

﴿ وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴾ [النساء : ٧٥]

وكان من أكبر دلائل التكريم أن أعطاه حرية الاختيار ، مقابل المسئولية عن الاختيار :

﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة : ٢٥٦]

أما « العلم » فلم يقم فى ظل الإسلام صراع بينه وبين « الدين » . بل كان من مزايا هذا الدين ومفاخره أنه هو الذى دفع المسلمين للبحث العلمى ، وهو الذى وجههم إلي المنهج التجريبى فى البحث العلمى ، الذى تقوم عليه كل النهضة العلمية المعاصرة ... ولم يقم قط فى حياة المسلمين ذلك الفصام النكد الذى أحدثته الكنيسة في حياة أوربا ، والذى مزّق « الإنسان » هناك بين نزعتين فطريتين فى كيانه : نزعة العبادة ، ونزعة التعلم ، وإنما آخى الإسلام بينهما ، فحقق السلام للنفس من داخلها ، وأطلق طاقتها معمرة بانية فى واقع الأرض : تعبد الله فى طمأنينة ، وتسعى إلي التعرف علي الكون المادى ، لتسخير طاقاته المكنونة لخدمة الإنسان :

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ [الرعد : ٢٨]

﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾ [الجاثية : ١٣]

﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ [البقرة : ٣١]

﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ ﴾ [النحل : ٧٨] . (أى لتتعلموا) .

لذلك لم يكن المسلم فى حاجة إلى « علمانية » معادية للدين لكى يعمر الأرض ، وينظم شئونها ، فدينه هو الذى يأمره بعمارة الأرض ، ودينه هو الذى يبصره بالنظام الذى يتبعه ليحفظ الأرض من الفساد .

والنظرة المنصفة ترى هذه الحقائق كلها ، لأنها واضحة فى هذا الدين .. ولسنا نتوقع الإنصاف من المستشرقين بطبيعة الحال .. ولكننا نعجب للذين يحملون أسماء إسلامية كيف يسمحون لأنفسهم أن يفتنهم المستشرقون عن دينهم ، وأن يتجرعوا سمومهم ، ويتبعوا خطاهم « حتى إن دخلوا جحر ضب دخلتموه !! »[1] .

* * *

فى فصل « دين العصرانيين Modernist Religion »[2] من صفحة (٦٣) إلي صفحة (٨٤) يركز على فكرة واحدة هى فكرة « التطور » ، وأن الفكر الدينى يجب أن يتطور مع تطور الفكرى البشرى !

ولو كان فى هذا الفصل يتكلم عن تطور الفقه (وقد تكلم عنه فى فصل لاحق) لكان لكلامه مناسبة . ولكنه يتكلم هنا عن العقيدة .. ويطلب تطويرها !

كيف بالله تتطور العقيدة ؟!

إن العقيدة الربانية لم تتطور منذ آدم ونوح والنبيين من بعده إلى محمد

---

(١) من حديث أوله : « لتتبعن سنن مَنْ قبلكم .. » أخرجه مسلم.

(٢) يقصد التصورات الدينية عند المسلمين المتأثرين بروح العصر ويريدون أن يفسروا الإسلام تفسيرا عصريا !

صلوات الله وسلامه عليهم ، ولا مجال فيها للتطور إلى قيام الساعة . . إنما الذى تطور حقا خلال التاريخ هو عقائد الجاهلية !

تطورت عقائد الجاهلية - فيما يقولون - من عبادة الأب ، إلى عبادة الطوطم [1] ، إلى عبادة قوى الطبيعة من ريح ورعد وبرق إلي عبادة الأفلاك ، إلى عبادة البشر ، إلى عبادة الأصنام . . . وكلها من عبادة الشيطان .

أما الدين السماوى الذى جاءت به الرسل من عند الله فهو - في العقيدة - واحد لا يتغير وإن تغيرت الشرائع ، فكل الرسل جاءوا يقولون كلمة واحدة هى « لا إله إلا الله » ويدعون إلى دين واحد خلاصته :﴿ **اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ** ﴾ .

﴿ **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ * أَن لاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ** ﴾

[هود : ٢٥ ، ٢٦]

﴿ **وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ** ﴾

[هود : ٥٠]

﴿ **وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ** ﴾

[هود : ٦١]

﴿ **وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ** ﴾

[هود : ٨٤]

فكيف تتطور هذه العقيدة وهى حقائق أزلية غير قابلة للتغيير : الله هو الخالق ، وبقية الكائنات جميعا من خلق الله سبحانه وتعالى ، فواجبها أن تعبد الإله الخالق ولا تشرك به .

يقول جب : إن تصور الإله يختلف بحسب أحوال البشر ، ويتطور من

---

(١) حيوان أو طائر تعبده القبيلة وتظن أن بينه وبينها قرابة !

وضع إلي وضع ، وإن الإله الذى عبده الناس فى القرون الوسطى هو الإله المتعالى المتسامى Transcendent ، أما الإله الذى يعبده المحدثون فهو الإله الظاهر القريب Immanent ، وهذا يعتبر تطورا في العقيدة بما يناسب أحوال الناس !

ولتقل أوربا فى دينها ما تشاء !

أما المسلم الذي يتلقى العلم من كتاب الله ، فهو يجد كتاب الله يصف الإله سبحانه وتعالى بأنه هو الظاهر والباطن ، الكبير المتعال ، الذى لا تدركه الأبصار ، والذى ليس كمثله شئ ، والذى هو في الوقت نفسه قريب مجيب ، أقرب إلي الإنسان من حبل الوريد ، ولا تناقض فى حس المسلم بين كل هذه الصفات والأسماء :

﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴾ [الرعد : ٩]

﴿ لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾[الأنعام : ١٠٣]

﴿ ... لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [الشورى : ١١]

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾

[البقرة : ١٨٦]

﴿ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾ [هود : ٦١]

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ [ق : ١٦]

﴿ هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [الحديد : ٣]

فأى تطور يمكن أن يدخل على هذه العقيدة أو يضيف إليها أو يعطيها تفسيرا غير تفسيرها ؟!

* * *

فى صفحة (٨٩) مغالطة من أعظم مغالطاته فى الكتاب !

فبعد كلام جيد جدا عن طبيعة الشريعة فى الإسلام ، وشمولها لكل جوانب الحياة ، واعتبار الالتزام بها متعلقا بالعقيدة (مما يجادل فيه « المثقفون » العلمانيون اليوم!) يقول إنه من الوجهة العملية كان كثير من أحكام الشريعة غير معمول به فى الواقع ، وهذا يفسر « السهولة » التى أدخلت بها القوانين الأوربية فى العالم الإسلامى ، ونحيت بها الشريعة !

يا عجبا !

ألم تقع معارك من أجل الشريعة بين أهل البلاد وبين المحتل الذى يريد تنحيتها ؟ أو لم يستخدم الغزاة قوتهم العسكرية لتنحية الشريعة وإخماد المقاومة التى قامت بها الشعوب الإسلامية من أجلها ؟ فأين هى « السهولة » التى تم بها الأمر ؟!

إنما سهل الأمر فى نفوس الأجيال التى خرجتها السياسة التعليمية والإعلامية التى وضعها الاحتلال الصليبى الصهيوني لتحويل المسلمين عن دينهم، ولىّ أعناقهم نحو أوربا ، واحتاج الأمر إلي زمن مديد حتى خضع الناس للأمر الواقع الذى فرضه ذلك الاحتلال بالقوة الجبرية .

ومع ذلك فقد قامت الصحوة رغم كل الظروف المعاكسة ، وكان أول شئ طالبت به هو تحكيم شريعة الله !

أما قصة الأحكام التى لم تكن تطبق على أرض الواقع فقصة مختلفة تماما عما يريد « جب » أن يقول !

لقد وقع التهاون فى التطبيق على أصحاب الجاه والسلطان ، انحرافًا عن الدين ، لا إهمالا للشريعة فى ذاتها ، أو رغبة عنها إلي غيرها . وذلك مما حذّر الرسول ﷺ المسلمين منه ولكنهم وقعوا فيه . فقد قال لزيد رضى الله عنه حين أراد أن يشفع للمخزومية التى سرقت : « أتشفع فى حدٍّ من حدود الله ؟! إنما هلك من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم

الضعيف أقاموا عليه الحد ! والذى نفسى بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها »[1] .

ولكن المسلمين تهاونوا كما تهاونت شعوب قبلهم ، فكانوا إذا ارتكب الجريمة أصحاب الجاه تركوهم ، وإذا ارتكبها الضعفاء وقعوا عليهم العقاب .

ولكن هذا الأمر على سوئه لا علاقة له بالشريعة من حيث هي الشريعة ! فإنه لما جاءت القوانين الوضعية بقى الأمر على حاله من إعفاء ذوى الجاه من العقاب على جرائمهم وتوقيع العقاب على الضعفاء . بل زاد الأمر سوءا حين ارتفع سلطان الدين عن النفوس فى ظل العلمانية ، وصارت الرشوة وسيلة لكل مخالفة ووقاية من كل عقاب !!

* * *

فى صفحتى (٨٩ - ٩٠) يتحدث عن قوانين الأحوال الشخصية وأنها لم تتأثر بالزحف الغربى ، ويرجع ذلك إلي أنها واضحة ومحددة فى القرآن !

وهو تعليل غريب ! فهل هذه وحدها هى الواضحة المحددة فى القرآن ؟ وهل هناك غموض فى بقية أحكام الشريعة ؟!

وليس عندى فى الحقيقة تعليل لبقائها تلك الفترة الطويلة بغير إلغاء ! (وإن كانت قد تناوشتها أقلام « التقدميين » و « التقدميات » منذ فترة) وقد يكون السبب هو أن الحاكم لم يشأ أن يثير ثائرة الجماهير المتشبثة بها ، بينما هى لا تضيره إن بقيت على حالها ، لأنها لا تمس سلطانه المباشر ، فالأكسب له أن يبقيها لتكون ستارا له حين يدعى أنه ليس ضد الشريعة من حيث المبدأ !

وأيًّا كانت الأسباب ، فجب يرى فى الأمر رأيا آخر . .

فهو يقول إنه حتى الآن ما يزال الاعتقاد عند المسلم أن القرآن كلام الله ، ومن ثم يجب الالتزام به حرفيا . ثم يقول إنه ما دام الأمر كذلك ، والشريعة ثابتة لا تقبل التغيير ، بينما الحياة دائمة التغير لا تثبت على صورة واحدة ، فستظل الأزمة باقية ، لا يمكن حلها إلا بعمل ثورى كالذى صنعته تركيا !

---

(١) أخرجه مسلم.

وواضح فى هذه العبارات مدى حنقه على اعتقاد المسلمين أن القرآن كلام الله ، وحنقــه على أن هذا الوضع لم يتــغــيــر - مع كل مــا بذله المنصــرون والمستشرقون والاحتلال العسكرى الطويل - ومدى رغبته فى حدوث ثورات ضد الدين كالتي حدثت فى تركيا ، لتريح الصليبية الصهيونية من همّ الإسلام !

* * *

من صفحة (٩١ إلي صفحة ٩٦) يثير كبقية المستشرقين قضية المرأة ، وظلم الإسلام لها ، وعدم مساواتها فى الميراث مع الرجل ، وإعطاء الرجل حق الطلاق وتعدد الزوجات . ويسخر من محاولات « العصرانيين » إعادة تفسير النصوص القرآنية بما يثبت أن الإسلام لا يظلم المرأة ، ويعطيها كيانها الإنسانى ، فيقول إنهم يتحايلون على النصوص ، بينما النصوص صريحة لا تحتمل التأويل ! ومعنى كلامه أن العيب هو فى النصوص ذاتها وليس فى فهم الفقهاء القدامى لها، كما يحاول « العصرانيون » أن يقولوا ! والواجب فى رأيه هو تغيير النصوص أي استبدال غيرها بها .

ويبدى ترحيبا ظاهرا بضيا كوك ألب التركى والزهاوى العراقى لأنهما هاجما الإسلام هجوما صريحًا مباشرا في قضية المرأة ، ويلمحّ أن هؤلاء هم الشجعان حقا ، الذين يجب أن يكونوا مثلاً لكل المفكرين المسلمين ، ويتحسر على أن هذا لم يحدث إلا في تركيا والهند ، بينما العالم العربى لم يحدث فيه ما يتمناه ويتشهاه من الخروج الصريح على القرآن وأحكامه !

ومما يلفت النظر - ويثير السخرية كذلك - انه يصف بعض شطحات إقبال بأنها كفر وإلحاد (صفحة ٨١) بينما ضيا ألب اليهودى الأصل [١] ، الداعى إلى الطورانية ونبذ الدين جملة ، هو محل ترحيب منه وإعزاز ! ذلك أن إقبال - رغم شطحاته - بقي يدافع عن الإسلام ، ويدعو المسلمين إلي التمسك به ، فلم يتوفر له شرط الرضا !

---

(١) هو من يهود الدونما المتمسلمين .

﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ! ﴾ [البقرة : ١٢٠]

* * *

في الفصل الأخير يستعرض الأزمة التي تحيط بالمسلم المعاصر ، ويناقش الحلول . .

لا حل !

كل ما يقدمه المسلم المعاصر ، سواء كان محافظا أو « عصرانيا » ، مدافعا عن الإسلام أو منخلعاً منه . . كله لا غناء فيه . . كله لا يحل الأزمة ! لأن الأزمة كامنة في طبيعة الإنسان المسلم . . في طريقة تفكيره ، في طريقة شعوره ، في عجزه عن إدراك الكليات واستخلاصها من الجزئيات ، في اعتزازه العاطفي بدينه وتاريخه ، وعدم قبوله للتعامل « العقلاني » مع القرآن ومع شخص الرسول ﷺ .

الحل - باختصار - أن يترك دينه !

ولكنه لا يقول لك هذا ، لأنه يعلم أنك لن تقبل ذلك منه لو قاله لك ، وحينئذ يضيع الجهد كله المبذول في الكتاب ، وهو جهد ضخم في الحقيقة من الناحية الموضوعية البحتة ، بصرف النظر عن الروح الدافعة إلى الكتابة ، والمنبثة في كل عبارة وكل فكرة . .

علي العكس من ذلك يعطيك كلاما « حلوا » يرضى به مشاعرك ، ويشعرك وهو يودعك بعدما أشبعك نقدا وتجريحا وتخذيلا أنه صديق لك ، يحب لك الخير ، ويتمنى لك التوفيق !

يقول : إن هذه العيوب التي استعرضها في الكتاب قد تضفي مسحة من الصدق على التهمة التي يثيرها النقاد الغربيون والشرقيون سواء ، وهي أن الإسلام دين متحجر . ولكنه هو - جب - يرى أن التهمة باطلة ! وأن الإسلام دين حيٍّ، ذو فاعلية ، يجتذب قلوب عشرات ومئات من ملايين البشر ، ويحرك ضمائرهم، ويقيم لهم صرحا من القيم ليعيشوا أمناء ، جادين ، مخبتين إلي الله .

ثم يختتم حديثه بأن يقول : إنها مهمة المسلمين أنفسهم (أي بلا تدخل

منا !) أن يجدوا طريقهم ، وأن يعيدوا تشكيل مبادئهم الاعتقادية والسلوكية بمقتضى المنهج الصحيح (!) وهي مهمة لن تكتمل قبل مضى عدة أجيال ، وربما لا تتم بغير صراع . ولا بد للحق أن يقاتل من أجل إثبات وجوده ، وليس يكون دائما منتصرا فى خطواته الأولى ! (إنما النصر فى نهاية الطريق !) .

* * *

هذا المشوار الطويل الذى قطعه جب فى كتابه ذى المائة والتسع والعشرين صفحة من القطع المتوسط ، بم تخرج منه فى نهاية المطاف ؟

هل يختلف كثيرا عن بقية المستشرقين ؟

فى الظاهر قد يكون ! أما فى المحتوي فالأهداف هي الأهداف !

جرونيباوم

GRUNEBAUM

كتاب «حضارة الإسلام»

Medieval Islam A Study in Cultural Orientalism

جوستاف أ. فون جرونيباوم Gustave A. Von Grunebaum مستشرق نمسوى معاصر، ولد فى فيينا سنة ١٩٠٩، وتعلم فى مدارس فيينا وفى جامعتها، ثم فى جامعة برلين. ولما قامت ألمانيا بضم النمسا إليها سنة ١٩٣٨ هاجر إلى الولايات المتحدة الأمريكية لأنه كان من أسرة يهودية، وإن كان هو قد اعتنق الكاثوليكية، وحصل على الجنسية الأمريكية، وصار أستاذا فى جامعة نيويورك سنة ١٩٣٨م، ثم فى جامعة شيكاغو سنة ١٩٤٢ وفى سنة ١٩٥٧ صار رئيس قسم الدراسات الشرقية فى جامعة كاليفورنيا؛ واستمر فى هذا المنصب حتى وفاته سنة ١٩٧٢م. له مؤلفات كثيرة عن الإسلام.

* * *

والكتاب الذى بين أيدينا هو الترجمة العربية للأصل الانجليزى المنشور سنة ١٩٥٣ [١] قام بها الأستاذ «عبد العزيز توفيق جاويد» وراجعها الأستاذ «عبد الحميد العبادى» ونُشرَ فى مشروع الألف كتاب الذى سبقت الإشارة إليه، وطبعته مكتبه مصر بالقاهرة ١٩٥٦.

ويقع الكتاب – فى ترجمته العربية – فى ٤٤٢ صفحة، عدا ملحقات من جانب المؤلف تقع فى ١٨ صفحة وتعقيبات من جانب المترجم تقع فى ١٩ صفحة، وفهرس للآيات القرآنية فى ٨ صفحات، وفهرس لأسماء «الأعلام والبلدان والكتب الواردة فى متن الكتاب» فى ٢٢ صفحة وينقسم – بعد

---

(١) صدرت الطبعة الأولى من الكتاب سنة ١٩٤٥ وأعيد طبعه سنة ١٩٤٧، وهذه الطبعة التى يسميها المؤلف «الطبعة المنقحة» صدرت سنة ١٩٥٣.

« التمهيد » إلى عشرة فصول على النحو التالى : الفصل الأول بعنوان « الإسلام فى العالم الوسيط – نزعة الزمان » والثانى بعنوان « الإسلام فى العالم الوسيط – المسيحية والإسلام » والثالث بعنوان « الأساس الدينى – الوحى » والرابع بعنوان « الأساس الدينى – التقوى » والخامس بعنوان « الكيان السياسى – القانون والدولة » والسادس بعنوان « الكيان السياسى – النظام الاجتماعى » والسابع بعنوان « الإنسان الكامل » والثامن بعنوان « التعبير عن الذات – الأدب والتاريخ » والتاسع بعنوان « النقل الخلاق – يونان فى ألف ليلة وليلة » والعاشر بعنوان « خاتمة » .

* * *

وهذا كتاب آخر يمتدح المترجم مؤلفه ويصفه بنزاهة القصد، فى ذات الوقت الذى يحتاج إلى كتابة ستين تعقيبا كاملة للرد على بعض ما جاء فى الكتاب من مغالطات تاركا الكثير غيرها بغير تعقيب!

يقول المترجم فى تقدمته للكتاب بعنوان « كلمة المترجم » .

« والمؤلف وإن سمّى كتابه « الإسلام فى العصور الوسطى » إلا أنه بدأ معه حيث نبت، فهو يتتبع الإسلام وليداً ناشئا ويترسمه قرآنا وسنة ويدرس أصوله ومذاهبه وفرقه بأسلوب علمى دقيق، فهو لا يكاد يورد فكرة إلا أورد لها نصا وأورد للنص مرجعه، وأشهد لقد كان فى كل ما نقله نزيها، ما حرّف لفظة واحدة إلا أن يفوته فهمها، وأشهد أنه لم يذم الإسلام بلسانه قط، ولا تنقص رسوله الكريم، بل الحق أنه كثيرا ما كان ينعى على أولئك الذين يخرجون عن جادة القصد والوقار فى نقدهم. وأنه وهو الأجنبى عن الملة لم يفته أن يظهر تقديره لما جاء به الطاهر الصادق من عقيدة الإسلام . . . » !!!

* * *

يبين المؤلف قصده من تأليف الكتاب فى « التمهيد » فيقول :

« نشأ هذا الكتاب من سلسلة من المحاضرات العامة، ألقيت فى ربيع سنة ١٩٤٠ ، بقسم الدراسات الكلاسيكية بجامعة شيكاغو . وهو يهدف إلى الإحاطة

المجملة بالاتجاه الثقافى للعصور الإسلامية الوسطى، مع قصر الاهتمام على الإسلام ببلاد المشرق . ويحاول الكتاب أن يصور رأى مسلم العصور الوسطى فى نفسه وفى عالمه ذى التحديد الخاص، وأن يبين الاتجاهات الأساسية العقلية والعاطفية، التى كانت تتحكم فى أعماله، والحال النفسية التى كان يحيا فيها حياته . وهو يحاول جاهدا أن يفسر النسيج الذى ركب منه عالمه من حيث العناصر الموروثة والمنقولة والأصيلة المبتكرة، وإطار النظم التى كان يعمل فى كنفها ويدور فى فلكها، ومكانه بالنسبة إلى العالم المسيحى المعاصر له . . . ومن ثم جاز لنا أن نقول إن تعقب مزاج العصور الوسطى الإسلامية وتعرف مذاقها، هو هدف هذه الدراسة . . . »

فلننظر الآن كيف سعى المؤلف « النزيه » إلى تحقيق هذا الهدف « العلمى » البرئ . . . !

يبدأ المؤلف من أول صفحة فى الكتاب فيكشف عن طريقته المثلى، التى يمتدحها السيد المترجم فى إعجاب ظاهر، فيوحى فى عنوان الفصل الأول ذاته بأن الإسلام ازدهر فى العصور الوسطى لأن « نزعة الزمان » كانت نزعة دينية !

« يسجل تاريخ العصور الوسطى للأقاليم الواقعة إلى الغرب من بلاد الهند نمو ثلاث وحدات سياسية وثقافية واضمحلالها وعلاقة بعضها ببعض . . .

وكان الدين فى غالب الأمر العامل الأكبر فى تحديد تخوم تلك الكتل . . .

وكان الفرد من الناس، إبان معظم العصور الوسطى، يعد نفسه مسيحيا أو مسلما أولا، ثم نزيل ناحيته الخاصة من وطنه ورعية للمولى المحلى ثانيا، ثم إنه ليس فرنسيا أو مصريا أو جرمانيا إلا فى المقام الثالث والأخير . . . » .

وهكذا فإن « نزعة الزمان » هى التى مكنت للإسلام، وليس أنه دين الفطرة، ولا أنه الحق السماوى المنزل ليحكم حياة الناس فى الأرض، ولا أنه هو المنظم المضبوط لنشاط الإنسان . . . ولا لأى مزية ذاتية فيه . . . وإنما لأن « نزعة الزمان » كانت دينية !

ولسنا نتوقع بطبيعة الحال أن يقرّ رجل غير مسلم بالحقيقة الجوهرية فى الإسلام: أنه دين الفطرة، وأنه المنهج القويم لأنه المنهج الربانى. وليس بنا كذلك أن نرد على المؤلف ونناقشه، فما توجد جدوى حقيقة فى هذا النقاش. ولكنا نهتم بهذه المقالة من زاويتين اثنتين ذواتى دلالة فيما نحن بصدده فى هذا الكتاب.

الأولى: أن المترجم - على كل حماسته للإسلام، البادية فى تعقيباته الستين - لم يلحظ أن هذه البداية للكتاب، المبتدئة بعنوان أول فصل، فيها أى مساس بالإسلام الذى يدافع عنه بحرارة ضد هجمات المهاجمين، فى تلك التعقيبات الستين!.

والثانية: أن «المثقفين» من المسلمين يتشربون هذا السم فى بساطة، ويروحون يرددون - وراء «السادة» الذين يلقنونهم - أن الدين كان سمة من سمات العصور الوسطى، ولكنه ليس ظاهرة بشرية ... وقد أخلى مكانه فى العصر الحديث للعلم...

إن هذا القول صحيح بالنسبة للتاريخ الأوربى، ولظروف محلية بحتة فى أوربا، والغرور الأوربى يوحى للناس هناك أن تاريخهم هو تاريخ العالم! أما نحن؟ فما الذى يدفعنا إلى ترديد هذه القولة التى لا تتناسب مع حقائق التاريخ الإسلامى، بل مع حقائق التاريخ الأوربى ذاته، الذى عاد أهله يبحثون اليوم عن الدين وعن الروحانيات، لتنقذهم من الضياع الذى أظلهم وأضلهم حين ابتعدوا عن الدين؟!

إن الإسلام قد بدأ جولته حقا فيما يسمى - فى أوربا - العصور الوسطى، ولكنه بدأها من أرض لم تكن متدينة من قبل، وإنما كانت تعيش فى خرافة جاهلية. فلم تكن «نزعة الزمان» هى التى مكنت للإسلام فى الجزيرة العربية إنما كان قدر الله الغالب، المتمثل فى اختيار هذه البقعة بالذات لينطلق منها دين الفطرة ويمتد من المحيط للمحيط.

وإذا كانت « نزعة الزمان » فى أوربا فى ذلك الوقت هى التدين، بمعنى اعتناق عقيدة والحياة فى ظلها، ففرق بعد ذلك كبير بين الصورة السلبية لنزعة الزمان هذه كما كانت فى أوربا، تغشيها الجهالة، والركود، والانقطاع عن الحركة الحية الدافقة، ويغشيها - قبل ذلك - انفصال كامل بين العقيدة والشريعة، . . فرق بين هذا وبين الصورة الإسلامية الحية المتحركة الموارة بالنشاط فى كل ميادين الحياة، مع الاتصال الكامل بين العقيدة والشريعة، وبين الدين والدولة، وقيام الحياة كلها منطلقة من المنهج الربانى للحياة.

فإذا كانت الصورة الإسلامية هى « نزعة الزمان » فلماذا لم تكن كذلك فى أوربا؟

وإذا كانت الصورة الأوربية هى التى تمثل « نزعة الزمان » فالإسلام إذن شئ آخر لا علاقة له بتلك النزعة الزمنية التى أراد المؤلف - من أول كلمة - أن يربط بها الإسلام!

هذه واحدة . . .

والثانية أن أوربا قد خرجت من دينها - أو بدأت تخرج - فى نهاية العصور الوسطى، لأسباب - كما قلنا - محلية هناك. أما الإسلام فقد ظل أهله متمسكين به إلى القرن التاسع عشر على الأقل حتى غزتهم أوربا بمفاهيمها فأصابهم من غزوها ما أصابهم فتخلوا عن الإسلام. بل كانت للإسلام جولة منتصرة فى أوربا ذاتها حتى القرن السادس عشر بعد أن انتهت « نزعة الزمان » فى أوربا بأربعة قرون على الأقل! فلم يكن للإسلام إذن - فى العالم الإسلامى - علاقة بنزعة الزمان، إنما كانت علاقته بأهله هى علاقة الاستمرار والدوام، لأنه « النزعة الدائمة » لهذا الفريق من البشر على أقل تقدير!

والثالثة أنه بعد أن غزت أوربا العالم الإسلامى وأفسدت فيه ما أفسدت، عاد المسلمون يبحثون عن إسلامهم الذى تخلوا عنه فى بهرة الضعف والهزيمة،

فقامت حركات البعث الإسلامى فى كل مكان فى العالم الإسلامى ابتداء من القرن الثامن عشر إلى القرن العشرين، وما تزال ماضية فى الطريق رغم كل العقبات التى يبثها أعداء الإسلام فى الطريق.

فأى ربط بين الإسلام وبين «نزعة الزمان» أو بينه وبين القرون الوسطى هو ربط باطل من أساسه. ولكن للمستشرقين غرضا لا يخفى فى الإيحاء بأن الإسلام ازدهر ذات يوم لتناسبه مع حالة الناس فى «العصور الوسطى» وأنه لا مكان له اليوم فى الحياة، وذلك لكى يخرج المسلمون نهائيا من إسلامهم، فيستريح «أصحاب الشأن» من الإزعاج الذى يسببه لهم هذا الدين!

* * *

فى صفحة (١٣) يقول: «وأعظم مسائل ذلك الزمان شأنا مسألة العلاقة بين السلطتين الزمنية والروحية. وكانت هذه العلاقة أيسر ما تكون فى الإسلام».

وإلى هنا قد يظن القارئ أن المؤلف يعترف بفضيلة الإسلام فى هذا الشأن. فالإسلام لا تقوم فيه أصلا تلك المشكلة التى قامت فى أوربا المسيحية بسبب تفتيتها الدين إلى عقيدة وشريعة ثم إعمال العقيدة وحدها وإهمال الشريعة المنزلة إليهم فى التوراة والإنجيل، وإحلال القانون الرومانى محلها، مما جعل «الدين» و«الدولة» معسكرين متعاديين يقوم بينهما الصراع والنزاع حتى ينتهى أخيرا بغلبة الدولة على الدين ...

قد يظن القارئ ذلك حين يقرأ عبارة المؤلف «وكانت هذه العلاقة أيسر ما تكون فى الإسلام» ولكن المؤلف لا يدعه عند هذا الظن الخاطئ، بل يبين له! «فإن الإسلام لم تنتظم فيه السلطة الروحية البتة بصورة رسمية، على حين ظلت السلطة الزمنية قانعة بدور «حامى حمى العقيدة» دون ادعاء الحق فى إدخال أى تطور على مجموعة التعاليم الدينية ولا حتى مجرد تأويلها»!!

أرأيت كم كنت مخدوعا فى ظنك أنه يقرّ بفضيلة الإسلام؟!

كلا! إن العلاقة كانت أيسر ما تكون فى الإسلام لا لفضيلة فيه! ولكن لعدم التنظيم الرسمى من جهة، وعدم إدخال أى تطور فى التعاليم الدينية من جهة أخرى .. أى لنقيصتين مجتمعتين! بينما يصور ذلك الصراع فى أوربا، ومحاولة الوصول إلى حل له على أنه علامة من علامات الإيجابية السوية التى تستحق الإشادة وتستحق التعظيم!

ومرة أخرى قد يظن القارئ أن هذه العبارة: «على حين ظلت السلطة الزمنية قانعة بدور «حامى حمى العقيدة» دون ادعاء الحق فى إدخال أى تطور على مجموعة التعاليم الدينية ولا حتى مجرد تأويلها» هى – على الأقل – تسجيل من المؤلف للحقيقة الإسلامية وليس مقصودا بها التجريح ... ولكن المؤلف لا يدعك أبداً عند هذا الظن الخاطئ! فهو لا يفتأ يردد فى الكتاب أن مصيبة الإسلام العظمى هى عدم الخروج على هذه التعاليم الربانية!!

ففى صفحة (١٨٥) – مثلا – يقول: «أخفق القانون السماوى لأنه أهمل عامل التغير الذى أخضع له الله مخلوقاته»!

وفى صفحة (١٩٤) يبدى أمله فى أن «الإجماع» الذى يضرب صفحا عن النصوص القرآنية والسنة القديمة (!!) يمكن أن يزيل تلك العقبة التى تقف فى سبيل تطوير الإسلام! يقول: ولعله لم يغب عن البال أن الإجماع قد استلزم فى الأزمنة السالفة الاعتقاد فى الأولياء والقول بعصمة النبى، ضاربا صفحا فى الحالين عن النصوص القرآنية والسنة القديمة، وبذلك يستطيع الإجماع مثلا بتبنّيه مذهب الاجتهاد، أن يزيل إحدى العوائق الرئيسية التى تحول دون إقامة صرح الإسلام على أسس عصرية»!!

وفى صفحة (١٩٥) يبدى ذات الأمل بالنسبة للاجتهاد فيقول: «غير أن من المحتمل أن انقلابا فى الشعور العام قد يعيد فتح «باب الاجتهاد» وبذلك يمهد السبيل لإعادة النظر فى الشريعة من كافة نواحيها»!!

ولذات السبب الذى ذكرناه فى الفقرة السابقة نناقش هذه العبارات ... لا

للرد على المؤلف، فليست هنا مادة «علمية» تناقش! إنما هي أمنية أهل الكتاب الدائمة فى أن يتخلى المسلمون عن الإسلام! ﴿ **وَدَّت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ** ﴾ [آل عمران: ٦٩] ﴿ **وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ** ﴾ [البقرة: ١٠٩] وإنما من أجل «المثقفين» الذين يبتلعون هذا السم ذاته فيرددون ذات الأقوال.

إن الذى حفظ للمسلمين إسلامهم طوال تلك القرون هو محافظتهم على شريعتهم التى يسميها جرونيباوم «مجموعة التعاليم الدينية» وهذه الشريعة التى يزعم جرونيباوم وغيره من المستشرقين – ويتابعهم فى ذلك «المثقفون» – أنها هى سبب جمود المسلمين وتأخرهم، هذه الشريعة نزلت لتبقى مع الناس إلى يوم القيامة، ونزلت لتتسع لنشاط البشرية المؤمنة المهتدية إلى يوم القيامة. ولذلك فقد صيغت صياغة ربانية بحيث تشمل هذا النشاط وتنظمه، فواجهت الثابت والمتغير فى حياة البشرية بما يلائم هذا وذاك.

فالثابت أعطت فيه تفاصيل كاملة ثابتة غير قابلة للتغير. وأما المتغير فأعطت فيه أصولا ثابتة، وتركت للعقل المؤمن أن يجتهد لوضع التفصيلات المناسبة لكل عصر، بحيث لا تصطدم مع الأصول الثابتة. وفضلا عن ذلك فهناك أمور «متروكة» للعقل البشرى يضع أصولها وتفصيلاتها بحيث لا تصطدم فى النهاية مع القواعد العامة للإسلام [1] فليس صحيحا أولا ما يزعمه المؤلف هنا من أن القانون السماوى أهمل عامل التغير الذى أخضع له الله مخلوقاته. وليس صحيحا ثانيا ما يزعمه فى صفحتى (١٨٥، ١٩٧) من أن نجاح المسلمين فى مواجهة الحياة المتجددة فى ظل العقيدة كان بإدخال عناصر دخيلة على الشريعة! فإن عنصر التجديد ليس دخيلا على هذه الشريعة، إنما هو من صلبها، وهو أداتها – الربانية – لتتسع لنشاط البشرية المؤمنة المهتدية إلى يوم القيامة.

يقول فى صفحة (١٨٥): «أخفق القانون السماوى لأنه أهمل عامل التغير

---

(١) انظر بالتفصيل إن شئت كتاب «التطور والثبات فى حياة البشرية».

الذى أخضع له الله مخلوقاته. وعندما كانت النظرية القانونية تضطر إلى أن تحسب لهذا العنصر حسابه، فإنها كانت تنجح فى الوصول إلى تسوية عملية قابلة للتنفيذ. ولكن ذلك كان يتم بتخليها - عن غير تنبه منها - عن ذلك الحلم العظيم الذى يتخيل هيئة اجتماعية تعمل على الدوام وفق قانون ثابت أوحاه الله عند اكتمال الزمان».

ويقول فى صفحة (١٩٧): «وراح المسلم يجابه تقلبات الزمن محتميا وراء شريعته مجابهة كللت بالنجاح. ولكن من دواعى الأسف أن الشئ الكثير من نجاحه الدنيوى ومن رسوخ قدمه فى هذا العالم إنما يرجع إلى استعداده للتوفيق والتراضى بإدخال الحقائق المتغيرة لهذه الحياة فى حقيقة الوحى الثابتة»!!

هذا من دواعى الأسف عند جرونيباوم!

فهو حريص - كما ترى - على أن تكون حياة المسلمين مثالية!! ولذلك يأسف على هذا «التحايل» الذى ظل المسلمون يرتكبونه خلال العصور، بإدخال العنصر المتغير فى «حقيقة الوحى الثابتة»!

وهكذا يحول الفضيلة الإسلامية إلى نقيصة بذات الطريقة «العلمية النزيهة» التى استخدمها فى الفقرة السابقة!

وما بنا - كما أسلفنا - أن نناقش «العالم الكبير» فى هذه المغالطات. ولكنا نقول «للمسلمين» الذين يرددون بوعى أو بغير وعى أقوال ذلك «العالم» وأمثاله، إن أولئك «العلماء» وهم ينكرون أن هذا الدين موحى به من عند الله، ويزعمون أنه من صنع محمد ﷺ، فهم منطقيون مع أنفسهم فى ضلالتهم إذ يتقولون على شريعة الله ما يتقولون.

أما «المسلمون» الذين يؤمنون بأن هذا الدين من عند الله، فما منطقهم إذ يرددون هذه الأقوال على علم بمصادرها أو بغير علم؟! إنهم لا يستقيمون مع أنفسهم إلا على أساس واحد - نستعيذ بالله منه - أن يكون الله سبحانه وتعالى وهو ينزل هذا الدين وهذه الشريعة ويفرضها على الناس، لم يكن عالما بأن أمور

الحياة البشرية ستتغير، وستحتاج إلى شرع جديد!! فألزمهم بهذه الشريعة على غير علم، وأوقعهم فى حرج لا مخرج لهم منه إلا بالخروج من هذا الدين! فهل كذلك يظن أولئك «المسلمون»؟!

ثم نقول لهم بعد ذلك إن المسلمين لم يفقدوا وجودهم وعزتهم وكرامتهم بقدر ما فقدوها حين استجابوا لهذا الكيد الخبيث من أعداء الإسلام، فتخلوا عن إسلامهم، فصاروا إلى ما هم فيه اليوم من هوان فى كل الأرض ... حتى يعودوا إلى الإسلام، ويغيروا ما بأنفسهم فيغير الله ما بهم: ﴿ **وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ** ﴾ [الحج: ٣١]

* * *

فى صفحة (١٤) يقول: «وإذا قيست دولة الإسلام إلى القسطنطينية وروما ظهرت فى زى الدعىّ المحدث. ذلك أنه لم يكن للإسلام ماض تليد، ولم تكن له تقاليد تاريخية، ولذا قد نجرؤ على أن نقول: إن الإسلام استولى على الأصول التاريخية لعالم الرومان والفرس والكتب المقدسة ...»

ونصرف النظر عن هذا التعبير غير اللائق وغير المهذب الذى يستخدمه المؤلف فى نعت دولة الإسلام حين يقول إنها ظهرت فى زى الدعىّ المحدث. ومئات من العبارات اللائقة كان يمكن أن تعبر عن المعنى المقصود، لو لم تكن وراءها شهوة التجريح وانتهاز كل فرصة مناسبة أو غير مناسبة للقيام بذلك التجريح.

نصرف النظر عن هذا، ونلتفت إلى القضية التى يثيرها فى بقية عبارته، والتى يثيرها مثله - وعلى طريقته - مئات من أولئك المستشرقين، لا يملون من ترديدها وهى أن الإسلام عاش عالة على غيره من النظم والعقائد، وبالذات: الفارسية والبيزنطية، واليهودية والمسيحية.

ونلاحظ بادئ ذى بدء ذلك الخلط المتعمد بين لفظى الإسلام والمسلمين، والذى يزعمون أنه من «طبيعة اللغة»!!

فحين يقول عن « دولة الإسلام » إنها لم يكن لها - يومئذ - ماض تليد ولا تقاليد تاريخية، فهذا حق ولا شك. ولكن حين يستخدم لفظة « الإسلام » بدلا من « دولة الإسلام » أو بدلا من « المسلمين » فهو يعطى إيحاء خبيثا مقصودا لذاته، يهدف إلى تمييع صورة الإسلام المتميزة، وربطها بواقع المسلمين. ثم حين يقول إن « الإسلام » استولى على الأصول التاريخية لعالم الرومان والفرس والكتب المقدسة، فهو بلا شك يقصد الأمرين معا، يقصد الإسلام المنزل، ويقصد واقع المسلمين والدولة الإسلامية. فينسب إلى الإسلام المنزل أنه استعار مفاهيمه من الكتب المقدسة، اليهودية والمسيحية، وإلى المسلمين أنهم أخذوا نظام دولتهم من الرومان والفرس.

هذا الخلط المتعمد يهدف - كما أشرنا منذ سطور - إلى تمييع صورة الإسلام المنزل من عند الله، وإدخال كل ما يحدثه البشر المسلمون من الأعمال، الصالحة أو المنحرفة، فى داخل هذا « الإسلام » فلا يتبين فى النهاية ما هو منزل وما هو مصنوع، ويمكن - عن هذا الطريق - للعصرانيين، الذين يحملون أسماء إسلامية وقلوبا لا تعرف الإسلام، إن يدخلوا فى الإسلام ما شاءوا - أو شاء لهم سادتهم - من افكار ومفاهيم .. وكله فى النهاية إسلام !!

إن الإسلام - بين كل النظم التى عرفتها البشرية - يتميز بأن له أصولا سماوية واضحة محددة، ومحفوظة غير محرفة، هى كتاب الله وسنة رسوله. وهذان هما المرجع الدائم الذى يرجع إليه لتحديد ما إذا كان سلوك البشر إسلاميا أو غير إسلامى. وقد سار المسلمون خطوات عديدة مديدة على درب التاريخ، فكان بعضها مستقيما على الطريق، وبعضها منحرفا درجات مختلفة من الانحراف. فتظل خطواتهم تقاس بهذا المقياس الثابت الذى لا يتغير ولا يتبدل فى أصوله العامة مهما جدّ فيه من أحكام تفصيلية منضبطة بالأصول العامة؛ فيقال إن هذه خطوات مستقيمة وتلك خطوات منحرفة، ويظل الإسلام هو الإسلام، غير محكوم بخطوات البشر على الأرض، وإنما محكوم بأصوله الربانية الثابتة المحفوظة: كتاب الله وسنة رسوله.

وليس معنى هذا من جهة أخرى أن الإسلام نظام مثالى غير قابل للتطبيق مثل أحلام الفلاسفة «الطوباوية» [1] فما دام قد طبق بكامله فى واقع البشر مرة، فقد تحقق له الوجود الواقعى الذى يميزه عن أحلام الحالمين، ويظل واجبا على المسلمين أن يحاولوا تطبيقه، فيصلوا منه إلى ما يستطيعون، ويكون مقياسهم الإسلامى هو مقدار ما يصلون إليه فى التطبيق.

هذا من ناحية ذلك الخلط المتعمد بين «الإسلام» و«المسلمين». أما زعم المؤلف أن الإسلام - أى المنزل من عند الله - قد استمد من الأصول اليهودية والمسيحية، وهى فكرة لا يفتأ يرددها فى صفحات الكتاب، ويرددها أكثر المستشرقين إن لم يكن كلهم، فيكفى فيها قوله تعالى: ﴿**وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ**﴾ [المائدة: ٤٨]

ثم ليقل بعد ذلك من شاء أن يقول ما شاء أن يقول! فالمسملون على أى حال، حتى الذين خرجوا من إسلامهم نهائيا واتبعوا الغرب أو الشرق، لم يلتفتوا يوما لهذا الزعم المزعوم!

* * *

فى صفحة (٩٥) يورد سخافة الغرانيق الشهيرة، التى يزعمون أن الرسول ﷺ أشاد بها فى سورة النجم فتلا: ﴿**أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّىٰ * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَىٰ**﴾ [النجم: ١٩ - ٢٠] ثم قال: تلك الغرانيق العلى، وإن شفاعتهن لترتجى! وتلا بعد ذلك ﴿**إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ**﴾ [النجم: ٢٣].

وفى صفحة (٩٩) يتكلم عن مسيلمة الكذاب، وعن سجاح، على أنهما أنبياء على نفس مستوى نبوة محمد ﷺ، وأن العصر كان عصر تنبؤ!! يقول: «وقد ظهر أوائل الأنبياء العرب فى القرن السابع الميلادى. ففى نفس الوقت الذى

---

(١) نسبة إلى «اليوتوبيا» أى المدينة الفاضلة التى كان يحلم بها أفلاطون وغيره من الفلاسفة.

ظهر فيه محمد أو قبله (!!) بقليل جمع المتنبئ مسيلمة جمعا عظيما فى اليمامة [١]، وكان يأمر بالصيام، وينهى عن الخمر، ويقيد الحرية الجنسية وتكلم عن يوم الحساب، وعن الله الواحد وعلمه المحيط بكل شئ وإن أسلوب الأقوال القليلة التى نقلت إلينا عنه ليذكرنا تذكيرا قويا بأسلوب القرآن، وإن بدا أدنى منه مرتبة إلى حد ما. وربما كان مصدر التشابه انتسابهما إلى أرومة مشتركة هى طريقة العراف (!!) ولكنه ربما عاد أيضا إلى اختراع خبيث من جانب بعض المسلمين، أو حتى تقليد مسيلمة نفسه لمنافسه الذى حظى دونه بالتوفيق. وأصابت إحدى المتنبئات وهى سجاح شيئا من النجاح بعد موت محمد. وهنالك من الدلائل ما يدل على أنه كانت ثمت قلوب أخرى متوقدة تشعر بأنها تلقت الدعوة بالانطلاق للوعظ والهداية »!!

وفى صفحة (١٠٨) يقول: « وكانت أموره الشخصية (أى أمور الرسول ﷺ) تسبب للمؤمنين بعض لحظات القلق، ولكن الله كان يظاهر رسوله ويسكت كل ناقد (!) على أن الصعوبات التى واجهت المجتمع لم تكن راجعة إلى عيوب فى النبى، بل إلى أن معين التعاليم المفروضة، الإلهى منها والعملى، انقطع بغتة عندما توفى محمد على غير انتظار تقريبا، ودون أن يمد المسلمين بأية أداة لمواصلة المضى بالعقيدة فى سبيل تطور شامل جامع » (!!)

ولسنا نثبت هذه الأقوال لنرد عليها، فما أظن أن قارئا مسلما واحدا يمكن أن يأخذ هذا الهذر مأخذ الجد ... وإنما نثبته لنعجب من قول المترجم فى مقدمته « وأشهد أنه لم يذم الإسلام بلسانه قط، ولا تنقص رسوله الكريم »!!

* * *

من صفحة (١٠٨) إلى صفحة (١١٨) حديث عن القرآن يبدؤه بعبارة غاية فى « الإنصاف » و« النزاهة » و« حسن القصد »!

---

(١) يعرف كل الناس ولا شك ومن بينهم جرونيباوم أن مسيلمة ادعى النبوة بعد بعثة الرسول ﷺ ولكنه الالتواء « العلمى » النزيه!

يقول: «لقى أسلوب القرآن من الغربيين نقدا إجماعيا شديدا وشاركهم فى ذلك بعض المسلمين (!!) وقد يكون لبعض هذا النقد ما يبرره (!!) على أن غلو الغرب عامة فى هذا النقد إلى حد إنكار ما للقرآن من فضائل لغوية، وإسناد التكرار وغيره إليه، ليس من الإنصاف ولا التقدير الحسن فى شئ (!!).

أتريد نزاهة أبلغ أو أسمى من هذه النزاهة؟!

ثم يقول: «فالكتاب على ما هو عليه اليوم بين أيدينا ليس هو الكتاب كما أبلغنا إياه محمد (!!) بل الواقع أن كتابا بأكمله لم يوح إليه قط (!!) بل كانت توحى إليه رؤى قصيرة (!!) ووصايا وأمثال وقصص ذات مغزى أو أحاديث فى أصول العقيدة. ولعله كان ينوى أن يجمع شتيت أجزائه المتعددة، وأن يجمدها إن جاز مثل هذا القول - حتى تتخذ صورة القوانين الدينية - وإن لم يكن فى الإمكان إثبات ذلك (!!) وطبيعى أن خلفاءه لم يجرأوا على القيام بمحاولة ما قد كان النبى يقوم بها لومد فى أجله: وهو أن ينظم ويختصر ويهذب النصوص الفردية الكثيرة ويجمعها فى كُلٍّ متماسك»!!

ثم يروح فى الصفحات التالية يردد ما يردده المستشرقون الآخرون عن القرآن من تناقض، واختلاف أسلوبه ما بين مكة والمدينة وأنه مأخوذ عن اليهود والنصارى، وأنه يتجاوب مع حالات الرسول ﷺ النفسية المتناقضة المتقلبة، نختار من بينها هذه الفقرة لطرافتها، وإن لم تكن خاصة بجرونيباوم، فقد التقينا بها من قبل مع فلهوزن:

«ولم يكن للنبى عهد قط بطرائق الفلسفة فى التفكير (!!) وهناك مسائل قدر لها أن تسبب للناس متاعب كثيرة بعد مضى خمسين أو مئة سنة على وفاته. ذلك أنه عندما كان النبى يقوم بتقرير أمر من أمور العقيدة، فإن ما كان يفعله فى الواقع كان تسويغا عقليا لحالة نفسية. ولما كانت الأحوال النفسية متعارضة، فإن الصعوبات المنطقية الناجمة عن التعبير عنها بالألفاظ لم تظهر للعيان على الفور»!!

من صفحة (٢٢٧) إلى صفحة (٢٣٨) يتحدث عن موقف الإسلام من أهل الكتاب الواقعين فى ذمة المسلمين، فيتأرجح أرجحة «علمية» ولا شك بين النفى والإثبات والذم والمديح على هذه الصورة :

« ... وهنا تقوم شهرة الإسلام بوصفه دين تسامح . ولا شك أن لهذه الشهرة ما يبررها، وذلك نظرا لأن كلا من اليهود والمسيحيين يسمح لهم بأن يظلوا على دينهم . ولكن ليس لها ما يسوغها مطلقا، من حيث أن التسامح عند الغرب ينطوى على التساوى أمام القانون، وعلى المشاركة فى الحياة المدنية والسياسية على قدم المساواة » (ص ٢٢٩) .

« ولسنا نرمى من وراء ذلك بطبيعة الحال إلى نكران أن ما نزل بأبناء الأديان الأخرى فى بلاد الشرق إبان العصور الوسطى من اضطهاد وتعذيب كان أقل مما حدث فى الغرب، حيث كانت تعيش أقليات دينية ضخمة، ولكنها - باستثناء اليهود - كمّ مهمل عديم الشأن » (ص ٢٣١) .

« وغنى عن البيان أن سماح الدولة الإسلامية بأن تقوم فى صميم كيانها هيئات شبه مستقلة مكونة من أقوام يحتمل عداؤهم، يعد على التحقيق نقطة ضعفٍ خطرة عليها وقد حدث هذا بينما لم تسمح الإمبراطورية البيزنطية بقيام أية منظمة إسلامية فى بلادها » (ص ٢٣٢) .

وبعد ذلك فإنه يشكو !!!

* * *

فى صفحة (٢٥٤) يقول : « لم يكن الإسلام حركة اجتماعية بمعنى أنه كان يجعل إصلاح النظام القائم هدفا له » !!

ولعلى لم أقرأ فى كل ما قرأته من كتب المستشرقين أعجب من هذه العبارة فى هذا الباب ! فكلهم - والحق يقال - قالوا إن الإسلام أحدث تغييرات جذرية فى المجتمع الذى جاء فيه، وإن كانوا بعد ذلك يحاولون التغطية على هذه الحقيقة بوسائل شتى، فإما أن يقولوا إن التغيير كان مناسبا لوقته ولم يعد اليوم كافيا بعد

« تطور » الحياة البشرية أو يقولوا إن التغيير لم يشمل جوانب اجتماعية معينة بالقدر الكافى ... إلخ.

أما أن يقولوا إن الإسلام أصلا لم يكن حركة اجتماعية بمعنى أنه لم يجعل إصلاح النظام القائم هدفا له، فهذا أمر لا أذكر أنى قرأته لواحد منهم، ولا حتى الشيوعيون منهم، الذين يركزون كل تركيزهم على الجانب الاجتماعى! (١).

حقيقة إن الإسلام لم يجئ ابتداءً لينحصر فى حركة إصلاح اجتماعى، ولا إصلاح سياسى، ولا إصلاح أخلاقى ... ولا غيرها من أنواع الإصلاح الجزئية المحصورة. إنما جاء ليكون حركة إصلاح شاملة « للإنسان » ذاته، لكى يكون إنسانا صالحا فى الحياة الدنيا وفى الآخرة. فبدأ بإصلاح عقيدته لأن الله يعلم أن هذه نقطة الابتداء التى يبدأ منها كل إصلاح لحال الإنسان. فإذا استقامت عقيدته، فعرف الله الواحد حق معرفته، وعرف من ثم أنه لا ينبغى له أن يتخذ شرعا غير شرع الله، ولا منهجا للحياة غير المنهج الربانى، راح يبين له تفصيلات هذا المنهج: الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والخلقية والفكرية والروحية ... كلها سواء.

إنما يدعى جرونيباوم دعواه على أساس أنه : « بينما كان الإسلام من ناحية يذكى روح المساواة القصوى، إذا هو من الناحية الأخرى يقوى ميول العرب الأرستقراطية التقليدية بتقديمه أساسا جديدا للتمييز الاجتماعى لا عيب فيه لدى المسلمين، وهو قرب النسب من النبى والسبق إلى الإسلام ... ».

وأما أن السبق إلى الإسلام كان مميزا اجتماعيا فى العهد الأول للإسلام فهذا حق. وهو كذلك أمر طبيعى لا غرابة فيه، وهو التطبيق العملى للآية الكريمة: ﴿ **إن أكرمكم عند الله أتقاكم** ﴾ وإن المجتمع الذى يكرم المكرمين عند الله لهو المجتمع الحق، المستقيم على الطريق الذى ينبغى أن يكون المثل الذى تحتذيه كل

---

(١) لست أقطع بطبيعة الحال بأن آخرين غير جرونيباوم لم يقولوا مثل قوله ... ولست أزعم أننى قرأت كل ما يكتبون!

البشرية، بدلا من أن تكرم السفاحين سفاكى الدماء بوصفهم زعماء! أو تكرم مصاصى الدماء ومصاصى عرق الكادحين بوصفهم طبقة أرستقراطية!

وأما أن الإسلام جعل قرب النسب من النبى مميزا اجتماعيا فدعوى تحتاج على الأقل إلى دليل! والدليل الذى بين أيدينا يدل على عكس ذلك. فالرسول ﷺ يقول: « من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه » ويقول: « يا فاطمة بنت محمد، لا أغنى عنك من الله شيئا . . . » فأما أن المجتمع الإسلامى ميز هؤلاء، فأمر لا يسأل عنه الإسلام أولا، ولم يكن مخالفا لشرط الإسلام ثانيا وهو: ﴿ **إن أكرمكم عند الله أتقاكم** ﴾ فقد كانوا يستحقون التكريم بمؤهلاتهم الذاتية لا بمجرد كونهم قريبى النسب من الرسول ﷺ.

على أن القضية فى حقيقتها أبعد من هذا الشأن وذاك.

إن كلمة « الطبقة » الاجتماعية لها فى نفوس الغرب معنى معين، ملازم لواقع الحياة الأوربية، مفاده أن الطبقة التى تملك هى التى تحكم. أى أن لها فى الحقيقة حق السيطرة على الجماهير عن طريق حق التشريع، لأنها تصنع من التشريعات ما يضمن مصالحها، وغالبا ما يكون ذلك على حساب القطيع البشري الذى تسيطر عليه. وهذا المعنى هو الذى لم يوجد فى الإسلام قط طالما كانت شريعة الله هى التى تحكم، و« السلطة الزمنية » كما يسميها جرونيباوم بالمصطلح الغربى « قانعة بدور حامى حمى العقيدة دون ادعاء الحق فى إدخال أى تطور على مجموعة التعاليم الدينية » كما قال بحق فى صفحة (١٣) من الكتاب.

وهنا تبدو فضيلة الإسلام التى يعرفها أو لا يعرفها جرونيباوم، والتى تمنع استعباد طبقة من المجتمع لبقية الطبقات. وتظل الفوارق الاجتماعية فى داخل المجتمع الإسلامى، سواء كانت مستقيمة على شرط الإسلام أو منحرفة عنه فى التطبيق، بعيدة كل البعد عن مفهوم « الطبقة » فى المجتمع الغربى أو غير الإسلامى على وجه العموم.

ولكنها إحدى مغالطات السادة « العلماء » يفتنون بها المسلمين الذين لا يعرفون حقائق الإسلام.

من الدعاوى التى شغل بها جرونيباوم حيزا غير قليل من كتابه هذه الدعوى الغريبة، التى يختلط فيها الحق بالباطل:

يقول فى صفحة (٢٨٣) : « والإسلام منذ بدايته لم يعترف للإنسان إلا بقليل من التقدير. وينزع القرآن إلى إقناعه بمهانة اصله الجسدى، فيصف خلق الفرد وتكوينه تفصيلا ﴿ **وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ** ﴾ [المؤمنون: ١٢ - ١٤] فليس للإنسان أى فخر فى بداياته هذه. فهو ليس مكونا من مادة مهينة فحسب، بل هو ضعيف عديم الحس ساعة ينحدر إلى هذه الحياة، ولا يحفظه فى وجوده المحفوف بالخطر إلا إرادة الله . . . »

و يقول فى صفحة (٢٨٢) « فالفرد تهمل شخصيته. وهذا الإهمال للشخصية يكون على وجهين. فهو من ناحية يحمل المشاهد على أن يرد الناس الذين يشهدهم ويدرسهم إلى طرز وأنماط، ويقلل اهتمامه بالخصائص المميزة للفرد، ويتشدد فى وجوب مطابقته للنموذج المقرر. وهو من الناحية الأخرى، يحمل الفرد على جعل غرضه الأسمى من الحياة الوجد الصوفى، وذلك بالاتحاد التام بالجوهر الإلهى عندما يتلاشى شعوره بشخصيته المستقلة . . . ».

ويقول فى صفحة (٢٨٤) : « وليس المعلم الصوفى ولا النبى ولا الملك ولا الشاعر - ولا حتى المتسول - قوما ذوى شأن لما هم عليه بوصفهم أفرادا، بل لما ينطوون عليه من معنى فى منظمة الوجود الكبرى. وهم يعرفون بعلامات معينة. وإذا درست حيواتهم وجب أن تعرف هويتهم بوصفهم صورا صيغت على قوالب معروفة حق المعرفة. وتعود أهميتهم إلى كونهم ممثلين لطراز ما، وما ذلك الطراز إلا التجسد المادى لإحدى الوظائف. فالمواهب الخاصة التى عليها هذا الولى أو ذاك، أو هذا الحاكم أو ذاك، ليست ذات بال إلا من حيث إنها تحدد مرتبته بين الممثلين العديدين للطراز نفسه».

ويقول في صفحة (٢٩٣): «والإسلام دين إنساني ممتاز من ناحية أخذه الإنسان على علاته، ولكنه لا يجعل الإنسان محل اعتباره الأول من حيث كونه لا يهتم بأجزل ما يمكنه كشفه وتعهده من إمكانيات الإنسان، وفي كونه لم يفكر أبدا في أن يجعل تكوين الناس أهم مبدأ من مبادئ الحضارة وأنبل واجباتها. فالإنسان [١] أحوج إلى أن يوجه ويرشد إلى طريق النجاة منه إلى أن يعلم كيف يجعل تعهده لذاته في أثناء تعهده لهذا العالم، أجدر الأعمال بالجزاء السرمدي ...».

ولطرافة هذه القضية نتناولها بشئ من البيان بقدر ما تسمح به طبيعة هذا الكتاب.

إن تذكير الإنسان بأصله المهين لم يكن لتحقير الإنسان كما ظن جرونيباوم، ولنفترض - من باب حسن الظن - أنه أخطأ الفهم فحسب، ولم يتعمد المغالطة! وإلا فالقرآن هو الذي يقول: ﴿ **وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا** ﴾ [الإسراء: ٧٠] إنما يذكّر الإنسان بأصله المهين حين يطغى ويتجبر في الأرض بغير الحق: ﴿ **أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ** ﴾ [يس: ٧٧] ويذكر بفضل الله عليه لكي لا ينسى: ﴿ **وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** ﴾ [النحل: ٧٨]

فليست المسألة هي رغبة التحقير كما ظن العالم الكبير!

ثم إن وجود «المعيار» الذي يقاس إليه الإنسان حاضرا في أذهان المسلمين، سواء كانوا مؤرخين أو كتّاب سير أو حتى أدباء وشعراء لا يستتبع حتما إلغاء شخصية الإنسان الفرد. فلا تناقض بين هذه وتلك. والإسلام هو الذي ينبه كل إنسان فرد إلى ذاتيته الفردية ﴿ **وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ** ﴾ [الأنعام: ١٦٤] ﴿ **كُلُّ**

---

(١) يقصد في التصور الإسلامي.

نفسٍ بمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ [المدثر: ٣٨] إنما هو التوازن الذى ينظر إلى الإنسان فردا وعضوا فى مجتمع فى ذات الوقت، وفردا دنيويا وأخرويا فى ذات الوقت، فينتج من ذلك العناية به فردا وتذكيره الدائم بالمعيار الذى يقوّم به حياته وأعماله وهو المعيار الربانى، الذى هو فى ذات الوقت معيار أخلاقى شامل لكل نشاط الإنسان.

ولا يجنح الإسلام إلى أىّ من انحرافات الجاهلية المتطرفة من هنا والمتطرفة من هناك. فلا يبالغ - مثل الغرب - فى تقدير الإنسان الفرد إلى الحد الذى يلغى فيه روابط المجتمع ومعايير التقويم الأخلاقية، ولا يبالغ - مثل الشرق الشيوعى - فى تقدير قيمة المجتمع بحيث يلغى كيان الإنسان الفرد، ويلغى كذلك معايير التقويم الأخلاقية ... إنما يتوازن - شأنه دائما - بين هذا وذاك. على أنه كان يكفينا للرد على هذه الدعوى العجيبة أن نستشهد بكلام المؤلف نفسه بعد ذلك بصفحات، حيث أقر أن الاهتمام «بالمعيار» لم يستتبع بالضرورة إلغاء الاهتمام «بالإنسان» الفرد، وذلك حيث يقول فى صفحة (٣٦٠): «وقد شهد القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) وهو أعظم قرون المدنية الإسلامية، تقدما مدهشا فى لطف التأويل، والمهارة فى العرض والتقديم. فإن المسعودى وابن مسكويه - ثم المحسن التنوخى (المتوفى ٩٤٤ وذلك فى مضمار النادرة التاريخية) - يتفوقون على من سبقوهم تفوقا بعيدا، إن لم يكن فى فهم الخلق الإنسانى، ففى وصفه وكشفه للعيان على كل حال. فهم قوم يدركون أن كل فرد مركّب وفذ فى ناحيته، وهم يبذلون جهدا كبيرا فى ترسمهم لمعالم الشخصية البارزة»!!

* * *

يظل المؤلف يردد فكرة معينة فى حيز آخر من الكتاب غير قليل هى أن كل شئ فى الإسلام تأثر بالروح الإغريقية أو تأثر بالروح المسيحية! أو بمعنى آخر أن الإسلام كله مأخوذ من أصول غير إسلامية!

حتى ألف ليلة وليلة لم تنج من نسبتها إلى أصول إغريقية!! فقد أنشأ فصلا كاملا عنوانه « يونان فى ألف ليلة وليلة » استغرق من صفحة (٣٧٣) إلى صفحة (٤٠٥)!!

وقصة الأصول غير الإسلامية للإسلام كلام يلوكه كل المستشرقين بلا استثناء . . . ولكن جرونيباوم – والحق يقال – قد بذّهم جميعا، أو بذّ كثيرا منهم، حين تطرق إلى ألف ليلة وليلة، ليثبت أن فيها تأثرات إغريقية! وعلى أى شئ بنى هذه القضية الخطيرة؟ على استدلال خطير جدا، لا يتوصل إليه فى الحقيقة إلا فطاحل الباحثين المدققين! ذلك أن قصص ألف ليلة وليلة تتعرض لأشخاص « يقتلهم الحب » . . . وفكرة « القتل من الحب » هى – إذا لم تكن تعلم – فكرة وردت قبل ذلك فى قصص الإغريق!!

على أن القمة التى لا تعلوها قمة فى هذا الشأن هى قوله فى صفحة (٣٥١) : « . . . وفى نفس هذا الاتجاه كانت تذهب تراجم القديسين المسيحيين، الذين تلمس أثرهم فى إطلاق المسلمين اسم « المغازى » أى « القتال » على أقدم تراجم النبى (ﷺ) تمشيا مع العرف المسيحى الذى يتمثل الشخصية المقدسة فى صورة المقاتل، ويتمثل أعماله فى صورة القتال »!!

أرأيت . . .!

العرب المسلمون سموا غزوات الرسول ﷺ « المغازى » تأثرا بسير القديسين المسيحيين!!

وماذا تراهم يا ترى – بغير هذا التأثير – كانوا سيسمون غزوات الرسول؟!!

وهذا هو « البحث العلمى » الذى يفتح بعض « المسلمين » أفواههم عجبا له وإعجابا به . . . وهم سادرون!

* * *

قضية أخيرة يختم بها الكاتب مؤلَّفه، ونختم بها حديثنا عنه، هى استمرار فى الحقيقة لقضية الأصول غير الإسلامية للإسلام، وذلك حيث يلخص فى آخر

الكتاب دور المسلمين فى الحضارة البشرية وأثرهم بصفة خاصة فى الحضارة الغربية.

ولعلنا لا نتوقع بعد تلك «العينات» التى عرضناها من طريقة معالجته لموضوعه، أن تكون الخلاصة الأخيرة خيرا من الأبحاث التفصيلية فى ثنايا الكتاب ... ولكننا مع ذلك نستعرضها لأنها لا تخلو من طرافة!

يقر الكاتب بأنه شديد العجب من الإسلام والمسلمين والحضارة الإسلامية!

وأشد ما يثير عجبه - فى هذه الخلاصة الأخيرة - هو القدرة العجيبة على أخذ أصول أجنبية، وهضمها وتمثيلها، ثم إبرازها فى صورة تبدو كأنها إسلامية أصيلة، وليست مأخوذة من تلك الأصول الأجنبية!!

يقول فى صفحة (٤٠٦) : «إن من ينظر عَرَضًا إلى الحضارة الإسلامية ليؤخذ بما هى عليه من وحدة عجيبة واتساق أخاذ - فإن أشياء بآحادها بل مدنا بأكملها تبدو وكأنما هى تنطق بنفس ذلك اللسان الرسمى الذى ترمز إليه بأعظم اليسر تأودات الخط العربى وتعاريجه المعقدة، على حين أن الجو الأجنبى الذى يتفيأه الوضع كله أمر تؤكده لغة صعبة محيرة وتضفى عليه درعا من وقايتها. ولا يلبث الدارس أن ينتبه رويدا رويدا إلى التباين المتناهى، والمختفى وراء القناع البهيج الزاهى. لا يلبث أن يتبين فيما تشهد عيناه مختلف أنواع العناصر القومية والإقليمية. ثم لا يلبث بمزيد من التحليل أن يكشف الأصل الأجنبى لكثير مما كان يبدو قوميا، ومع هذا فلا بد للباحث مهما تحرى الدقة والتمحيص من أن يشهد فى النهاية بقيام تلك الوحدة فى التكوين الروحى كما يشهد بقوة التكيف المدهشة التى تعرض العارية الأجنبية فى ثوب إسلامى أصيل لا يكاد أحد يستطيع معه تمييزها، وها نحن الآن نميط اللثام أكثر فأكثر عن العناصر غير العربية أو غير الإسلامية فى هيكل هذه الحضارة؛ فإن المساهمات المسيحية وشقيقاتها اليهودية الهللينستية والفارسية التى تزداد فى كل يوم بروزا لتصمد

واضحة جلية تميزها كل عين مدركة، وكيف لا وقد كان العلماء المسلمون الأول أنفسهم منتبهين إلى حد ما إلى اعتمادهم على علوم الأمم الأخرى غير الإسلامية. وكان التطور بتعاليم محمد (ﷺ) – على ما وراءها من ذخر هزيل من الحضارة العربية، ومواصلة النهوض بها إلى أن أصبحت قوام الثقافة الإسلامية وجهازها الذى ينادى بصحته الشاملة ويطبع بقوة لألائه الخاص الصريح كل فلذة مفردة يستحوذ عليها وكل فكرة مفردة يتقبلها – كان ذلك كله من أعظم مشاهد التاريخ فتنة وروعة ».

خلاصة هذه الفقرة أن العبقرية الحقيقية فى الحضارة الإسلامية ليست عبقرية الخلق والإبداع، ولكنها عبقرية التنسيق بين الأصول الأجنبية المتباينة. وليس هذا « تأويلا » منا لنص كلامه، فهو يقوله صراحة فى صفحة (٤١١) من الكتاب حيث يقول: « ولكن أصالة الإسلام إنما تظهر بالضبط فى قدرته على تكييف الإلهام الدخيل وفق حاجاته، وفى خلقه إياه خلقا جديدا يسبغ عليه طابعه الخاص، وفى نبذه كل مالا يقبل التكيف. ولا يكاد يستساغ تسمية الإسلام باسم الخلاق المبدع من حيث كون الإغريق خلاقين مبدعين فى القرنين الخامس والرابع ق . م . ولا من قبيل إبداع العالم الغربى منذ عصر النهضة، ولكن نكهته ظاهرة جلية فى كل شئ مسته عصاه السحرية ».

وبصرف النظر عن كلمة « عصاه السحرية » التى يحاول أن يخفى تحتها تهجمه السافر على الحضارة الإسلامية، فإن أصل القضية كلها عنده أن المسلمين استعاروا فى بدء نهضتهم أشياء وجدوها نافعة لهم فى فارس وروما وغيرها من الجهات ... وعن عمد يقف بالتاريخ عند مرحلة الأخذ هذه، ولا يسير مع خطوات التاريخ كما يقتضى البحث العلمى النزيه ليرى كيف فعلت الروح الخلاقة بما استعارته من خارج كيانها من أشياء ...

فإذا كان الأخذ من الغير جريمة تصم صاحبها طيلة حياته بعدم الأصالة، فهل هذا هو رأيه الدائم فى جميع الأحوال؟! إننا على استعداد لاحترام رأيه حتى

ولو كان خاطئا لو أنه حافظ عليه وهو يقيس كل الحضارات . . . فهل تريد أن تتأكد من صدق المقياس؟! تعال إذن نر كيف ينظر إلى الحضارة الغربية وأخذها من الحضارة الإسلامية :

يقول فى صفحة (٤٣٥) : «وليس ثمة ميدان من ميادين الخبرة الإنسانية لم يضرب فيها الإسلام بسهم، ولم يزد ثروة التقاليد الغربية فيها غنى . فثمة الأطعمة والأشربة، والعقاقير والأدوية، والسلاح والدروع ونقوشها والفنون الصناعية والتجارية والبحرية، ثم بعد ذلك الأذواق والموضوعات الفنية، ودع عنك الحديث فى المصطلحات العديدة فى الفلك والرياضة – فإن قائمة تدل على المدى الكامل لمساهمة الإسلام فى كل ذلك تستنفد صفحات عدة دون أن تبلغ ولو من بعيد درجة التمام، وإن نفس وجود العالم الإسلامى كان له أثر كبير فى صوغ التاريخ الأوربى والحضارة الأوربية . وكانت الحروب الصليبية، من كثير من النواحى، أعظم مغامرة أقدم عليها الإنسان فى العصور الوسطى وأبعدها أثرا . ذلك أن القصص الإسلامى والأخيلة الشعرية وفلسفة الغيبيات الإسلامية وجراءة المذاهب الصوفية الإسلامية، قد تركت جميعا آثارها ببلاد الغرب فى القرون الوسطى، ولا شك أن أعظم رجال اللاهوت وأعظم الشعراء فى القرون الوسطى الأوربية مدينون للإسلام بأكبر الفضل فى ناحيتى الإلهام والمادة جميعا . . .» .

لعلك تظن بعد هذا الاعتراف الباهر أنه قد اعترف بتأثير الإسلام فى الحضارة الغربية . . .

إن كان فى نفسك هذا الوهم فاسمع قوله قبل ذلك مباشرة فى صفحة (٤٣٤) : «عندما يحلل المرء الحضارة الغربية كما تبلورت إبان العصور الوسطى وعصر النهضة – ابتغاء مقوماتها الرئيسية – فإنه يلمس بغاية الوضوح التأثير المحدود (!!) لما كان بينها وبين العالم الإسلامى من اتصالات مستطيلة ولكنها سطحية شيئا ما . وقد يقال إن الحضارة الإسلامية ساهمت بقدر كبير من

التفاصيل، كما قامت بما يسمونه فى الكيمياء بدور المعادل الكيميائى، على أنها لم تؤثر فى البنيان الجوهرى للغرب. وربما كان وجه للمشاحة فى مدى صدق تفسير الحضارة الغربية الحديثة بأنها استمرار للحضارة الكلاسيكية. ولكن من غير المعقول أن يبلغ الأمر بنا أن نتساءل عما إذا كان أى من عناصرها راجعا إلى الإلهام الإسلامى!!

أفى شك أنت، بعد، من «نزاهة» الكاتب، وروحه «العلمية» الخالصة فى تقدير الأمور؟!!

وِلْفِرِدْ كَانْتِوِلْ سميث

W . C . Smith

ولفرد كانتول سميث مستشرق كندى معاصر، عمل فترة من الوقت مديراً لمعهد ما كجل للدراسات الدينية المقارنة بكندا، ثم مديراً لمركز دراسة الديانات العالمية بجامعة هارفارد بالولايات المتحدة. وهو من تلاميذ «جب» النابهين، أبدى «جب» إعجابا ظاهراً به كما أنه هو دائم الإشادة بأستاذه. والحقيقه أنه أتقن أسلوب المدرسة التى يرأسها «جب» وربما كان أبرع السالكين على طريقتها!

وقد اخترنا له كتاب «الإسلام فى التاريخ الحديث Islam in Modern History»

* * *

يقع الكتاب - في طبعة جامعة برنستون ١٩٥٧ - فى ٣٠٨ صفحة من القطع الكبير، عدا فهرس الأعلام الذى يقع فى تسع صفحات. وينقسم الكتاب إلى ثمانية فصول على النحو التالى: فصل المقدمة بعنوان «الإسلام والتاريخ» والفصل الثانى بعنوان «الإسلام فى التاريخ الحديث» والفصل الثالث بعنوان «العرب: أزمة سياسية» (ويقصد بها الأزمة المتعلقة بالإسلام فى العالم العربى) والفصل الرابع بعنوان «تركيا: حركة إصلاح إسلامية؟» (وعلامة الاستفهام موجودة فى أصل العنوان، ويعنى بها المؤلف: هل يمكن أن نعتبر ما حدث فى تركيا حركة إصلاح إسلامية؟) والفصل الخامس بعنوان «باكستان: دولة إسلامية» والسادس بعنوان «الهند: مشاركة إسلامية»، والسابع بعنوان «مناطق أخرى» والثامن بعنوان «خاتمة».

* * *

هذا الكتاب الكبير الحجم المتعدد الموضوعات، المتسع الرقعة، يدور كله حول فكرة واحدة، ويهدف إلى غاية واحدة، هى تيئيس المسلمين من الإسلام!

ولكن المؤلف لا يقول لك ذلك دفعة واحدة، ولا يقوله لك لأول وهلة!

إنه يبدأ مرحبًا بك ـ أنت القارئ المسلم بصفة خاصة – هاشًّا فى وجهك، فاتحًا لك ذراعيه، وزاعمًا لك أنه يفتح لك قلبه كذلك!

إنه – يا أخى – يحبك! ويحب لك الخير! ويتعاطف معك، ويعطف على موقفك!

إنه يعلم أنك تعانى أزمة فى موقفك الحاضر، وهو يمد لك يده ليأخذ بيدك، ويكون الهادى المرشد لك ليهديك إلى سواء السبيل!

وهو يعرفك جيدا ... يعرف ماضيك المجيد كله، حين كنت أنت سيد الدنيا وقاهرها، والقوة المسيطرة على وجه الأرض. ويعرف كذلك أزمتك الحاضرة ... أنك فقدت سلطانك وغُلبت على أمرك ولم يعد لك من مجدك القديم إلا الذكرى، ولكنك مع ذلك تريد أن تنهض مرة أخرى، وتستمر فى طريقك تستشرف المستقبل. وهنا تكمن أزمتك، أو الجانب الأكبر منها: فعلى أى أساس تنهض، وأى طريق تسلك؟

إنك – أو كأنك – تريد أن تنهض ومعك إسلامك! أو تريد أن تنهض مستندا إلى إسلامك!

وهنا تكمن أزمتك!

فهل أنت تستطيع أن تصنع ذلك؟

خذ نصيحة المؤلف واسترح .. إنك لن تستطيع! مهما حاولت فلن تستطيع!

فليكن الإسلام – إذا شئت – عقيدة فى داخل القلب ... أو إذا شئت أن تأخذ التعبير الغربى – المسيحى – « علاقة بين العبد والرب ».

أما أن يكون منهج حياة لك ... فذلك جوهر أزمتك التى أنت متورط فيها، وليس لك إلى حلها من سبيل!

أما بقية الأزمة فهو أنك – وخاصة إذا كنت مسلما عربيا – شديد الاعتزاز بنفسك، شديد الاعتزاز بماضيك، شديد الاعتزاز بإسلامك ... وهذا هو الذى

يعطى أزمتك طابع الحدة ... فأنت – على هذا الوضع – لا تتقبل الحل الذى يقدمه لك المؤلف بكل « حب » و« مودة » و« إخلاص » وهو أن تترك هذا الإسلام جانبا – فيما عدا عقيدة القلب – وتأخذ الحضارة الغربية واقعا اقتصاديا وسياسيا واجتماعيا وفكريا وتكنولوجيا لا علاقة له بالعقيدة!

* * *

ذلك هو الموضوع الحقيقى للكتاب!

ولكن المؤلف – كما قلنا – لا يقوله لك دفعة واحدة، ولا يقوله لك لأول وهلة لكيلا تنفر من أول الطريق! وإنما يظل يدور بك فى دوائر حلزونية تقترب وتقترب، حتى تصل إلى القول الصريح بعد طول التلميح!

وهو كذلك لا ينسى أن يؤثر على وجدانك – أو على أعصابك – بشئ من المديح تارة، وشئ من الإقرار بحقائق الإسلام تارة، وشئ من الإقرار بمواقف الغرب المتعصب ضد الإسلام تارة ... حتى إذا وصل بك « الخدر » إلى أقصاه، دس لك من السم فى داخل العسل ما يريد، وأنت – إذا شئت – راض عنه كل الرضا، ومحبّذ، ومستجيد!

وقد مرّ بنا فى الفقرة الثالثة من هذا الفصل، الخاصة بالمستشرق « جب » بيان هذا الأسلوب الذى تتبعه « المدرسة الحديثة » فى الاستشراق، مصدقة به قوله تعالى: ﴿ **وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ** ﴾ [آل عمران: ٧٢] ... ولكن الحقيقة أن « سميث » فى هذا الأمر يفوق أستاذه! فعدد « الحقائق » التى يقدمها عن الإسلام ونوعيتها، وكذلك عدد « الاعترافات » التى يقدمها عن موقف الغرب تجاه الإسلام ونوعيتها يفوق ما قدمه « جب » بل ربما كان يفوق ما قدّمه أى مستشرق آخر ممن قرأت لهم. وهذا الذى يجعل القارئ – إن لم يحترس – أكثر عرضة للخديعة فيه!

فحين يعطيك فى فصل « الإسلام والتاريخ » تصويرا دقيقا للإسلام كما يفهمه المسلمون ويؤمنون به، ويحلل تصور المسلم للتاريخ، ويعقد مقارنة دقيقة

بين تصور التاريخ عند المسلم والماركسى والمسيحى والهندوسى تخرج منها بأن التصور الإسلامى هو الأشمل والأكثر فاعلية فى حياة الإنسان ...

وحين يحدثك فى تفاريق الكتاب عن أمجاد الإسلام والنجاح الذى أحرزه المسلمون ...

وحين يقول لك - مثلا - إن الإسلام « الكلاسيكى » نجح نجاحا بارزا فى تربية رجال لهم خلق، لا تفتنهم أطماع الحياة الدنيا ولا تفسد ولاءهم للدوافع الخلقية، وإنه استمر يعطى هذه النماذج البشرية العالية حتى بعد أن فقد قوته السياسية بفترة طويلة ...

وحين يعترف لك - من جانب آخر - ببربرية الغرب فى قمع « العرب » كما حدث من الإنجليز فى مصر والفرنسيين فى سوريا والشمال الإفريقى ... وباستخدام الغرب لكل أسلحته المادية والاقتصادية والسياسية والفكرية فى هذا القمع ...

وحين يعترف لك بأن الغرب لم يكتف بعدم فهم الإسلام بل وصل إلى ادعاء عيوب ليست حقيقية من أجل الإهانة والتحقير ...

وحين يعترف لك بأن قمة العدوان الغربى على المسلمين كانت تأييد اليهود ضد العرب فى فلسطين ...

وحين يعترف لك بأن أوربا تعادى الإسلام عداءً « أصليا » عميقا فى حسها لا تستطيع أن تنساه أو تتخلص منه ...

حين يصنع ذلك كله، فهو يقوم بعملية « إغواء » ماكرة، هدفها أن تصدق نزاهته، فتتقبل بعد ذلك كل ما يقدمه لك عن الإسلام بروح الرضا، إن لم يكن بروح التسليم! [1] !

* * *

(١) وقع العقاد نفسه فى هذه الخديعة رغم تصديه « للدفاع » عن الإسلام وإبطال ما يرجف به خصومه، وذلك حين خصّه فى كتابه « ما يقال عن الإسلام » بثناء غير قليل، وتحدث عن نزاهته وتجرده، وأنه ليس مثل غيره من المستشرقين!

فى الفصل الأول الذى سماه «الإسلام والتاريخ» يصوغ معظم مديحه للإسلام والمسلمين، بعد أن قال فى التمهيد إنه يهدف من كتابه هذا إلى تفهم حقيقة الإسلام وواقع المسلمين ليكون ذلك عونا على التفاهم المشترك بين المسلمين والمسيحيين.

ولا عجب أن يكون ذلك كذلك! ففصل المقدمة هو أولى الفصول أن يقوم بدور الترغيب أو «الإغواء» المطلوب، الذى يوهم القارئ أنه فى جوٍّ صديق، وأنه ليس فى حاجة لأن يمسك بسلاحه: سلاح الحذر والتربص، بل هو احرى ان يلقى سلاحه ويجلس مستريح الأعصاب يتلقى ما يراد منه أن يتلقاه! ﴿ **وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً** ﴾

[النساء: ١٠٢]

فى هذا الفصل كما قلنا يعرض تصور المسلم للإسلام، وكيفية تأثره به، وموقف المسلم من التاريخ، ويعقد تلك المقارنة الدقيقة الواعية بين تصور المسلم للتاريخ وتصور المسيحى والهندوكى والماركسي، ثم يعرض شيئا من التاريخ الواقعى للمسلمين يبين فيه كيف التقى الواقع والمثال فى هذا التاريخ، وخاصة فى فترته الأولى، وأن هذا الالتقاء أصيل فى بنية الإسلام، فإن القيم التى يمثلها الإسلام قد نزلت للتنفيذ ... نزلت لتطبق فى واقع الحياة، لا لتكون مُثلاً تتحقق فى العالم الآخر! وقد طبقت بالفعل، فكان من نتائج تطبيقها ذلك النجاح الكاسح الذى حققه المسلمون فى رقعة واسعة من الأرض، ورقعة واسعة من التاريخ.

كما يعقد مقارنة أخرى بين الفكر الإغريقى والفكر المسيحى وبين الإسلام فى طبيعة العلاقة بين الإنسان الفانى وبين الأزل والأبد، يقول فيها إن الصلة بين الإنسان الفاني والنظام النهائى للأشياء بالنسبة للإغريقى هى العقل المفكر، وإن الصلة بالنسبة للمسيحى هى شخص المسيح. أما بالنسبة للمسلم فالصلة بين الإنسان وبين الله هى التقوى.

هذا كله، وغيره مما يجرى مجراه، يجئ فى الفصل الأول ليقوم بعملية التخدير المطلوبة، وتهيئة القارئ للدور المطلوب .

ومع ذلك فهذا الفصل ذاته لا ينجو من السموم!

ففى صفحتى (٨ - ٩) (والفصل يبدأ فى صفحة (٣) يقوم بالمحاولة الأولى لتمييع مفهوم الإسلام! وذلك حيث يقول فى عرض فلسفى ظاهره الموضوعية الكاملة، إن الإسلام مفهوم عام شامل ولكن له فى الوقت ذاته صورا متعددة بعدد معتنقيه! ومن باب التغطية يقول إن هذا هو شأن الأديان كلها وليس الإسلام وحده!

وفى ثوب الفكر الفلسفى قد تمر هذه « الحقيقة » بريئة المظهر! فلا شك أن هناك قدرا من « الذاتية » فى تطبيق المفاهيم العامة المشتركة، وكل إنسان - فى النهاية - هو عالم وحده، بكل خصائصه الذاتية التى لا يشاركه فيها إنسان آخر. ولكن الذى يقرأ الكتاب حتى آخره، ويدرك الطريقة التى يعرض بها المؤلف كل فكرة يقولها، سينكشف له أن هذه « الحقيقة » التى بدت بريئة المظهر فى أول الكتاب، ستتطور فى النهاية لكى تصبح : أنه لا توجد حقيقة « ثابتة » للإسلام! وأن الإسلام هو ما يتصوره المسلمون من الإسلام! فإذا رأوا - كما رأت تركيا أتاتورك - أن الشريعة ليست ملزمة فلا باس . . . وهم مع ذلك مسلمون! وإذا رأوا - كما رأت تركيا أتاتورك كذلك - أن رموز الإسلام لا تحتاج إلى مفاتيح جديدة فحسب، بل إنها هى ذاتها تحتاج أن يستبدل بها رموز جديدة، فلا بأس . . . وهم مع ذلك مسلمون!

أرأيت إذن كيف تبدو « الحقائق » بريئة المظهر فى الثوب « العلمى » ويكون وراءها ما وراءها من مغالطات وأغاليط؟!

إن قيام تصور خاص للمفهوم العام فى نفس كل إنسان فرد، لا يذهب بوجود ذلك المفهوم العام، ولا يميعه إلى حد أن يعيث فيه - بهواه - كل من أراد أن يعيث!

والإسلام بصفة خاصة شئ محدد جدا فى أركانه الرئيسية التى لا يقوم إلا بها، ولا يسمى إسلامًا إلا بها.

فتحكيم شريعة الله ، الذى يعطى المجتمع الإسلامى سمته واتجاهاته العامة، ليس أمرًا متروكًا لهوى الناس ولا لتصوراتهم الخاصة، بل إنه هو المحك الحقيقى لصدق شهادة لا إله إلا الله التى ينطق بها الناس: ﴿ **وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ * وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ * وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ * أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ * إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾ [النور: ٤٧ - ٥١] ﴿ **فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا** ﴾ [النساء: ٦٥]

وفى صفحة (٣٢) يضع قنبلته الثانية فى صورة « حقيقة موضوعية » أخرى!

فبعد أن استعرض تاريخ الإسلام الظافر الناجح المكتسح، الذى يلتقى فيه الواقع بالمثال، يقول: « ولكن التاريخ يتحرك ... وإذا كانت إحدى حقائق الإسلام الأرضى (يقصد التاريخ الواقعى للإسلام) أن برنامجه قد عمل بنجاح لفترة من الوقت، فحقيقة أخرى أن ذلك كان لفترة من الوقت فحسب. فالحضارة العربية - مثل غيرها من حضارات البشر - قامت وازدهرت لفترة من الوقت - ثم انهارت »!

وزيادة فى « الموضوعية » يقول إن سقوط بغداد على يد التتار سنة ١٢٥٨ لم يكن هو النهاية الحاسمة لما يسميه « الحضارة العربية » فقد بقيت قرنين آخرين فى أماكن أخرى كالقاهرة وأسبانيا.

وزيادة فى « الموضوعية » كذلك يقر بأن حركة إسلامية أخرى قد قامت على

يد أناس من غير العرب، وحققت أمجادا إسلامية جديدة، وكتبت فصلا جديدا فى تاريخ الإسلام.

ومع ذلك فهو يركز على « حقيقته الموضوعية » الأولى بأن سقوط بغداد قد أنهى الفترة الكلاسيكية » للتاريخ الإسلامى.

وأما أن هذه حقيقة تاريخية فأمر لا شك فيه.

وأما ما يريده الكاتب « من ورائها » فأمر آخر مختلف كل الاختلاف!

إنه – كما يبدو لمن يقرأ الكتاب حتى آخره بالوعى اللازم له – يريد أن يقول إن هذه الفترة قد انتهت ولن تعود!

ولا يتبادر إلى ذهن أحد أن المؤلف يقصد – كما يقصد بعض المسلمين الذين يفكرون على هذا النحو – أن أخلاق الناس قد تغيرت، وأنه لا أمل – من ثم – فى العودة إلى الإسلام الصحيح.

كلا! إنه لا يقصد شيئا من ذلك على الإطلاق!

إنما هو يتخذ من هذه « الحقيقة الموضوعية » التى ذكرها مرقاةً يصعد عليها ليقول شيئا آخر ... إن كل عصر له « إسلام » معين! فالإسلام « الكلاسيكى » انتهى بسقوط بغداد وبدأ « إسلام العصور الوسطى » وهذا بدوره أدى إلى « الإسلام الحديث » الذى هو لون ثالث من الإسلام لا صلة له بهذا ولا ذاك! والذى هو فى طريقه إلى « تطور » هائل جدا ... بشائره هى « الإسلام التركى » أو الأحرى أن نقول « الأتاتوركى! » وأما آخر مداه فلا يعلمه إلا الله!

أرأيت!

أرأيت كيف تلتقى الخيوط كلها فى النهاية عند عقدة واحدة، تجمّع لها الأفكار واحدة إثر الأخرى، وتُسْنَد بالحقيقة « الموضوعية » تلو الأخرى، حتى تظهر « الحقيقة الكبرى » فى النهاية، متلبسة فى ثوب « علمى » بحت، يخدع من عنده استعداد للخديعة، ويستهوى من عنده استعداد للاستهواء؟!

والله يقـول لأهل الكتـاب : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران : ٧١]

ويقـول للمـؤمنين : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ﴾ [آل عمرا : ١٠٠]

ويقـول : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [آل عمران : ١١٨]

إن تغـيـر « المسلمين » فى عـصـور تاريخـيـة، ثلاثة أو أكـثـر، لا يعنى تغـيـر « الإسلام » .

إن هناك « حقيقة موضوعية » كبرى لا يجهلها المؤلف لأنه ذكرها في كتابه أكثر من مرة، وإن كان قد ذكرها ليحاول صرف المسلمين عنها وهى أن هذا الدين – وحده فى تاريخ الدين كله – له أصول محفوظة لم يتطرق إليها التحريف، وهذه الأصول وحدها هى التى تصور « الإسلام » وتعبر عنه . والناس « مسلمون » بقدر ما يلتزمون بهذه الأصول المحفوظة، وحائدون عن الإسلام بقدر ما يحيدون عن هذه الأصول . وبقاؤهم منحرفين ألف سنة – إن كان ذلك قد حدث [١] – لا يغير حقيقة انحرافهم، ولا يعطى انحرافهم شرعية بحيث يصبح وجها « متطورا » من أوجه الإسلام!

كما أن هناك حقيقة موضوعية أخرى لا يجهلها المؤلف لأنه ذكرها فى كتابه أكثر من مرة، وإن كان قد ذكرها ليحاول صرف المسلمين المعاصرين عنها، هى أن انحراف المسلمين ألف سنة عن حقيقة الإسلام – إن كان ذلك قد حدث [١] – لا يمنع رجوعهم مرة أخرى إلى الصورة الصحيحة للإسلام، لأنها

---

(١) حدث انحراف تدريجى فى حياة المسلمين لا شك فيه، ولكنه لم يصل إلى حد الخروج على الإسلام إلا فى العصر الحديث .

صورة واضحة جدا عميقة القسمات جدا، ممثلة فى الكتاب والسنة، وفى الصورة التطبيقية لهذا الدين فترة غير قصيرة من الوقت. وأن هناك قدرا من « التغير » [ولا أقول التطور لكى لا نقع فى مفهومه الأوربى المنبثق من الداروينية] هو من طبيعة التطبيق الواقعى لهذا الدين، بتغير الظروف والملابسات، لا يقع خروجا على الإسلام، بل تحقيقا لروحه ونصوصه معًا، وهو الذى يعطى الفقه الإسلامى المرونة التى يواجه بها الظروف المتغيرة، ولكنه لا يكون أبدا تغيرا فى « المفاهيم » ولا فى « الأسس » إنما فى الصورة التطبيقية فحسب. وأن « الثابت » هو الذى يحكم « المتغير » فى الإسلام، وليس المتغير هو الذى يحكم الثابت. وأنه بهذه الطريقة وحدها – التى يقررها الإسلام – ينمو البشر نموهم السوى دون أن يقعوا فى الفوضى والاضطراب والضياع الذى وقعت فيه الجاهلية المعاصرة، التى يسميها المؤلف « الحضارة الغربية » ويدعو المسلمين إلى الأخذ بها بدلا من الإسلام!!

* * *

يتحدث المؤلف فى الفصل الثانى عن الإسلام فى التاريخ الحديث، فيتحدث عن « الوهابيين فى الجزيرة العربية » وعن « ولى الله فى الهند » وعن « الأفغانى » ثم « التطوارت التالية » أى التالية لهذه الحركات السابقة ثم يتحدث عن « الاتجاه التحررى » (أو الليبرالى كما يسمى أحيانا فى كتابات بعض الكتاب !) ثم عن « الاتجاهات الوطنية (والقومية) » ثم عن « حركات (أو كتابات) الدفاع عن الإسلام » وأخيرا عن « حركات العنف فى العالم الإسلامى » .

ونظرة سريعة إلى حجم الكلام عن كل عنوان من العناوين السابقة يكشف لنا أين يقع اهتمام المؤلف أو أين يتركز. فقد تحدث عن الوهابية فى ثلاث صفحات وكذلك عن ولى الله، ثم عن الأفغانى فى أربع صفحات وكذلك عن التطورات التالية، بينما تحدث عن الاتجاه التحررى فى ثمان عشرة صفحة! وعن

القومية والوطنية فى اثنتى عشرة صفحة! ثم الكتابات الدفاعية فى أربع صفحات (وإن كان قد عاد إلى هذا الموضوع بالذات عدة مرات فيما بعد، بما يظهر اهتمامه البالغ به) ثم عن حركات العنف فى صفحتين اثنتين (ولكنه عاد إليها مرة أخرى فى الفصل التالى بما يؤكد اهتمامه بها كذلك) .

من الواضح إذن أن أشد ما يركز عليه المؤلف هو الحركة التحررية والاتجاهات الوطنية والقومية ... فهل جاء ذلك اعتباطا؟!

ثم يبدى اهتماما واضحا كذلك بالكتابات الدفاعية عن الإسلام وبحركات العنف ... فهل يجئ ذلك اعتباطا؟!

كلا لا ريب! وإنما تكشف هذه الاهتمامات الخاصة عن دخيلة المؤلف من حيث يشعر أولا يشعر، وتكشف كذلك عن أهدافه.

ولنستعرض باختصار ما يقوله تحت كل عنوان من العناوين الفرعية الثمانية الواردة فى هذا الفصل. ونبدأ بمناقشة السطور العشرين التى كتبها فى مقدمة الفصل يشرح فيها أهدافه.

يقول فى هذه السطور إن «المرض» الذى يعانيه الإسلام [1] الحديث هو الشعور بأن خطأ ما قد حدث فى التاريخ الإسلامى، وإن المشكلة الرئيسية للمسلم المعاصر هى كيف يصلح هذا التاريخ ويعيده إلى حركته السوية. والأزمة الروحية الأساسية فى إسلام القرن العشرين تنبع من الإحساس بأن هناك شيئا غير مستقيم بين الدين الذى فرضه الله وبين التطور التاريخى للعالم الذى يدبره سبحانه ويسيّر حركته (!) ثم يقول إن الهدف من العرض السريع الذى يحويه هذا الفصل هو بيان أثر الصفة الروحانية للإسلام (التى وضحها المؤلف فى الفصل السابق) على التطورات التاريخية التى حدثت بالفعل، وكذلك أثر هذه الأحداث على التطور الروحانى المعاصر للإسلام (!).

---

(١) يستخدم المستشرقون كلمة «الإسلام» ويقصدون بها «المسلمين» كما جاء فى الفصل السابق لغاية معينة فى نفوسهم!

فأما إحساس المسلم المعاصر بأن خطأ ما قد حدث فى مجرى التاريخ الإسلامى فأمر حقيقى لا شك فيه. أما أن الأزمة منشؤها الإحساس بوجود تباين بين الدين الذى فرضه الله وبين التطور التاريخى الذى يسيّر الله حركته فتعبير عجيب من المؤلف (وإن كان كثير من « المثقفين » على يد الغرب يستسيغونه ولا شك!) ولو قال – كما قال مرارا فى كتابه – إن الأزمة هى محاولة التوفيق بين الإسلام وبين الحياة العصرية لكان أكثر دقة واستقامة فى التعبير. أما هذه العبارة العجيبة فهى تصور أزمة لا وجود لها إلا فى وهم المؤلف ... فالمسلم المعاصر يرى فى « التطور » الذى حدث أشياء نافعة ويعتقد أن الإسلام لا يتعارض معها، وأشياء ضارة يعتقد أن الإسلام يستنكرها ويأباها. ولا يحدث ذلك فى نفسه أزمة على الإطلاق، ولا إحساسا بالتباين بين الدين الربانى وبين سير الأحداث فى الأرض بقدر من الله، فالله يقول: ﴿ **ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ** ﴾ [الروم: ٤١] فلا تعارض إذن بين الدين الذى أوجبه الله وبين جريان الأمر فى الأرض بما يخالف هذا الدين، بقدر من الله!

* * *

يقول عن الوهابية إنها أولى الحركات الحديثة وأعظمها وإنها ما تزال حتى اليوم ذات أثر فعال ... ثم يقول إنها كانت ناجحة فى الصحراء، وإن الصحراء هى ميدان نجاحها الطبيعى! وذلك بعد أن قال إنها تهدف إلى العودة إلى « الإسلام الكلاسيكى »!

وعن ولى الله يقول إن حركته هى حركة تطهير مثل الوهابية، ولكنه يمثل « إسلام العصور الوسطى » أكثر من « الإسلام الكلاسيكى »!

أما الأفغانى فيقرر عنه مجموعة من الحقائق الهامة ذات دلالة لمن يريد أن يتعرف على حقيقته، وحقيقة الدور الذى قام به، والسر فى تعاطف المستشرقين جميعا معه، وإزجاء المديح له، فهو يقول عنه إنه كان يمزج بين الدعوة الوطنية

والدعوة الإسلامية ص (٤٨) ويتعاطف مع الفكر الغربى ويدعو إلى تقليد الغرب! ص (٥٠) .

وعن التطورات اللاحقة يذكر مجرد ذكر حركة السنوسى فى ليبيا، والمهدى فى السودان، والحركة الإيرانية، وحركة شركة إسلام والمحمدية فى اندونيسيا، وحركة الخلافة فى الهند . . . إلخ.

أما الحركة التحررية فيفيض فى الحديث عنها كثيرا!

إنه يقول ابتداء إنها آتية كلها من طريق الغرب، وعن طريق التعليم على الطريقة الغربية وفى مدارس الغرب بصفة خاصة. ثم هو يمتدحها امتداحا شديدا، لأنها تهدف إلى « تطوير » الإسلام وتطعيمه بالمفاهيم الغربية، وإدخال الأفكار الغربية فيه للخلوص فى النهاية إلى « إسلام جديد » يغاير « الإسلام الكلاسيكى! » ولا يتقيد بمفاهيمه! ويتبنى « العلمانية » (١) أساسًا للتفكير وأساسا للحياة، ويتخذ تركيا مثالا لذلك كله، بصورة تحدد هدف المؤلف تماما، كما تحدد رغباته! إنه يرغب رغبة حارة فى أن ينسلخ المسلمون من إسلامهم كما فعلت حركة أتاتورك ويصبحوا « علمانيين »، ويبقى الإسلام – لمن أراد! – عقيدة قلبية خالصة لا علاقة لها بواقع الحياة، وعلاقة بين العبد والرب لا تؤثر فى مجرى الأحداث السياسية والاقتصادية والاجتماعية!

ثم إنه بعد ذلك يبدى حسرته الشديدة على أن هذه الحركة التحررية لم تنجح فى العالم الإسلامى!!

ومرة ينحى باللائمة على « التحرريين » الذى تأثروا بالغرب لأنهم لم يستطيعوا أن يقدموا للمسلمين بديلا من الإسلام (!)

ومرة ينحى باللائمة على الغرب لأن موقفه المعادى للإسلام جعل الحركة

---

(١) لفظة « العلمانية » التى تترجم إليها كلمة Secularism الانجليزية لفظة مضللة! فهى – فى صورتها العربية هذه – قد توحى بأن بينها وبين العلم صلة ما. وحقيقة الأمر أن أوربا تستخدمها بمعنى إقامة الحياة بعيدا عن الدين. ومن ثم فالترجمة الصحيحة من وجهة النظر الإسلامية هى « اللادينية » وليست « العلمانية ».

التحررية – الغربية المنبع – لا تجد رواجا كافيا بين المسلمين. ثم يبدى حسرة مُرّة على أن الحركة التحريرية اتخذت فى النهاية وسيلة لتقوية العقيدة لا لإضعافها! (ص ٦٨) ومن ثم يقول إنها فشلت تماما فى أداء غرضها الرئيسى!

أما حديثه عن الحركات القومية والوطنية، الذى يستغرق اثنتى عشرة صفحة فيعترف فيه اعترافا صريحا بأن الوطنية (أو القومية) لا تتفق مع الإسلام! (ص ٧٥) ثم يعبّر عن تمنيه بأن ينجح جمال عبد الناصر فيما فشل فيه حزب الوفد من ناحية تعميق الاتجاه الوطنى والقومى! (ص ٧٦) ويحرض المسلمين تحريضا صريحا لنقل ولائهم من الإسلام إلى الوطنية، ويندد بهم لأنهم لم يصنعوا ذلك حتى اليوم! (ص ٧٧) ويحتج عليهم لأنهم – حتى الآن – لم يستطيعوا أن يعطوا ولاءهم لوطن غير مسلم! (ص ٧٨).

وفى موضوع الدفاع عن الإسلام (الذى عاد إليه مكررا فيما بعد) يقول كلاما يبدو فى ظاهره « علميا » تماما و« موضوعيا » تماما، ولكنه كما يقول المثل: كلمة حق أريد بها باطل!

يقول إن الدفاع عن الإسلام يحول الطاقة الفكرية عن حل المشاكل التى تواجه المسلم المعاصر إلى القول بأنه لا توجد مشاكل تحتاج إلى حل ...

ويقول إن مهمة المفكرين هى أن يبحثوا عن الحقيقة وعن حلول للمشكلات التى تواجه الناس لا أن يعطوهم وهما مخدرا بأنه لا توجد أمامهم مشاكل، فتكون النتيجة هى تراكم المشاكل وبقاءها دون حل ...

ويقول عن الموضوع ذاته فى الفصل التالى إنه إذا كان قصارى دفاع المدافعين عن الإسلام أن يقولوا إنه يتسع للحضارة الحديثة، أو إن فيه مثل ما فى الحضارة الحديثة، فهذا ليس دفاعا فى الحقيقة، لأنه يترتب عليه هذا السؤال: لماذا إذن لا نأخذ الحضارة الحديثة كما هى، أو من منابعها التى قدمتها لنا أى من أوربا ... وإنه ما لم يكن الإسلام يحتوى على ما هو أفضل من الحضارة الغربية فليس هناك ما يدعو إذن إلى التمسك به والدعوة إليه ..

وكل هذا حق ... ويبلغ من « حرارة » المؤلف فى عرضه أنك تكاد تصدق أن قلبه مشغول فعلا بالحق، وأنه ينصح المسلمين بالتخلى عن هذا العبث الذى يصنعونه فيما يسمى « الدفاع عن الإسلام » وينصرفوا إلى جهد مثمر ... !

لولا أنه، فى صفحة أخرى بعيدة بعيدة، يكشف فى عبارة عارضة عن السر الحقيقى فى حنقه على الكتابات الدفاعية عن الإسلام!

يقول فى صفحة ٢٢٥ : « ولا نقصد بذلك أن (المسلمين) الآخذين بالروح العصرية قد أصبحوا غير متدينين تماما. لقد حدث ذلك فى حالات نادرة، ولكن الأغلب أن الحماسة الدينية على الأقل بقيت قوية؛ وقد كان هدف الكتابات الدفاعية مثلا أن تبقيها كذلك، وهى فى هذا الأمر لم تخفق » !!

أرأيت !

إن العيب الحقيقى للكتابات الدفاعية ليس كذا وكذا. إنما هو إبقاء روح الحماسة الدينية فى قلوب المسلمين!

وأنا – والله – أوافقه فى أن الكتابات الدفاعية قد مضى دورها، وأنها ينبغى أن تكفّ، وتعطى البديل الطبيعى، وهو شرح حقائق الإسلام ابتداء، لا للرد على الشبهات التى يثيرها الأعداء.

ولكن ... !

لقد وجد بالفعل كتاب مسلمون، يشرحون حقائق الإسلام، ويبينون أفضلية الإسلام على الحضارة الغربية الجاهلية ... فكيف عاملهم المستشرقون؟ وكيف عاملهم بالذات ولفرد كانتول سميث؟

إن كنت تريد أيها القارئ أن تعرف، فاقرأ ما كتبه من « السباب » لواحد من الكتاب المسلمين (ص ١٥٩ ، هامشة رقم ٢٠٣) لأنه قال إن الإسلام خير من الحضارة الغربية !!

فى هذا الفصل كذلك يعقد مقارنة طويلة – وذكية – بين عهدين من الإشراف على مجلة الأزهر، الأول هو الفترة التى أشرف فيها على تحرير المجلة

الشيخ الخضر حسين رحمه الله، والثانى فترة الدكتور فريد وجدى رحمه الله. ويضع يده - بذكاء - على الفارق الرئيسى بين العهدين. ففى العهد الأول كان هم الشيخ الخضر التعريف بالإسلام لدعوة المسلمين إلى العودة إليه باتباع تعاليمه وتحقيق مبادئه فى عالم الواقع، مع بيان مدى انحراف المجتمعات الإسلامية عن حقيقة الإسلام فى الوقت الراهن. وفى العهد الثانى كان هم الأستاذ فريد وجدى التعريف بالإسلام لتمجيده فى نفوس أتباعه، وبيان عظمته وشموله، وإحياء الاعتزاز به فى النفوس، دون دعوة للناس إلى اتباع تعاليمه فى عالم الواقع، ولا بيان لانحراف المسلمين عنه فى الوقت الراهن. ويبين لك - فى وضوح - أن المنهج الأول هو الصحيح، وهو الأصدق والأعمق، وهو الذى يجب أن يكون عليه العمل، بينما المنهج الآخر نفخ فى الهواء، لا يحدث تأثيرا حقيقيا فى واقع الحياة.

وتكاد تصدق أن الرجل جاد ومخلص فى المقارنة، بتأثير «الحرارة» التى ينافح بها عن المنهج الأول وينتقد بها المنهج الآخر، وتكاد تعتقد أنه وقف واعظا ينصح المسلمين باتباع المنهج الصحيح، وعدم إنفاق الجهد فيما لا طائل وراءه! لولا أنه يوقظك من هذا الوهم بقوله إنه على الرغم من إخلاص الشيخ الخضر رحمه الله وصحة المنهج الذى اتبعه، إلا أنه فى النهاية لا يحل مشكلة ولا يؤدى إلى شئ حقيقى، لعدم إدراك الشيخ لطبيعة المشاكل المعاصرة التى تواجه الإسلام، وعجزه عن تقديم حلول عملية لتلك المشاكل ... فجهده كله ضائع فى النهاية!

وتكاد من جهة أخرى تعتقد أنه مخلص فى انتقاد الأستاذ فريد وجدى، ونصح الأمة الإسلامية بعدم اتباعه، لأنه ليس له مردود حقيقى فى حياة الأمة، ولا يغير شيئا من واقعها السيئ الذى تعيشه اليوم، لولا أنه يكشف لك - سهواً منه - عن السبب الحقيقى فى كل هذا الهجوم الحار على منهج فريد وجدى، إذ يقول لك فى صفحة (٢٢٥) - كما أشرنا آنفا - إن الأعمال «الدفاعية» التى قام بها المدافعون عن الإسلام لإحياء الاعتزاز به فى النفوس قد نجحت فى بقاء الحماسة للإسلام فى النفوس!

ولكن أعجب ما فى هذا الفصل هو قول ولفرد كانتول سميث إن حديث الكتاب الإسلاميين العاطفى عن الإسلام وقيمه ومزاياه لإثارة الإعجاب به والاعتزاز به والتعلق به لحل مشاكلهم الحاضرة هولون من الشرك! وإن هؤلاء الكتاب «مشركون»!! لأنهم بدلا من توجيه الناس لعبادة الله الواحد، يوجهونهم إلى عبادة الإسلام التاريخى!!!

أرأيت كيف يفتى فضيلة الشيخ ولفرد كانتول سميث بأن الدعوة إلى الالتزام بالإسلام شرك بالله وأن الدعاة إليه مشركون؟!

وأخيرا يتبدى لك واضحا ما يريده المؤلف من هذا الفصل الذى هو أطول فصول الكتاب وأشدها تركيزا. إنه يريد أن يقول لك إنه لا فائدة ترجى على الإطلاق من أى جهد - من أى نوع - يحاول به المسلمون إعادة الإسلام إلى التطبيق فى عالم الواقع، وإنما الحل الأوحد هو اتخاذ الإسلام عقيدة فى داخل القلب، واتخاذ «الحضارة الغربية» منهجا للحياة!!

* * *

فى صفحة ١٧٢ يتحدث عما يسميه «الإصلاحات» التى حدثت فى تركيا، ويقصد بها اتخاذ العلمانية منهجا للحياة، يتحدث عنها كأن الشعب التركى هو الذى أحدثها من ذات نفسه برغبة ووعى! ويعتبرها مزية للأتراك تفتقدها الشعوب الإسلامية الأخرى، التى لم تستطع أن تتنصل من ماضيها، ومن رؤيتها السلفية، وتستجيب لمقتضيات العصر! بينما يتساءل «مرو برجر» فى كتاب «العالم العربى اليوم» إلى أى مدى تنجح الحركات المفروضة من أعلى [١]، ويتخذ مثلا لها حركة أتاتورك فى تركيا! ويقول إنها لم تستطع أن تمحو معتقدات الشعب وتوجهاته، بسبب رد الفعل الذى قام تجاهها عند الناس!

ومما يثير السخرية أن يصف حال تركيا المعاصرة - بعد اتخاذها العلمانية - على أنها حال نجاح وتقدم وقوة ووقوف مع أوربا على قدم المساواة! ويعرف الناس

---

(١) سنناقش كتابه فيما يلى من الفصل.

جميعا درجة التبعية التى تعانيها تركيا للغرب، ودرجة الانهيار الاقتصادى الذى تعانيه - مع كثرة خيراتها - ودرجة المعاناة التى يعانيها الكادحون، ودرجة السيطرة التى يمارسها العسكر، على الرغم من كل المظاهر الديمقراطية الخاوية!

ثم يعود الشيخ ولفرد كانتول سميث في صفحة (١٧٥) فيصدر فتوى جريئة أخرى، تقول إن الكماليين الطورانيين، الذى فعلوا بالإسلام والمسلمين ما فعلوا كانوا مسلمين، وإن التطور الذى حدث على أيديهم كان تطوراً إسلامياً، أو حركة فى إطار الإسلام، بينما يسجل لهم - أو عليهم ! - أنهم كانوا ينظرون إلى الممارسة الإسلامية للدولة العثمانية على أنها كانت مضيعة للدولة!

ويخلص الإنسان من مجموع فتاوى الشيخ بأن الذين هدموا الدين واضطهدوا أصحابه كانوا مسلمين، وأن الذين يدعون إلى إحياء العواطف الإسلامية فى النفوس مشركون! فسبحان الله العظيم!

ويقول الشيخ فى صفحة (١٧٩) إن الدين يمكن أن يوسع! أى بإضافة أمور جديدة عليه. والله يقول إن الدين قد اكتمل: ﴿ **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا** ﴾ [المائدة: ٣] والرسول ﷺ يقول: « من أحدث فى ديننا هذا ما ليس فيه فهو رد » [(١)].

وفى صفحة (١٨٠) يبدى إعجابه بالأتراك الذين إذا سئلوا عن التكايا هل يعاد فتحها أو الشريعة هل يعاد تطبيقها أجابوا بلهجة القطع لن نسمح بذلك! ويخلط - وهو العالم الفقيه الذى يتصدر للفتوى! - بين التكايا التى هى بدعة، وبين الشريعة المفروضة من عند الله! ويبدى تأييده الحار للذين يعلنون عن نيتهم بعدم السماح بتطبيق الشريعة، ويقول عنهم إنهم مسلمون، والله يقول: ﴿ **فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا** ﴾ [النساء: ٦٥]

---

(١) متفق عليه.

ثم إنه يتغافل تماما عمن كان صانع «الثورة» فى الحقيقة: هل كان الشعب التركى، أم يهود الدونما؟ وهل كانت «للإصلاح»، أم كانت لإزالة النظام الذى رفض إعطاء اليهود وطنا قوميا فى فلسطين؟ وهو وأمثاله يعرفون الحقيقة كاملة، ولكنهم يكتمون الحق وهم يعلمون!

* * *

فى صفحة (١٨٢) يقول إن الرؤية الإسلامية هى أن الإنسان إما أن يكون خاضعا للوحى وإما يكون متبعا للهوى. ولا يعجبه هذا الوضع! لأنه يزعم أن هناك بديلا ثالثا لا تعترف به الرؤية الإسلامية هو تحكيم العقل !! عقل من يا ترى على وجه التحديد؟! وما الضابط الذى يضبط العقل فلا يميل مع الهوى؟

إن الرؤية الإسلامية تقول إن العقل من أجلّ ما أنعم الله به على الإنسان، ولكنه يجب – لكى يكون منضبطا فى رؤيته – أن يعمل فى ظل الوحى. والفقه الإسلامى كله هو ثمرة إعمال العقل فى إطار الضوابط الواردة فى الوحى، وهذا هو الذى لا يعجب الشيخ ولفرد كانتول سميث!

* * *

فى صفحة (١٨٨) يعود فيجاهد جهاد المستميت ليقول إن الذين حاربوا الدين بكل قوتهم ومنعوا كل مظاهره كانوا مسلمين، وكانوا يعملون بروح إسلامية لإحياء الإسلام، ولكن فى صورة جديدة تغير الظاهر والباطن معا!!

أى إسلام هذا يا ترى؟! إنه الإسلام الذى يرضى عنه الغرب، الذى يحمل اسم الإسلام، ولا يحمل شيئا من حقيقة الإسلام!

وفى ص (١٩٠) يتوجس من عودة التيار الدينى فى تركيا، بما يعنى فشل الاتجاه العلمانى اللادينى الذى رحبت به أوربا يوم قام، ولكنه يحاول أن يعزى نفسه بأن ذلك مستبعد! ويستشهد – فى إعجاب ظاهر – فى صفحة (٢٠١) –

يقول أحد الأتراك العصريين عن الحجاب إنه لا يمكن أن يعود أبدًا، فالمرأة التركية الآن تعمل فى البنوك وتعمل مدرسة وأستاذه فى الجامعة، وقاضية وكيماوية ومحامية، ويستحيل أن يتوافق هذا مع الحجاب! وإن عملية السفور قد قطعت شوطا يستحيل معه أن يعود الحجاب! ويبدو فى استشهاده بهذا القول مدى فرحته به، ويكشف فى الوقت ذاته عن مدى الغل الذى يحمله الغرب الصليبى للحجاب الإسلامى! ولعل المؤلف قد عاش حتى رأى بعينه ما ظن أنه من المستحيل أن يقع! فقد امتلأت شوارع المدن التركية بالنساء العاملات المحجبات، منهن الطبيبة والمهندسة والمعلمة وأستاذة الجامعة، لا العمل يمنعهن من الحجاب، ولا الحجاب يمنعهن من العمل. وقد كان ينظر فى وقت من الأوقات إلى الحجاب على أنه من أشد العوامل التى تجعل الإسلام غير صالح لعصر «التطور» الذى يعيش فيه العالم اليوم!

وفى نهاية الفصل (ص ٢٠٤ - ٢٠٥) يحلم ولفرد كانتول سميث مع بعض الأتراك الذين يستشهد بهم أن يظهر «لوثر» إسلامى، يحدث تغييرات جذرية فى الإسلام كالتى أحدثها لوثر فى النصرانية! وينسى - أويتناسى - أن هذا الدين محفوظ بحفظ الله : ﴿ **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ** ﴾ [الحجر: ٩] وأن المجددين فيه يقومون بتجديد صلة الناس بدينهم، لا بإبعادهم عنه!

* * *

فى الفصل الذى يليه عن باكستان والدولة الإسلامية يخطو خطوة أخرى نحو الهدف الذى من أجله ألف الكتاب. وبقدر ما هلل للنظام التركى - العلمانى - وتحدث عن «النجاح!» الذى حققه فى جميع المجالات، يتحدث هنا عن «الفشل» فى جميع المجالات! وقد أحصيت كم مرة وردت كلمة الفشل بنصها فوجدتها تسعا وثلاثين مرة فى فصل واحد كل صفحاته خمسون صفحة! أما إذا أضفنا إليها مرادفاتها وما يدل عليها فقد يزيد العدد على الخمسين!

ومع اعترافه بأن جزءا من الفشل راجع إلى أن الذين تولوا السلطة فى

باكستان عند نشأتها لم يكونوا من «الإسلاميين» إنما كانوا من «المستغربين» الذين تربوا على يد الاستعمار الإنجليزى وتشبعوا بأفكاره، فإنه يعود فيقرر أن السبب الرئيسى للفشل كان هو التوجه الباكستانى ذاته ... التوجه إلى إنشاء دولة إسلامية فى القرن العشرين! وأن هذا المشروع مكتوب له الفشل منذ البدء بسبب التوجه ذاته، لا لأية أسباب خارجة عنه!!

ثم يقوم بمحاولة لإغواء الباكستانيين أن يجربوا العلمانية كما جربتها تركيا (ويظلوا رغم ذلك مسلمين مثل أتاتورك وحزبه!) لأن هذا - فيما يزعم - هو الحل الوحيد للمشكلة التى لن تحل إذا أصر المسلمون على إقامة دولة إسلامية فى القرن العشرين! ويشير فى محاولته هذه إلى نقطتين تستحقان الوقوف عندهما لما فيهما من محاولة خبيثة لصرف المسلمين عن التمسك بالإسلام. الأولى أن الحديث عن «النظام الإسلامى» والدعوة له هو انحراف عقدى (أشار إليه من قبل) لأن الإسلام «دين» ومهمة الدين هى دعوة الناس إلى عبادة الله لا إلى تطبيق «النظام» الإسلامى. والثانية أن تطبيق النظام الإسلامى لم يحدث كاملا أبدا فى أى مرحلة من مراحل التاريخ الإسلامى، ولا حتى فى فترة الخلافة الراشدة، لأن النظام الإسلامى شئ سماوى، أما التطبيق فأمر بشرى، ولا يمكن للبشر أن يحققوا ما تريده السماء إلا ناقصا معوجا محرفا، لأن التطبيق يتأثر «بالواقع» بينما ما يأتى من السماء هو «المثال» غير القابل للتطبيق فى عالم الواقع! ومن ثم يحسن صرف النظر نهائيا عن محاولة تحقيق النظام فى الدنيا، وترك ذلك للآخرة!!

أرأيت إلى التحايل الخبيث لصرف المسلمين - بكل الوسائل - عن السعى لإقامة حكم إسلامى؟!

فأما الشبهة الأولى - وهى أن السعى إلى تطبيق النظام انحراف عقدى، وأن مهمة الدين هى دعوة الناس إلى عبادة الله لا إلى تطبيق النظام، فلا أظن أن رجلا فى مثل ذكاء ولفرد كانتول سمث يمكن أن يصدق بينه وبين نفسه ما يريدنا نحن أن نصدقه! ثم ... هل نسى ما قاله هو نفسه فى الفصل الأول من أن

مزية الإسلام على المسيحية أنه يسعى إلى تحقيق « ملكوت الرب » فى الحياة الدنيا ولا يرجئه إلى اليوم الآخر كالمسيحية؟!

إن كل دين جاء من عند الله قد جاء ليطبق فى واقع الأرض. يقول سبحانه وتعالى : ﴿ **لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط** ﴾ [الحديد: ٢٥] ويقول: ﴿ **وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله** ﴾ [النساء: ٦٤] فليس السعى إلى تطبيق النظام شركا ولا انحرافا عقديا، إنما هو لب الدين وغايته العظمى، وهو الوسيلة الحقيقية الواقعية لعبادة الله، فإنما يعبد الله بطاعته فيما أمر، والانتهاء عما نهى عنه. وما تطبيق النظام إلا التجسيد الفعلى لما أمر الله به. ولا تعارض قط فى حس المسلم الحق بين الجانب الروحى من الدين، وهو محبة الله وخشيته، والإخبات له، وتعظيمه وتمجيده وتسبيحه وتقديسه، وبين إطاعة أوامره فيما يتعلق بالحياة الدنيا (أى تطبيق النظام). بل إن تطبيق النظام هو إحدى الوسائل التى يحقق بها العبد عبوديته لله، وبغيرها لا تتحقق هذه العبودية لقوله تعالى : ﴿ **ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون** ﴾ [المائدة: ٤٤] وقوله تعالى مخاطبا رسوله ﷺ : ﴿ **قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم * قل أطيعوا الله والرسول فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين** ﴾ [آل عمران: ٣١ - ٣٢]

والله هو خالق الإنسان والعليم بحدود قدراته: ﴿ **ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير** ﴾ [الملك: ١٤] ويعلم سبحانه ما فيهم من ضعف وقصور، وما يتعرضون له فى واقع حياتهم من ضغوط داخلية من داخل نفوسهم متمثلة فى الرغبات والشهوات، أو خارجية متمثلة في أوضاع مادية واقتصادية واجتماعية، وهو لذلك لا يكلفهم إلا ما يعلم سبحانه أنهم قادرون على تحقيقه: ﴿ **لا يكلف الله نفسا إلا وسعها** ﴾ [البقرة: ٢٨٦] ﴿ **هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج** ﴾ [الحج: ٧٨]

وفى الإسلام بالذات قد فرض الله الحد الأدنى، الذى لا تستقيم الحياة بدونه، والذى يعلم سبحانه أن البشر قادرون عليه، ثم ترك مجالا واسعا للتطوع النبيل الذى ترتفع به الحياة إلى الآفاق العليا، وحبب فيه ورغب إليه بكل الوسائل، وإن لم يفرضه سبحانه وتعالى لعلمه أنه ليس كل البشر يقدرون عليه. وفى الوقت ذاته يغفر الله التقصير حين يقع من الناس ما داموا لا يصرون عليه:

﴿ **وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ** ﴾ [آل عمران: ١٣٥]

وبذلك يكون الإسلام نظاما واقعيا تماما، وفى الوقت ذاته يحبب الناس فى بلوغ المثال، فيبلغه منهم من يوفقه الله إليه، فيجتمع فيه بذلك خير ما فى الإنسان.

أما قوله – من باب التيئيس – إن النظام الربانى لم يطبق قط تطبيقا كاملا (لاستحالة ذلك) فقول يرد عليه الواقع التاريخى، وهو أطول واقع فى تاريخ أية أمة التزمت بالمنهج الصحيح، رغم كل ما وقع من التقصير والانحراف فى بعض الجوانب.

واعجب ما شاء لك العجب من استدلاله بمقتل الخلفاء الراشدين الثلاثة عمر وعثمان وعلى رضى الله عنهم، على أن الإسلام لم يطبق تطبيقا صحيحا حتى فى فترة الخلافة الراشدة! فهل كان تطبيق عمر للنظام الربانى ناقصا أو معيبا؟ فإذا جاء رجل حاقد فقتل عمر، أفيقال حينئذ إن تطبيق عمر للإسلام كان ناقصا؟ وماذا لو قلنا بنفس المنطق إن مقتل كنيدى عام ١٩٦٣ معناه أن النظام الديمقراطى غير قابل للتطبيق على الوجه الأكمل [١]؟ وإذا كان عبد الله بن سبأ اليهودى قام بفتنة أدت إلي مقتل عثمان رضى الله عنه أيقال إن النظام الإسلامى غير قابل للتطبيق؟ فما القول فى اليهودى الذي قتل كنيدى؟! وإذا كان

---

(١) بصرف النظر عن رأينا الخاص فى الديمقراطية، ومدى صلاحيتها لأن تكون بديلا من المنهج الربانى!

الخوارج قد قتلوا عليا رضى الله عنه أيقال إن النظام الإسلامى غير قابل للتطبيق ؟ فما القول فى « الخوارج » الإيرلنديين الذين لا يفتأون يثيرون القلاقل ويقتلون أعداءهم ؟ أيقال إن الديمقراطية البريطانية غير قابلة للتطبيق ؟!

إنها سخافات لا يقدر عليها إلا المستشرقون !

ثم يلتوى مرة أخرى وهو يحاول إغواء الباكستانيين إلى العلمانية فيقول بالتلميح والتصريح إن الإسلام جامد لأنه لا يستطيع أن يتلاءم مع العلمانية بينما المسيحية قد استطاعت أن توائم نفسها مع العلمانية ، بحيث يتعايشان بلا تعارض من هنا ولا من هناك !

نعم ! لقد حدث التعايش بين الكنيسة الأوربية والعلمانية بعد عراك طويل بينهما ، ولكن لا يحدث مثله فى الإسلام مهما عارك العلمانيون وحاولوا ، لا لجمودٍ فى دين الله المنزل (حاشا لله) ، لكن لأنه منذ نزوله لا تنفصل فيه الشريعة عن العقيدة ، وينص فيه على أن تطبيق الشريعة هو من مقتضيات لا إله إلا الله ، وأن من لم يحكم بما أنزل الله راضيا مريدا فقد خرج من دين الله ، بينما رضيت الكنيسة الغربية منذ اللحظة الأولى بفصل العقيدة عن الشريعة وقالت : « أدّ ما لقيصر لقيصر وما لله لله » . ولم يكن عراكها مع العلمانية من أجل تطبيق شريعة الله ، إنما كان عراكا من أجل نفوذها الشخصى ، نفوذ رجال الدين ، الذين لا يطبقون هم أنفسهم شريعة الله المنزلة عليهم ، ويتركون القانون الرومانى – الجاهلى – يحكم الأرض ، مكتفين بجاههم ونفوذهم وأموالهم الحرام التى يجبونها من الناس . فلما تمرد الناس ، سواء الملوك والأباطرة أولا ثم الشعوب بعد ذلك بسبب مظالم الكنيسة وطغيان رجال الدين ، فقدت الكنيسة سيطرتها ، فاكتفت – مكرهة – بالنفوذ الروحى ، المتعلق بعالم الآخرة ، وتركت أمور الحياة الدنيا يتخاصم فيها الناس ، فأين يكون هذا الوضع المنحرف في كلتا حالتيه من دين الله الكامل الذى رضيه الله للناس وقال فيه : ﴿ **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا** ﴾ [المائدة : ٣] . والذى يكون فيه « قيصر » بكل سلطانه عبداً لله ، ملتزما بما أنزل الله [١] ؟!

---

(١) اقرأ إن شئت فصل « العلمانية » من كتاب « مذاهب فكرية معاصرة » .

وثمت نقطة أخرى يضع فيها ولفرد كانتول سميث سمومه ، هي تمييع صورة الإسلام بحيث يصبح فى النهاية شيئًا هلاميا يتشكل فى كل مرة - ويمكن تشكيله فى كل مرة - على صورة من الصور . . . وجميعها تحمل اسم الإسلام : فهناك الإسلام التقليدى Classical Islam ، وهناك إسلام القرون الوسطى Mediveal Islam ، وهناك الإسلام الحديث Modern Islam ، وهذا الأخير ليس شيئا واحدا يمكن تعريفه أو التعرف عليه ، فهناك الإسلام العربى والإسلام التركى والإسلام الباكستانى والإسلام الهندى ، وكل منها شئ قائم بذاته مختلف عن غيره ، وكلها فى الوقت ذاته إسلام ! فما المقصود بهذا الخلط المقصود ؟!

المقصود من ناحية خلع المسلمين عن تصور محدد يتصورونه عن الإسلام ويطالبون بتحقيقه . فإذا كان الإسلام - كما يصوره هو وغيره من المستشرقين ، ويريدون أن يبثوه فى نفوس المسلمين - ليس له كيان ثابت ، إنما هو أشكال عدة، وكيانات مختلفة، فلا معنى للمطالبة بشئ معين اسمه «الإسلام» !

والمقصود من ناحية أخرى الإيهام بأن كل شكل من أشكال الحياة - بما فى ذلك الشكل العلمانى الأتاتوركى - يمكن أن يكون إسلاما ، لأن الإسلام ليست له مواصفات محددة يعرف بها ! فإذا جاء الإسلام الأمريكانى الذى يراد بثه في العالم الإسلامى تقبله الناس بالرضا ، لأن الإسلام ليست له حدود معينة ولا مواصفات خاصة ، إنما هو ما يشكله الناس من أشكال ويضعون عليه اسم الإسلام!

ولا شك أن هناك اختلافات جزئية بين ما يطلقون عليه اسم «الإسلام التقليدى» وما يطلقون عليه أسماء أخرى كإسلام القرون الوسطى أو الإسلام الحديث ، ولكن هذا لا يبرر - ولا يغطى - ما يريدونه من تمييع صورة الإسلام حتى يكف المطالبون بتحقيق صورة محددة له عن المطالبة ، وحتى يتقبل الانحراف من يراد لهم أن يتقبلوه باسم الإسلام !

إن فى الحياة البشرية ثوابت يجب أن تظل ثابتة ، وحين تتغير تفسد الحياة،

ومتغيرات تتغير على الدوام ، ولو ثبتت علي صورة معينة تفسد الحياة .
والإسلام - دين الفطرة - يتجاوب مع الفطرة البشرية فى هذا الشأن ، كما يتجاوب معها فى كل شأن ، لأنه تنزيل العليم الحكيم الذى خلق الإنسان ويعلم ما يصلحه وما يصلح له . ولذلك تحمل الشريعة الإسلامية ثوابت لا يجوز أن تغيرّ أو تبدل ، ومتغيرات تتسع لما يجدّ فى حياة البشرية من صور الحياة ، محكومة في تغيرها بالأصول الثابتة فى الشريعة . ومن ثم تظل القيم والمبادئ ثابتة وإن تغيرت بعض الأشكال ، ويظل المعوّل عليه هو الأركان الثابتة مع وجود المتغيرات ، ولا يقال - بسبب وجود المتغيرات - إنه لا توجد صورة محددة للإسلام يعرف بها ، ويُطَالَب الناس بتحقيقها .

ونضرب مثلا من خارج الإسلام للتقريب ، ثم نعود إلي التواءات المستشرقين .

لو أن إنسانا شرقيا نظر إلى الاختلافات القائمة فى الأنظمة الديمقراطية الموجودة فى عالم اليوم ، بين الديمقراطية الفرنسية والديمقراطية البريطانية والديمقراطية الأمريكية ، وديمقراطيات دول الشمال الأوربى (فضلا عن الديمقراطيات الزائفة التى يحصل فيها الزعيم الأوحد على نسبة ٩٩,٩٪ من أصوات الناخبين وتسمى نفسها مع ذلك ديمقراطية !) فقال إنه لا يوجد شئ حقيقى اسمه « الديمقراطية » وإنها شئ هلامى يمكن أن يأخذ أشكالا شتى حسب رغائب الناس ، فماذا يقول عنه الرجل الغربى حينئذ ؟!

جاهل أو مغالط !

وسيقول الرجل الغربى : نعم ، هناك فوارق جزئية بين الديمقراطيات القائمة الآن فى الغرب ، لكن فيها قيما أساسية مشتركة ، تجعل منها جميعا « ديمقراطيات » ، هى الحقوق والضمانات التى تشتمل عليها ، كضمانة الاتهام ، وضمانة التحقيق وضمانات المحاكمة ، وضمانات التنفيذ بما لا يخالف القانون ، وحق التعليم ، وحق العمل ، وحق إبداء الرأى ، وحق الاحتجاج ، وحق التمثيل السياسى . أما الديمقراطيات الزائفة فليست حجة على الديمقراطية وإن ألبست ثوبها .

كـذلك نقـول نحن عن الإسـلام . نعم ، هناك فـوارق جـزئيـة بين ممارسـة المسلمين للإسـلام مـا بين الفـتـرة الأولى ، ومـا يسـمـونه العـصـور الوسطى [1] ، والعصور التالية . ولكن هناك قيما أساسية مشتركة ، تجعل منها جميعا صورة إسـلامـيـة وإن اخـتـلفت الأشكال ، تلك هي الثـوابت الكثـيـرة في هذا الدين . فالتوحيد من الأسس الثابتة . والعبادات من الأسس الثابتة . والحدود من الأسس الثابتة . وعلاقات الجنسين من الأسس الثابتة . وتحريم الربا وتحريم الخمر وتحريم الزنا وتحريم السفور للمرأة ، وتحريم الخلوة بالأجنبية ، وتحريم الاختلاط بغير ضرورة من الأسس الثابتة .. أما المتغير في المعاملات - بحكم تغير الظروف والملابسات - فهو - مع تغيره - محكوم بالأسس الثابتة ، بحيث لا يحل حراما ، ولا يحرم حلالا ، ولا يصادم مقاصد الشريعة . وبذلك تتحدد صورة واضحة حاسمة للإسلام ، وللمجتمع الإسلامي ، لا تختلط بغيرها من الصور . فالمجتمعات التي تؤمن بالتوحيد ، والتي تؤدي العبادات المفروضة من صلاة وصيام وزكاة وحج ، والتي تطبق فيها الحدود الربانية ، وتحكم محاكمها بشريعة الله ، والتي يحرّم فيها الربا والزنا والخمر والسفور والتبذل الخلقي تختلف ولا شك اختلافا جذريا عن المجتمعات التي لا تمارس هذه العقائد ولا هذه الشعائر ولا هذه الشرائع ، حتى وإن زعم بعضها الإسلام ، كما تزعم الديمقراطيات الزائفة التي يحصل فيها الزعيم الأوحد على نسبة ٩٩,٩٪ من الأصوات ، أنها ديمقراطية !

ولكن القضية على وضوحها محل تمييع مقصود من المستشرقين لأكثر من أمرٍ يراد !

* * *

في الفصل التالي : « الهند : مشاركة إسلامية » يقترب خطوة أكثر من الهدف الذي يسعى إليه من أول الكتاب ، فيقول عن مسلمي الهند الذين لا

---

(١) يجب أن نتذكر دائما أن أوربا تسمى تلك الفترة من تاريخها « العصور الوسطى المظلمة » بينما كانت تلك الفترة ذاتها من أزهى عصور التاريخ الإسلامي .

مجال أمامهم لتكوين دولة إسلامية ، ولا مجتمع إسلامي ، والمحكوم عليهم أن يعيشوا إسلامهم عقيدة وشعيرة فحسب ، دون أن يفكروا في أن يَحكموا أو يُحكموا بالإسلام .. يقول عنهم إنهم ينشئون إسلاما جديداً (!) وإنهم قد يصبحون أكثر حيوية ، وأكثر إبداعا ، وأكثر إنسانية ، وأكثر تقدما من كل المسلمين الآخرين !

ونمر سريعا على الدعوى المكشوفة – التي تفرزها روح الحقد الصليبي عند المؤلف – التي يحمّل فيها باكستان ومسلميها كل الآثام وكل النتائج المرة التى حدثت وقت انفصال الباكستان عن الهند ، والتى ذهب ضحيتها عدة ملايين من المسلمين قتلاً وحرقًا وتعذيبًا على يد الهندوس والسيخ ، فيزعم أن باكستان هى البادئة ، وأن الهند ، إنما كانت ترد على العدوان الباكستانى ، متجاهلا كل وقائع التاريخ ، ومتجاهلا أن التعصب ليس خلقا للمسلمين ، فقد حكموا الهند ثمانية قرون دون أن يوقعوا اضطهادا دينيا على عباد البقر وعباد الأوثان ، أو يتعرضوا لمعابدهم وعباداتهم المجافية لكل دين سماوى . إنما الذى دفعهم إلي الثأر من الهنود هو المذابح البشعة التى أوقعها الهنود بهم عند الانفصال .

نمر سريعا على هذه المزاعم الواضحة التحيز ، لنصل إلي نهاية الفصل ... النهاية التي يبشر بها ، والتى يدفع الكلام دفعا فى فصل من الكتاب وراء فصل ليصل إليها ، وهى أن وضع الأقلية المسلمة فى الهند هو وضع المسلمين كلهم فى العالم الحديث : أقلية لا تملك أن تعيش إسلامها كما عاشته من قبل خلال ثلاثة عشر قرنا ، وإنما عليها أن تبتدع إسلاما جديدا « يتمشي مع الظروف الحاضرة » .. إسلاما لا يحكم واقع الحياة ، ولا يقيم « دولة إسلامية » ، ولا يطبق شريعة الإسلام ، وإنما يتعايش تعايشا « أخويا ! » مع الأكثرية البشرية التى تسكن الأرض، والتى لا تؤمن بالإسلام ، فتتنازل عن فكرتها الموروثة ، وتعيش الإسلام وجدانا مستسرًّا فى الضمير : « علاقة بين العبد والرب ، محلها القلب ، ولا صلة لها بواقع الحياة » ! وإن لم تفعل ذلك فليس أمامها إلا الفناء !!

ذلك هو الهدف الأول والأخير من تأليف الكتاب !

أيها المسلمون لا تفكروا فى إقامة حكم إسلامى فى القرن العشرين ، وخذوا العلمانية الغربية بديلا من الإسلام ! واحتفظوا بالاسم : اسم « الإسلام » . . . فالاسم – بهذه الصورة – لا مانع منه عند الغرب ، ولا ضرر فيه !!

* * *

ونقول نحن لولفرد كانتول سميث : أما أن المسلمين اليوم فى أزمة ، وأما أن أزمتهم الكبرى اليوم هى البحث عن هويتهم الضائعة ، ومحاولة تحقيقها في عالم معادٍ للإسلام ، يحاول بكل جهده منع المسلمين من تحقيق وجودهم فى عالم الواقع . . . فهذا صحيح . وأما أن الحل الوحيد لهذه الأزمة هو تنازل المسلمين عن حقيقة إسلامهم ، وتحويله وجدانا مستسرا فى الضمير ، وشعائر تؤدّى أو لا تؤدّى ، فهذا هو الحلم الذي يراود الغرب ، سواء منه رجال السياسة أو رجال الحرب أو المستشرقون أو غيرهم من أصحاب الأهواء والأحقاد . . . وهو الحلم الذي لن يتحقق بإذن الله ، لأنه مخالف لوعد الله ، وللسنن الربانية التي تحكم حياة الناس فى الأرض ، ومخالف للواقع المتنامى للحركة الإسلامية فى كل مكان على الرغم من الضغط العالمى ، ومخالف لما تنذر به أحوال الغرب ذاته من قرب انهيار حضارته المادية العلمانية على الرغم من كل ما تملك من وسائل القوة الحربية والسياسية والاقتصادية والعلمية ، بسبب الخواء الروحى والتحلل الخلقى . . بل إن أشد ما يكذب ذلك الحلم هو تكتل العالم كله اليوم لحرب الإسلام تحت عنوان مكافحة الإرهاب ، فإن الغرب يكون في غاية الحماقة إذا تكتل لمحاربة خطر لا وجود له فى عالم الواقع ! إنما يتكتل العالم لمحاربة الإسلام لأنه يراه موجودا فى عالم الواقع ، ويعجز – أولا يريد – أن يتعايش معه على أرض الواقع !

وتلك هى حماقة الغرب الحقيقية . . فلا هو يريد أن يرتفع إلى مستوى الهدى الربانى ، ولا هو يريد أن يكف عن محاربة الهدى الربانى . . . ولا هو يريد أن يقتنع بأن المستقبل للإسلام ، على الرغم من كل الحرب التى ينصبها للإسلام ، أو ربما بسبب تلك الحرب ذاتها ، وردود الفعل المتوقعة منها !

أما واقعهم فيقول الله عنه: ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ * فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأنعام : ٤٤ ، ٤٥] .

وأما واقع المسلمين - العائدين إلى الله - فيقول الله عنه : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ﴾ [النور : ٥٥] .

واشنطن إرفنج

Washington Erving

كتاب « حياة محمد »

واشنطن إرفنج مؤرخ أمريكى عاش فى القرن الماضى . ولد سنة ١٧٨٣ ، وبدأ التأليف والبحث سنة ١٨٠٦ ، ثم أصبح وزيرا مفوضا فى أسبانيا ما بين ١٨٤٢ ، ١٨٤٦ ، وهناك اطلع على تراث الحضارة الإسلامية فمال إليها ، وراح يكتب عن التاريخ الإسلامى ، فكتب ترجمة لحياة الرسول ﷺ كما ترجم للخلفاء الراشدين . وتوفى إرفنج فى أمريكا سنة ١٨٥٩ (١) .

* * *

يقع الكتاب فى ترجمته العربية التى قام بها الدكتور على حسنى الخربوطلى ونشرتها دار المعارف بالقاهرة (الطبعة الثانية ١٩٦٦) فى ٣٢٤ صفحة من القطع الصغير . ويحتوى على تسعة وثلاثين فصلا وخاتمة عدا مقدمة المترجم ومقدمة المؤلف ، بيانها كالتالي :

١- مذكرات تمهيدية عن الجزيرة العربية والعرب
٢- مولد محمد
٣- روايات عن مكة والكعبة
٤- الرحلة الأولى إلي الشام
٥- اشتغال محمد بالتجارة
٦- محمد بعد الزواج
٧- نشر الدعوة
٨- أسس العقيدة الإسلامية
٩- محمد والكفار
١٠- وثيقة المقاطعة
١١- عام الحزن
١٢- الإسراء
١٣- الهجرة
١٤- المهاجرون والأنصار

---

(١) عن مقدمة المترجم بإيجاز .

١٥- زواج محمد من عائشة ١٦- الجهاد
١٧- غزوة بدر ١٨- محاولة لاغتيال الرسول
١٩- محمد واليهود ٢٠- موقعة أحد
٢١- خيانة اليهود ٢٢- حادثة الإفك
٢٣- حرب الخندق ٢٤- خروج الرسول إلي مكة
٢٥- فتح خيبر ٢٦- كتب الرسول إلي الأمراء والملوك
٢٧- محمد يحج إلي مكة ٢٨- معركة مؤتة
٢٩- مكة تنقض معاهدة الحديبية ٣٠- فتح مكة
٣١- معركة حنين ٣٢- فتح الطائف
٣٣- الاستعدادات لحرب فى الشام ٣٤- عودة المنتصرين إلي المدينة
٣٥- سورة براءة ٣٦- حجة الوداع
٣٧- النبيان الكاذبان : الأسود ومسيلمة ٣٨- وفاة الرسول
٣٩- شخصية محمد : الإنسان والرسول.

أما الخاتمة فعنوانها : « دراسة للعقيدة الإسلامية » .

* * *

لا يحتاج هذا الكتاب منا إلي تعليق طويل !

لقد كنت سمعت كثيرا عن هذا الكتاب قبل أن أقرأه .. وكان ما سمعته مديحًا جمًا للكتاب وصاحبه ، على أنه من خير ما كتب عن الرسول ﷺ من كاتب غير مسلم .

وعلي هذا الأساس بدأت أقرأ ..

ووجدت في مقدمة المترجم ما كنت قد بدأت أتعود عليه من عبارات المديح التى رأينا نماذج منها فى ترجمة كتاب « فلهوزن » وكتاب « جرونيباوم » ، ولكنى قلت فى نفسى ربما كان الأمر حقا هذه المرة !

يقول المترجم فى « تقديم الطبعة الثانية » صفحة (١٣) : « ولا يزال كتاب واشنجتون [١] إرفنج عن « حياة محمد » فى مقدمة الكتب التى تتناول دراسة حياة الرسول ﷺ ، في العالم العربى ، وفى القارتين الأوربية والأمريكية ، برغم صدور عدد من المؤلفات التى تدرس السيرة النبوية باللغة العربية واللغات الأخرى ، وقد لمست أهمية هذا الكتاب بوضوح أثناء قيامى بتدريس التاريخ الإسلامى في كل من جامعتى القاهرة وعين شمس ، وفى فرع جامعة القاهرة بالخرطوم ، وخلال زيارتى للجامعات فى القارة الأمريكية فى عامى ١٩٦٣ ، ١٩٦٤ ، وفى أثناء قيامى بتدريس التاريخ الإسلامى فى معهد الدراسات الإسلامية التابع لجامعة ماكجيل بمدينة مونتريال فى كندا ، إذ تعتبر أسرة المعهد هذا الكتاب في مقدمة المصادر التى تعتمد عليها فى دراستها للعقيدة الإسلامية وسيرة الرسول ﷺ .

ويقول فى « مقدمة المترجم » صفحة (١٥ – ١٦) : « يكاد يكون إرفنج أول مؤرخ أمريكى اهتم بالدراسات العربية والإسلامية وترجمة حياة محمد وخلفائه اهتماما كافيا . وتعتبر ترجمته لمحمد من أوفى وأدق وأصدق التراجم التى كتبها مؤرخون مستشرقون ، ليسوا بالعرب أو بالمسلمين . فقد اهتم بجمع الحقائق التاريخية ، وعرضها عرضا شائقا ، فى أسلوب جميل واضح ، وابتعد عن القدح والتعريض والألفاظ النابية والروح الصليبية التى نجدها فى مؤلفات بعض المستشرقين مثل : ميور ، سبرنجر ، درمنجم ، لامنس ، فيل ، وغيرهم . ناقش إرفنج الحقائق التاريخية مناقشة هادئة منطقية بعيدة عن التعصب ، بل هو يسوق المديح للرسول دائما ، ويمجده ويثنى عليه . نجد ذلك واضحا فى الفصل التاسع والثلاثين الذى تناول فيه شخصية محمد : الإنسان والرسول . كما أنه شرح العقيدة الإسلامية شرحا ينم عن روح طيبة معتدلة . ولا آخذ على إرفنج إلا عطفه أحيانا على اليهود ، برغم أنه يعدد مواقف الغدر والخيانة التي وقفوها من الرسول . وقد قمنا بواجبنا نحو الرد على أراء المؤلف التى قد تخالف وجهة النظر الإسلامية والعربية فى حواشى الكتاب ....

* * *

---

(١) اخترنا كتابة الاسم كما يُنطق « واشنطون » لا كما تكتب حروفه « واشنجتون » .

وأما أن المترجم قد رد على بعض آراء المؤلف فهذا صحيح ..

وأما أن الكتاب يصلح أن يكون مرجعا لقارئ مسلم ، فضلا عن أن يكون مرجعا « جامعيا » وفى الجامعات العربية .. وأما أن يكون إرفنج قد ناقش الحقائق التاريخية مناقشة هادئة منطقية بعيدة عن التعصب ، وأنه يسوق المديح للرسول دائما .. أما هذا كله فأمر أقل ما يقال فيه إنه يعوزه الدليل !

قد يصلح الكتاب مرجعا سريعا مبسطا للقارئ الغربى الذى لا تتاح له قراءة المراجع العربية ، والذي لم يطلع على السيرة النبوية فى مدرسته الابتدائية والثانوية، والذي لم يحضر قراءة السيرة ولا سمع شيئا منها يتداول فى المساجد فى مناسبات معينة ، فهو لا يعرف عنها شيئا أصلا ، ومن هنا يكون كل حرف فى الكتاب جديدا عليه ، ومهما عنده ، إذا كان يريد الدراسة والاطلاع الموجز السريع .

أما القارئ المسلم ، والعربى بصفة خاصة ، الذى درس السيرة ولو مختصرة فى المدرسة الابتدائية والثانوية ، وسمع حديثها فى خطب المساجد ، أو الاحتفال بالهجرة أو غيرها من المناسبات ، فما أقل ما يجد فيها مما يعتبر جديدا عليه .. إلا موقف المؤلف من حقائق السيرة وحقائق الإسلام !

على أننا نتجاوز عن هذه فليست هى موضع اهتمامنا فى هذا الكتاب .

إنما الذى ينبغى لنا التعليق عليه هو قول المترجم إن مناقشة إرفنج بعيدة عن التعصب ، وإنه يسوق المديح للرسول دائما .. فهنا يدخل الأمر فى صميم موضوعنا الذى أنشأنا من أجله الكتاب ..

* * *

فى ظاهر الأمر قد يبدو لك أن الكاتب عادل كل العدل ، نزيه كل النزاهة ، ممتدح كل المدح !

ولكن كيف !!

إنه يسجل كل ما يقوله المؤرخون المسلمون وكتّاب السيرة فى أكثر من

مناسبة فى ثنايا الكتاب .. فماذا تريد منه أكثر من ذلك ! أليس يسجل لك وجهة نظرك أنت في الموضوع بوصفك قارئا مسلما متشبعا بحقائق معينة ؟!

ولكن دعنا ننعم النظر قليلا فى هذه الوسيلة الخداعة !

إنه يسرد سرده الخاص للحادثة أو الموقف أو الحقيقة التى هو بصددها . ثم يقول لك : « ويقول الكتّاب العرب . . . »

فماذا بالله تحس وأنت تقرأ الأمر على هذه الصورة ؟!

أهو مجرد المقابلة « العلمية » ، أم هو الإيحاء بأن سرده هو الصحيح .، وأن ما يقوله « الكتاب العرب » هو وجهة نظر غير مستساغة ، تورد - في الحقيقة - لدحضها لا لإثباتها ، ولكن عن طريق الإيحاء لا عن طريق التصريح ؟!

خذ مثلا من صفحة (٤٨) ، بعد أن أورد قصة لقاء الرسول ﷺ فى رحلته إلي الشام بالراهب النسطورى « بحيرى » :

« ينسب الكثيرون معلومات محمد عن الدين المسيحى إلي محادثاته مع ذلك الراهب ، وقد لعبت هذه المعلومات دورا كبيرا فى حياة محمد فيما بعد » .

« ينسب الكتاب المسلمون اهتمام الراهب بهذا الشاب الغريب إلي أنه لاحظ بين كتفيه خاتم النبوة ، ولذا طلب من عمه أبى طالب أن يحافظ على ابن أخيه عند عودته إلي مكة حتى لا يقع فى أيدى اليهود فيروا خاتم النبوة فيوقعون به الأذى » .

« يبدو أن ذلك الراهب الحريص على التبشير بدينه قد توسم الخير فى هذا الشاب الذكى ، ابن أخى سادن الكعبة ، ورأى أنه خير من يحمل بذور المسيحية إلي مكة ، ومن الطبيعى أن يحرص هذا الراهب على أن يمنع ذلك الشاب ، الذى قد ينجح فى تحويله إلي المسيحية ، من اعتناق اليهودية » .

« عاد محمد إلى مكة ، وقد تأثر خياله بالقصص والروايات التى سمعها فى الصحراء ، وبأحاديث ذلك الراهب النسطورى . . . » .

أرأيت ؟!

لقد أورد الكاتب وجهة النظر الإسلامية ولا شك ... ولكن أين هو منها ؟ أفي جانب التصديق والإثبات ، أم في جانب التشكيك ؟!

بل أيهما أكثر تشكيكا ؟! لو أنه لم يورد الرواية الإسلامية أصلا ، أم حين أوردها ثم مال عنها إلى غيرها من الروايات ؟!

* * *

وخذ مثالا آخر أكثر صراحة ووضوحا ، في صفحة (٩٨ - ٩٩) في الحديث عن إخبار القرآن بتغلب الروم بعد انهزامهم ، يقول :

« .. وفرح القرشيون الوثنيون لهزيمة البيزنطيين المسيحيين ، فقد كانت المسيحية تهاجم الوثنية ، وقد عدوا انتصار الفرس فألا حسنا إذ ظنوا أن انتصارهم على محمد سيكون وشيكا . ولكن محمداً رد على مزاعمهم بترتيل آيات من السورة الثلاثين : ﴿ **الٓمٓ * غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ* بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ** ﴾ [الروم : ١ - ٥] . راهن أبو بكر ، صديق الرسول المخلص ، بعشرة من الإبل على أن النبوءة ستتحقق في خلال ثلاث سنوات ، ولكن الرسول طلب منه ان يزيد قيمة الرهان ويطيل المدة التي حددها . فجعل أبو بكر الرهان مائة من الإبل وجعل المدة التي يحددها لتحقيق نبوءة انتصار الروم تسع سنوات ، وتحققت النبوءة فعلا وكسب أبو بكر الرهان . هذه القصة يذكرها العلماء المسلمون لإثبات أن القرآن إنما يوحى به من السماء ، وأن نبوة محمد صادقة . هذه القصة إن كانت قد حدثت فعلا ، إنما هي تنبؤ بأحداث المستقبل بناء على إدراك لمدى قوة القوى المتصارعة » !!

فأما حين يورد روايات أسطورية ، وينسبها إلي الكتاب المسلمين ، كما يصنع كثيرا في القسم الأول من الكتاب بصفة خاصة ، فهو لا يقوم بالتشكيك

فقط ، بل يقوم بما هو أسوأ من ذلك ، وهو إثارة السخرية بالرواية الإسلامية عن سيرة الرسول ﷺ .

خذ مثالا لذلك من صفحة (٣٧)؛ وهو يتحدث عن طفولة الرسول ﷺ .

« يروى المؤرخون العرب الكثير عن قوة هذا الطفل البدنية والروحية ، في هذه السن المبكرة ، فقد استطاع أن يقف على قدميه وعمره ثلاثة أشهر ، واستطاع العدو حينما أتم سبعة أشهر ، حتى إذا أتم عشرة شهور استطاع أن يشارك الأطفال الآخرين في رياضتهم واستخدام القوس والسهم ، واستطاع الكلام والفهم وعمره ثمانية أشهر ، وبعد شهر تكلم بطلاقة وحكمة أدهشت الاخرين » !!

* * *

ونضرب صفحا عن ذلك كله لنقدم الحصيلة النهائية لكتاب إرفنج عن حياة الرسول ﷺ .

لقد امتدح الرسول ﷺ وأثنى على شخصيته وأخلاقه وأفعاله ثناءً غير قليل . . . ولكن مَنْ منهم لم يفعل ذلك ؟! إن شخصية الرسول ﷺ من العظمة بحيث تفرض نفسها حتى على أعدائها وكارهيها . فقد كان مشركو مكة أنفسهم – على كل عداوتهم للرسول ﷺ – لا يجدون مطعنا في خلقه ولا شخصيته ، ويقرون له بالفضل . .

إنما الذى يهم حقيقة هو ما يقوله هذا الكاتب أو غيره من مطاعن ظاهرة أو خفية بعد هذا المديح ! فماذا ذكر إرفنج من هذه المطاعن ، أو قل – على الأصح – ماذا أبقى إرفنج من المطاعن لم يذكره ، في ثنايا هذا المديح الغزير ؟!

لقد ذكر قصة إصابة الرسول ﷺ بالصرع (في صدد تفسير ظاهرة الوحى !) حيث قال في صفحة (٦١ – ٦٢) ، تحت عنوان « حاشية للمؤلف » :

« ناقش الدكتور جوستاف ويل في بحث بعنوان Mohammed der prophet مسألة تعرض محمد لحالات من الصرع ، وهى المسألة التى يثيرها خصومه من الكتاب المسيحيين، ويبدو أن بعض المؤرخين المسلمين القدامى قد أيدوها . . . » !!

وذكر قصة الراهب بحيرى التي أشرنا إليها من قبل في صفحة (٤٨) .

وذكر – تلميحا أو تصريحا – أن القرآن من كلام الرسول ﷺ وأنه نقل عن اليهودية والمسيحية حيث قال في صفحة (٥٦ – ٥٧) :

« .. ذلك هو ورقة ابن عم خديجة ، وكان رجلا ذا أفق واسع وإيمان صادق ، وكان في الأصل يهوديا ثم اعتنق المسيحية ، وكان يجيد أعمال الفلك والتنجيم . ويرجع له الفضل في ترجمة بعض أجزاء الكتب السماوية إلي اللغة العربية ولا شك أن محمدا قد اطلع عليها واستفاد مما جاء فيها .

« رسبت هذه المعلومات في ذاكرة محمد ، وأدت إلى الابتعاد عن الوثنية المنتشرة حينئذ في بلاد العرب ... صار محمد أكثر تفهما واحتقارا للوثنية ، فقد أدرك أن هناك قوى روحية . وفي القرآن كثير من الآيات تبين الأفكار التى دارت في ذهنه ، وكيف نمت وأثرت في تصرفاته ... » !!

وذكر في صفحة (١٧٧ – ١٧٨) القصة المكذوبة عن رغبة الرسول ﷺ في زواج زينب بنت جحش لإعجابه بها حين وقع بصره عليها في غيبة زوجها زيد ، واضطرار زيد أن يتنازل له عنها رغم حبه لها !!

وقال في صفحة (١٩٥) ، وهو يتحدث عن اختيار الرسول ﷺ سعد بن معاذ ليحكم في أمر بني قريظة بعد غدرهم :

« عامل محمد اليهود معاملة تنطوى على القسوة ، فقد جعل مصيرهم في يد رجل قاس ، ولذا نعتبر تلك المذبحة التي شهدتها سوق المدينة نقطة سوداء في تاريخ محمد . وفي الحقيقة يعتبر موقف الرسول من هذا الجنس ، منذ أن أصبحت السلطة والنفوذ في يده ، يخالف ما نعرفه عنه من رحمة وإنسانية . وقد يكون الرسول مدفوعا إلي ذلك بما ظهر من اليهود من غدر وخيانة وحقد ، ولكننا نلاحظ أن محمداً في بعض مراحل حياته كان رسول السيف » ! .

وقال في صفحة (٢٩٦) :

« ... سمح الرسول لنفسه بأن يتزوج عددا أكبر من العدد الذى يسمح به لغيره من المسلمين ، حتي ينجب لقومه جيلا من الأنبياء » !!

وأخيراً يتقدم بهذا السؤال الذى هو عقدة الكتاب كله فى الحقيقة فيقول فى صفحة (٢٩٧) :

« والسؤال الآن : هل كان محمد نبيا صادقا ؟ هل كان الوحى والدين الذى دعا إليه حقيقة واقعة ؟ قبل الإجابة عن هذا السؤال ، نقول إن كثيرا من المسلمين نسبوا إلى الرسول كثيرا من المعجزات والأعمال الخارقة ، فى حين أن الرسول كان ينفى دائما أن له معجزات عدا القرآن الكريم الذي نزل به الوحى من السماء ، فهو يعتبر معجزته الكبرى » .

وإلى هنا يتضح لنا جيدا أنه قدم السؤال ثم لم يجب إجابة مباشرة عليه ، وإنما احال الإجابة على القرآن . . . ويتضح لنا كذلك أن حكمه على القرآن هو فى ذات الوقت حكمه على صدق نبوة محمد ﷺ وصدق رسالته . . فبأى شئ حكم على القرآن ؟!

يقول بعد ذلك مباشرة :

« وهنا علينا أن نذكر بعض الملاحظات على هذا الكتاب الشهير . . . ينتقد البعض سور القرآن بأن ليس لها ترتيب أو منهج ، ويعيبون على القرآن انه ممتلئ بالغموض ، وعدم التناسق ، والتكرار ، ونقل بعض قصص الإنجيل ، والتناقض . ويرى البعض أن القرآن الموجود في الوقت الحاضر ليس هو القرآن نفسه الذى لقنه محمد للمسلمين إذ دخل عليه بعض التحريف . . . »

أرأيت ؟!

ماذا خرجت به إذن من هذا الكتاب ؟ هل هو تصديق نبوة النبى ﷺ ؟

ثم يقول فى صفحة (٣٠٠) :

« دخل علي قصة حياة الرسول كثير من الأساطير ، مما يجعل من الصعب الحكم علي شخصية الرسول واخلاقه . . . » !!

وبهذه وتلك يختم المؤلف كتابه الذى كتبه « يمتدح » به الرسول ﷺ ، أو الذى يبدو – فى عين كثير من المسلمين – انه كتاب مديح !!!

مـرو بـرجـــر

Morroe Berger

مرو برجر عالم اجتماع أمريكي يهودى ، عاش في المنطقة العربية فترة غير قصيرة ، وتعرف على أحوالها من قرب ، ودرس أوضاعها دراسة دقيقة، وقد اخترنا له أشهر كتبه «العالم العربى اليوم» The Arab World Today .

وقد ألف كتابه عام ١٩٦٢ م ، وأعيد طبع الكتاب عدة مرات . والنسخة التى رجعنا إليها فى حديثنا عنه هى طبعة سنة ١٩٦٤ الصادرة عن :

Anchor Books : Doubleday & Company , inc .

Garden City . New York.

وتقع فى (٤٦٣) صفحة من القطع المتوسط عدا المقدمة فى أربع صفحات، وتنتهى بقائمة للمصادر تقع في ١٦ صفحة ، تشتمل علي كتب ومقالات وأبحاث وإحصائيات انجليزية وعربية ، رجع إليها المؤلف لتأليف كتابه ، وفهرس للكلمات ذات الأهمية الخاصة الواردة فى الكتاب ، وأرقام الصفحات التى وردت فيها ، يقع فى ١١ صفحة .

وقد ترجم الكتاب بعد صدوره فى طبعته الأولى فى بيروت ، ولكن النص الذى رجعنا إليه هنا هو النص الانجليزى فى طبعته الصادرة عام ١٩٦٤ .

* * *

هذا كتاب من نوع آخر غير كتب المستشرقين المعهودة ، وإن شاركها في الغمز واللمز والتجريح، الذى لا تكاد تخلو منه دراسة من دراسات المستشرقين، ولكنه يضيف بعداً آخر ، يمثل اتجاها جديدا فى كتابات المستشرقين ، وهو اتجاه جدير بالاهتمام ، وجدير بالتنويه .

الكتاب دراسة دقيقة عميقة لمنطقة معينة من العالم العربي الإسلامى ، هى مصر وسوريا والعراق ولبنان والأردن . ولا أحسبنى مغاليا إذا قلت إنها أدق

دراسة عن هذه المنطقة ظهرت حتى اليوم (فيما قرأت أنا على الأقل ، ولا أزعم أننى قرأت كل ما يكتب!) دراسة اجتماعية تشمل العادات والتقاليد والمعتقدات والتاريخ ، والأوضاع الاقتصادية والأوضاع السياسية والأوضاع الفكرية ، والتيارات التي تتجاذب المنطقة ، وتأثيرها في أحوال ساكنيها ؛ ومدى ما أحدثته من التغيير في الفترة الأخيرة ، وبصفة خاصة في النصف الأول من القرن العشرين .

وقد أخرج المؤلف كتابه فى نهاية عام ١٩٦٢ ميلادية ، ومن ثم فدراسته للأحداث فى المنطقة تقف عند هذا التاريخ ، أو قبله بقليل ، ولكن تصوراته وتوقعاته لا تقف عند تلك الأحداث ، بل تتخطاها إلى المستقبل كما يراه المؤلف، أو قل : كما يتمنى أن يراه !

والمؤلف لا يعتبر نفسه مستشرقا بالمعنى الاصطلاحى المعروف ، إنما يقدم نفسه – وتتحدث عنه الصحافة – على أنه « عالم اجتماعى » . ولكن اهتمامه بمنطقة الشرق العربى الإسلامى لا يقل عن اهتمام المستشرقين ، كما أن تمحور دراسته للمنطقة حول الإسلام ، وتأثيره فى أهل المنطقة ، وما حدث فى المنطقة من التغيرات التى تدور حول هذا المحور ، هو ذاته شأن المستشرقين فيما يكتبون عن الإسلام ، وبصفة خاصة حين يكتبون عن الإسلام فى التاريخ المعاصر [1] ، لذلك نرى وضعه فى عداد المستشرقين أمرا واردا – وإن كان تخصصه علم الاجتماع – خاصة وأنه يقرأ العربية ، ويطلع على كثير مما يكتب بها من كتب وصحف وأبحاث ، فوق أنه عاش في المنطقة التى يكتب عنها زمنا ليس بالقصير .

* * *

تشمل الدراسة كما قلنا هذه الأقطار الخمسة : مصر وسوريا والعراق ولبنان والأردن ، مع تركيز واضح علي مصر بالذات .

---

(١) انظر علي سبيل المثال كتاب « ولفرد كانتول سميث » الذى عرضناه من قبل .

وحجة المؤلف في اختيار هذه المنطقة دون غيرها أنها قلب العالم العربى ، وأنها أكثر الدول تقدما فى المنطقة . فأما أنها قلب العالم العربى فهذا صحيح . وأما أنها - كلها - أكثر الدول تقدما في المنطقة فقولة لا تنطبق على الأردن ، على الأقل فى الفترة التى تشملها الدراسة ، بصرف النظر عن المستقبل . والمؤلف نفسه لا ينكر هذه الحقيقة ، بل يقررها صراحة بقوله إن اقتصاديات الأردن ضعيفة ، وإنها تعتمد على المساعدات الخارجية من بريطانيا وأمريكا ، وإنها لا تملك موارد تساعدها علي رفع دخلها ، أو إنشاء صناعة ثقيلة فيها ، ولكنه يبرر وضعها مع أخواتها من الدول التى اختارها للدراسة بأنها - كما يقول فى ص ٧- « تتحرك فى نفس اتجاه الدول الأخرى ، وربما تُستَوعَب فى واحدة منها أو أكثر فى وقت قريب » !! وهى إشارة ذات مغزى ، ينبغى أن تلفت انتباه القارئ منذ بداية الكتاب !

والواقع أن هذه الدول الخمس المختارة للدراسة لها علاقة بأمر آخر ، مختلف تماما عن المبرر الذى برر به المؤلف اختيارها بذاتها من بين دول العالم العربى ، يتضح لك إذا دققت النظر فى الخريطة . فهذه بالذات هى الدول المحيطة بإسرائيل، وقد اختارها المؤلف - اليهودى - لأمر فى نفسه، سيتضح لنا أثناء الدراسة ، بصرف النظر عن كونها متقدمة فى ذاتها أو غير متقدمة . إنما موقعها الجغرافى - حول إسرائيل - هو الذى حدد - فى ذهن المؤلف - اختيارها للدراسة . ومن هنا كانت الأردن داخلة فيها - بالضرورة - على الرغم من اعترافه بوجود فروق كثيرة وكبيرة بينها وبين الدول الأربع الأخرى فى المجموعة .

سبب الاختيار الأول للدراسة إذن ، وسبب اهتمام المؤلف الخاص بها هو كونها الدول التى تحيط بإسرائيل من كل جانب .

وإخفاء هذا السبب ، والتذرع بغيره ، هو الخبيثة الأولى من خبائث المؤلف فى هذا الكتاب الخطير !

فإذا دققت النظر فى الخريطة أكثر فسيتضح لك أن هذه المنطقة بالذات هى

« إسرائيل الكبرى ، من النيل إلي الفرات » التى يحلم بها اليهود ، ويقولون إن هدفهم هو تحقيقها قبل نهاية هذا القرن العشرين !

وإخفاء السبب – مرة أخرى – فى اختيار هذه المنطقة بالذات ، هو الخبيثة الثانية من خبائث المؤلف في الكتاب ، وإن كانت قد خانته سقطة قلم كاشفة ، تكشف عما استتر في الضمير ، حين حدد المنطقة فى الصفحة الأولى من المقدمة بأنها من « مصر إلي العراق » ، أى من « النيل إلى الفرات » ، وإن كان قد تحاشى أن يذكر العبارة الصريحة – « من النيل إلى الفرات » – لأنها مشهورة معلنة فى الدعاية اليهودية ، بحيث إن مجرد ذكرها على لسان مؤلف يهودى قد ينبه القارئ لحقيقة المراد !

* * *

المنطقة التى تشملها الدراسة الدقيقة العميقة الشاملة إذن هى تلك التى تريد أن تقيم إسرائيل فيها دولتها : من « مصر إلي العراق » ، أو من « النيل إلى الفرات » ! فما محور البحث فى هذه الدراسة ؟

فأما في ظاهر الأمر فهى دراسة « بريئة » غاية البراءة ! دراسة تضع الناس والأشياء والأوضاع تحت المجهر ، وتصف وصفا دقيقا أحوال الناس فى المنطقة ، مع تركيز شديد على عملية « التغير الاجتماعى » الذى يجرى فى المنطقة : كيف يجرى ؟ من خلال ماذا ؟ ما مدى التغير الذى أحدثه بالفعل ؟ ما المدى المتوقع للتغيير على المدى الطويل . .

ولكن دعنا نسأل المؤلف : لماذا تهتم بهذه المنطقة بالذات كل هذا الاهتمام، ولا هى وطنك ، فأنت أمريكى ، ولا المفروض أن يكون لك بها علاقة أكثر من غيرها من بلاد الأرض ؟!

آلبحث العلمى ؟!

فهل اجتذبتك بلادك الأصلية لتدرس التغيرات الاجتماعية الواقعة فيها ، والتي توشك أن تؤدى بحضارتك – الغربية – إلى الانهيار نتيجة التفسخ الخلقى

الذريع ، والحرية الفردية الزائدة عن الحد ، التى تهدد بتفكيك المجتمع ، والمادية المفرطة التى تهدد بإتلاف الفطرة الإنسانية ذاتها ، والهبوط بها إلى درك أسفل من الحيوان ﴿ أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ﴾ [الأعراف : ١٧٩] . على الرغم من كل التقدم العلمي والمادى والتقنى الذى لا مثيل له فى التاريخ ؟

فإذا كان البحث العلمي هو الدافع للدراسة ، فأيهما أولى بالاهتمام : بلد الإنسان ، الذى نشأ فيه ، والذى يرتبط مصيره بمصيره ؟ أم بلاد بعيدة عنه بعد المشرق عن المغرب ؟

وتعال نسأل المؤلف سؤالا آخر ، « بريئا » كبراءته !

أى العناصر تبتهج لها فى حديثك عن التغير الاجتماعى ، ويتهلل لها وجهك ، وينبض لها قلمك بحماسة ظاهرة ، وأيها يتقبض لها وجهك ، ويضيق بها صدرك ، وتبدى التبرم بها ، وتعلن عن رغبتك فى زوالها ؟!

إن المحور الذى يدور عليه البحث كله هو الإسلام ، أين هو قوى ؟ وما سرقوته حيث هو قوى ؟ وأين هو ضعيف ؟ وما التغيرات التى أدت إلي ضعفه حيث ضعف ؟ وما مستقبل هذه التغيرات : أهو مزيد من التمكن والانتشار ، يؤدى بالضرورة – في نظر المؤلف – إلى ضعف الإسلام ؟ أم انكماش يخشى معه من عودة الإسلام إلي القوة !

ذلك هو جوهر الكتاب ، الذي يستره المؤلف بمئات من الصفحات من « البحث العلمى » ، البرئ المظهر ، وتلك هي الخبيثة الكبرى من خبائث المؤلف ، التى ربما تغيب عن فطنة القارئ الذى قد تبهره دقة المعلومات ، وسعة الاطلاع ، وعمق الفكرة ، والجهد المبذول فى البحث ، فلا يلتفت إلى الهدف من وراء الجهد المبذول .

* * *

واضح لمن ينعم النظر أن الكتاب ينطلق من « قلب » إسرائيل ، وتتجاوب صيحاته – أو مباحثه – مع نبضات قلب إسرائيل . فماذا تخشى إسرائيل غير

الإسلام ، والجهاد الإسلامى ، وماذا تتمنى إسرائيل أشد من زوال هذا الدين ، أو فى القليل ضعفه إلي الحد الذى لا يعود يسيطر على القلوب أو يحرك النفوس ، وإن بقى « هناك » فى ركن معزول ، أثرا من آثار الماضى ، ضعيف المفعول ، أو عديم المفعول ؟!

فإذا تبين ذلك فقد تبينت فحوى الكتاب من خلال صفحاته التى تربو على الأربعمائة والثلاثين ، وفصوله التى تبلغ أحد عشر فصلا سوى المقدمة ، وتبلغ عناوينها الفرعية ثمانية وخمسين عنوانا تشمل أكثر مجالات الحياة ، وتفاصيل دقيقة فى كل مجال . .

والخلاصة المستفادة من الكتاب - كما يعرضه المؤلف - أن الإسلام ما زال قويا فى البادية لأنه فى أصله دين بدوى (!) نشأ فى البادية ، وترعرع فيها ، وجسّم عاداتها وتقاليدها ، فهو أشد التصاقا بها ! وما زال قويا فى الريف لأنه يتسع لخرافات الريفيين أو في القليل لا يتعارض معها (!) كما أنه يتمشى مع الأخلاقيات التى تنشئها البيئة الريفية (!) ولكنه ضعيف بين سكان المدينة المصنعة المزدحمة بالسكان ، لأن التصنيع والتحديث والمعاصرة وانتشار التعليم وارتفاع مستوى المعيشة وانتشار وسائل الإعلام ، كل ذلك من شأنه أن يضعف الدين ، وحتى إن لم يقض عليه تماما فإنه يحجمه في ركن منعزل عن دوامة الحياة الموارة .

ثم إن الدراسة تقول إنه حتى الريف والبادية قد بدآ يتأثران « بالحضارة » نتيجة انتشار التصنيع وبتأثير وسائل الإعلام ، فالاتجاه العام فى الريف والبادية والمدينة جميعا أن الإسلام فى طريقه إلي مزيد من الضعف والتحجم والانعزال ، فيا فرحة المؤلف بما يرى حوله من الأحوال !

وإذا كانت هذه هى الخلاصة فلنأخذ فى شئ من التفصيل .

* * *

سبق أن أشرنا إلي وجود عبارة كاشفة فى أول صفحة من التمهيد الوارد فى

أول الكتاب ، هي قول المؤلف «من مصر إلي العراق» أي «من النيل إلى الفرات» . وهي عبارة لا ترد اعتباطا . ولا ينبغي للقارئ أن يهمل دلالتها ، خاصة حين يعلم أن المؤلف يهودى - وإن كان أمريكيا ! - فالوطن الذي يشغل باله ، ويعنى بدراسته ، ويبذل الجهد العظيم فى دراسته هو «إسرائيل الكبرى من النيل إلى الفرات» !

كما أن فى الصفحة الثانية من التمهيد عبارة كاشفة أخرى هى قول المؤلف «إننا» يعنى نفسه ومن على شاكلته «ينبغي أن نزداد معرفة بهؤلاء الناس (أى سكان المنطقة التى اختارها للدراسة) الذين تداخل تاريخهم وثقافتهم بتاريخنا وثقافتنا تداخلا كبيرا ، والذين بدأوا يتحركون مرة أخرى» ! فالذي يدفع المؤلف إلى دراستهم والعناية بمعرفة أحوالهم هو أنهم بدأوا يتحركون مرة أخرى ! وهذا يكشف - من أول الكتاب - عن مدى خوف الصليبية الصهيونية من تحرك العالم الإسلامى ، وتمنيهم أن لو ظل خامدا لا يتحرك ، كما منوا أنفسهم من قبل ، حين رأوا غفوة العالم الإسلامى في القرون الأخيرة ، فظنوا أن فرصتهم قد واتت فى القضاء الأخير على الإسلام ، فإذا به يفاجئهم بالتحرك مرة أخرى ، فأصابهم من القلق بسبب هذا التحرك ما أصابهم ، وتجمعوا - بقضهم وقضيضهم - ليخمدوا أنفاسه إذا استطاعوا !

﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾ [البقرة : ١٢٠]

﴿ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا ﴾

[البقرة: ١٢٧]

* * *

فى صفحة (١١) يقول : إن خواص الإسلام نشأت من خواص المدينة والصحراء العربيتين فى القرن السابع الميلادى . . فيمكر مكرتين «استشراقيتين» فى آن واحد : الأولى أن الإسلام هو دين العرب أساسا (وإن انتشر خارج النطاق العربى) والثانية أنه دين القرن السابع الميلادى ، أى أنه لا يصلح للقرن الحاضر !

وفي صفحة (١٣) مكرة « استشراقية » أخرى : أن كثيرا من مفكرى الإسلام- وإن كتبوا بالعربية - لم يكونوا عربا (وهذا صحيح ، وهو يدحض الفكرة القائلة بأن الإسلام دين العرب خاصة، التى يتشبث بها المؤلف ، ويؤكد أنه دين الإنسانية من عرب وغير عرب) ولكن الجديد فى هذه المكرة الاستشراقية أنه يقول إن بعض مفكرى الإسلام قد يكونون يهودا أو نصارى غير معلنين (أى متسترين بالإسلام!!) وهي مكرة غبية ! فإن وجود يهود ونصارى معلنين غير مستترين فى العالم الإسلامى ، وغير مضطهدين بسبب دينهم (كما يعترف هو وغيره من المستشرقين [1]) ينفى الغمزة التى أراد أن يغمز بها الإسلام ، وهى الإيحاء بأن بعض اليهود والنصارى قد اضطروا أن يخفوا دينهم ويتظاهروا بالإسلام ، بل يؤلفوا كتبا فى الإسلام ، خوفا من الاضطهاد !! إلا أن يكون قد أراد أن بعض اليهود والنصارى قد تظاهروا بالإسلام ليخربوا فيه من الداخل مثل عبد الله بن سبأ ، ولا نظنه يبلغ من الأمانة إلي حد أن يعترف بهذا الأمر ! وتبقى دعواه على أية حال بغير دليل ، فهو لم يذكر دليلا واحدا على ما يقول !

* * *

فى صفحتى (١٥ ، ١٦) يشير إلي حقيقة الشمول فى الإسلام ، التى لا تفصل بين العقيدة والشريعة ، ولا بين العقيدة والسياسة والاقتصاد والاجتماع . ولكنه يعتبر ذلك - بطريقة ملتوية - تخلفا فى جانب الإسلام ، لأن الغرب - الذى هو عنده مقياس التقدم فى كل شئ - قد فك الارتباط بين هذه جميعا .

ونحن من جانبنا نقول إن تفكيك الارتباط بين هذه الأمور فى الغرب هو سبب النكسة الكبرى التى أصابت الغرب ، وأصابت البشرية كلها فى ظل « الحضارة » الغربية .

* * *

---

(١) انظر بصفة خاصة كتاب (ت . و . آرنولد : الدعوة إلي الإسلام) .

في صفحة (٢٠) يردد سخافات المستشرقين من أن الرسول ﷺ قد نقل عن اليهودية والنصرانية ، ولكنه يزيد عليها أن التعديلات التى أحدثها محمد (ﷺ) علي ما أخذه من اليهودية والنصرانية هى التى أعطت الإسلام طابعه العربى !

وهى سخافات لا تستحق الوقوف عندها ولا التصدى للرد عليها ، فلو فرضنا جدلا أن محمدا ﷺ هو الذى أنزل القرآن وصنع الإسلام (ونستغفر الله من الكفر) فكيف يكون الذى يقول ﴿ ... **اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ** ﴾ ناقلا عمن يقول إن عزيرا ابن الله أو إن عيسى ابن الله ؟ أفلا يستحى أولئك المستشرقون من سخافاتهم ؟!

وإذا كان هذا هو « التعديل » الذي أدخله محمد ﷺ على اليهودية والنصرانية ، فهل كانت هذه عقيدة العرب أخذها الرسول ﷺ من قومه العرب وأدخلها فى الإسلام ؟ وهل كان العرب موحدين قبل أن يتنزل عليهم الإسلام من عند رب العالمين أم كانوا يقولون إن الملائكة بنات الله ؟ تعالي الله عما يقولون علوا كبيرا ... إن عقيدة التوحيد الخالص قد نزلت من عند رب العالمين فى وقت لم يكن فى الأرض كلها من ينادى بها ، لا اليهود ولا النصارى ولا العرب المشركون . أما الشريعة ودعاواه بشأنها فستأتى الإشارة إليها بعد قليل .

* * *

في صفحتى (٢٤ - ٢٥) محاولات لئيمة للقول بأن بساطة العقيدة الإسلامية ووضوحها تجعل الوثنيين يستريحون إليها فيعتنقون الإسلام !

وهى مقالة سخيفة من جانبين . الجانب الأول أو المغالطة الأولى أن العرب الوثنيين كانوا أشد الناس إباء لهذه العقيدة البسيطة الواضحة ، وقالوا : ﴿ **أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ** ﴾ [ص : ٥]. وقالوا : ﴿ **هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ * أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِ جِنَّةٌ** ﴾ [سبأ : ٧ ، ٨] .

والمغالطة الثانية أن ملايين من النصارى قد دخلوا الإسلام فى مصر والشام وشرق أوربا وغربها فى قرون الإسلام الأولى بغير إكراه كما يشهد ولفرد كانتول سميث في كتابه «الإسلام فى التاريخ المعاصر» وكما يشهد أرنولد في كتاب «الدعوة إلي الإسلام» وكثير غيرهما من المؤرخين الأوربيين والمستشرقين ، بل نرى اليوم – في واقعنا المعاصر – ألوفا من النصارى في غرب أوربا وأمريكا يدخلون الإسلام في كل عام ، من أصحاب «العلم» و «الفكر» و «الحضارة» و «التقدم» ، فهل الذي يدعو أولئك إلى الدخول فى الإسلام هو ما فيه من الحق ؟ أم بساطته التى توافق السذج البدائيين ؟!

ألا يستحون ؟!

* * *

فى صفحة (٢٥) يدعى أن الشريعة في الإسلام توجيهات خلقية أكثر منها تشريعات ! وأن العقوبة على مخالفتها تأتى ثانوية فى اعتبار الإسلام ! وتقوم بها «الدولة» التى لم تنشأ إلا فى وقت متأخر !

ثلاث مكرات استشراقية فى عبارة واحدة !

الأولى قلب المزية إلي عيب ! فإن من المزايا العظمى لهذا الدين أنه دين أخلاقى ، وأن الأخلاق عنصر أصيل فيه ، عميق فى كيانه . فمنذ اللحظة الأولى فى مكة كان القرآن يتنزل على الرسول ﷺ ليبين العقيدة الصحيحة – عقيدة التوحيد ممثلة فى «لا إله إلا الله» – وليؤكد فى الوقت ذاته الأخلاق التى يجب أن تصاحب هذه العقيدة وتلازمها . وكل السور المكية ، وهى تركز تركيزا واضحا على «لا إله إلا الله» ، تشتمل إما على بيان لأخلاقيات لا إله إلا الله ، متفرقة أحيانا ومجتمعة أحيانا [١] ، وإما على تنديد بأخلاقيات الجاهلية المصاحبة للشرك بالله، وعدم الإيمان باليوم الآخر .

---

(١) انظر بشأن التوجيهات الأخلاقية المجتمعة أواخر سورة الفرقان ، وأوائل سورة الإسراء علي سبيل المثال .

في أول سورة أنزلت على الرسول ﷺ جاء قوله تعالى: ﴿كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ * أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ * إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ﴾ فيندد بخلق جاهلي هو الطغيان، ويبين سببه ودافعه، وهو الظن بأن الإنسان - بجهده أو بماله - قد استغنى عن الله جل جلاله، ناسيا أن ما في يده من نعمة هي من عند الله أصلا، ثم يذكّر هذا الطاغية الذي أطغاه ما في يده من مال أو سلطان بأن الناس سيرجعون إلى ربهم فيحاسبهم على طغيانهم. ثم تمضي السورة فتبين بعض أخلاقيات لا إله إلا الله: ﴿أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ * أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ ...﴾

واستعراض السور المكية يوضح هذه الحقيقة لكل من يتدبرها، وهي التركيز على الجانب الأخلاقي مقترنا بالعقيدة في الله الواحد، وفي عقيدة البعث والنشور، وذلك قبل أن تنزل التشريعات التي أنزلت بعد تأسيس المجتمع الإسلامي والدولة الإسلامية في المدينة المنورة، لكي تتأصل تلك الأخلاقيات وتصبح جزءا أساسيا من هذا الدين، فإذا نزلت التشريعات بعد ذلك، نزلت على أساس موجود من قبل، من خشية الله وتقواه، والعمل على رضاه، فكانت أبلغ في التأثير، وأمكن في الأداء، مما لو كانت مجرد قوانين تفرضها الدولة بسلطانها ... أفهذه المزية الكبرى في هذا الدين تنقلب على يد «العالم الكبير» إلى مثلبة يذكرها في قائمة المثالب؟!

وماذا فعلت الأمم «المتقدمة» في الغرب بقوانينها؟ كم حجم الجريمة في بلادها؟ وكم أغنت كل وسائل السلطة -- حين فصلت الدين عن الحياة - في مكافحة الجريمة أو التقليل من أخطارها؟ سلوا إحصائياتهم ففيها الخبر اليقين!

إن الإسلام هو المنهج الرباني المنزل من عند الحكيم الخبير، الذي يعلم أن السلطة وحدها لا تكفي، وأن القانون الذي لا سند له إلا سلطة الدولة عاجز أمام نزعات الشر المستمكنة من بعض النفوس. فيجعل العقيدة - وما يصحبها من مشاعر الخشية من الله، والرغبة في نيل رضاه - هي الأساس المكين للسلوك، ثم

يجعل الشريعة هى السلطة التى تزع من لم يزعه القرآن كما قال عثمان رضى الله عنه : « يزع الله بالسلطان مالا يزع بالقرآن » أى أن القرآن هو الوازع الأول، والسلطان يتولى تأديب من لم يزعه القرآن . وقد كان المجتمع الإسلامى نتيجة ذلك - ولفترة طويله من تاريخه - أقل المجتمعات البشرية وقوعا فى الفاحشة، وأقلها فى شرب الخمر، وأقلها فى فشوّ الجرائم ... حتى جاءت العدوى من البلاد « المتقدمة » التى فصلت الدين عن الحياة، فأصبحت الجريمة أصلا من أصول المجتمعات!

هذه واحدة ...

والثانية زعمه أن المخالفة عن أمر الشريعة جاءت أمرا ثانويا فى اعتبار الإسلام!! فعلى أى أساس يستند « العالم الكبير » فى هذه الدعوى العجيبة؟ هل تساهل الرسول ﷺ فى حدٍ من الحدود؟ ومعلومة قصة المخزومية التى سرقت فأراد قومها أن يشفّعوا فيها زيداً - حِبّ رسولِ الله ﷺ - فغضب يومها الرسول ﷺ وقال: أتشفع فى حدٍّ من حدود الله؟ إنما هلك من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد . والذى نفس محمد بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها! » .

أرأيت كم يتجنى السادة المستشرقون على وقائع التاريخ؟!

والثالثة أن تطبيق الشريعة جاء متأخرا حين قامت الدولة!!

وهل يمكن أن تطبق الشريعة بغير سلطة تقوم على تطبيقها؟

إنما يكون السؤال : هل توانت الدولة عن تطبيق الشريعة منذ أول لحظة قامت فيها ونزل من عند الله تشريع؟! أهناك أى دليل يستند إليه العالم الكبير؟!

* * *

ثم يزعم أن الاهتمام بالتشريع (يقصد الفقه) جاء فى نهاية القرن الأول حين احتك المسلمون بحضارات راقية فأخذ منها!

ماذا يقول الإنسان حين تبلغ المغالطة إلى هذا الحد؟!

أو لم يجتهد أبو بكر رضى الله عنه في حرب المرتدين، وهو الحدث الضخم الذى وقع فى عهده؟ هل كان أبو بكر رضى الله عنه قد احتك بالروم أو الفرس لينقل عنهما اجتهاده؟

أو لم يجتهد عمر رضى الله عنه فى قضية الأرض المفتوحة وملكيتها وفى غيرها من القضايا؟ هل كان قد احتك بالروم والفرس لينقل عنهم؟

إنما كان الاجتهاد ينمو بنمو الوقائع التى تجدّ فى حياة المسلمين، ولم تمر قضية واحدة من القضايا - قبل الاحتكاك بالحضارات «الراقية» - فبقيت معلقة بغير اجتهاد انتظاراً للاطلاع على ما عند الأمم الأخرى للاقتباس منه! إنما هى دعوى شاخت وجولدتسيهر وغيرهما يرددها «العالم الكبير» بأمانة، دون مراجعة ولا دليل، مدفوعا بذات الدوافع التى دفعت شاخت وجولدتسيهر وغيرهما من قبل للنيل من الإسلام والطعن فيه ...

* * *

ثم ينفى مزية أخرى فى المنهج الربانى هى المواءمة بين الواقع والمثال، والجمع بينهما فى التشريع والتوجيه لاقامة المجتمع الذى يهدف إليه الإسلام. فهناك حد ادنى مفروض (تحرسه الشريعة) يشتمل على المقومات الأساسية التى لا يقوم المجتمع السليم إلا بها، والهبوط عن هذا الحد الادنى يعرض صاحبه للعقاب فى الدنيا أو فى الآخرة أو فيهما جميعا، ما لم يرتدع عنه. وهناك حد أعلى مرغوب، تتطوع به النفوس التى تتربى على الإسلام، دون أن يفرض على الناس فرضا، لأن الله العليم الخبير يعلم أنه ليس فى وسع كل إنسان أن يقوم به، فيجعله استحبابا تقوم به القلة التى تطيقه، ويستفيد المجتمع من كلا الأمرين فى آن واحد، فيرتفع إلى أعلى مستوى يستطيع الوصول إليه دون إعنات، وقد وصل الجيل الأول من المسلمين فى ذلك إلى آفاق لم يعرفها التاريخ فى غير الإسلام.

ولكن مروبرجر يزعم أن القانون الأخلاقى لم يطبق بتمامه أبدا فى الواقع الإسلامى!! يعنى أنه ظل حبراً على ورق! (أتراه فى دخيلة نفسه يدافع - بغير وعى - عن شعبه «المختار» الذى لم يطبق فيه القانون الأخلاقى أبدا لا فى حياة نبيه موسى عليه السلام ولا بعده إلى هذه اللحظة؟ أو يدافع عن واقع الغرب المهلهل الذى تتباعد فيه الشقة بين الواقع والمثال فى السياسة الدولية خاصة؟!).

ثم يقول إن المجتمعات الإسلامية المعاصرة تركت التشريع الربانى جملة واستبدلت به نظما علمانية بحتة مجلوبة من الخارج، حين ادركت بعد الشقة بين الواقع والمثال!

يا عجبا! وهل كان هذا تصرفا ذاتيا للمسلمين، أم واقعا منحرفا فرضه الغرب فرضا حين احتلت قواته العالم الإسلامي واجبرته على تغيير شريعته؟ ثم واقعا منحرفا استساغته الأجيال المستضعفة من المسلمين التى تربت فى ظل الاحتلال وجُهِّلت بدينها، فلما أفاقت من غفوتها، وحاولت الرجوع إلى دينها وشريعتها قام الغرب كله - بصليبيته وصهيونيته - يحارب العودة إلى الشريعة، ويسميها أصوليه وإرهابا وخطرا على العالم «المتمدن»؟!

إلى هذا الحد تكون المغالطات على يد «العلماء» الذين يدفعهم «العلم» و«الموضوعية» إلى الطعن فى الإسلام والمسلمين؟!

* * *

يمضي المؤلف فى الفصل الرابع (الرجال والنساء والأسر) من صفحة (٩٨) إلى صفحة (١٣٤)، والفصل الخامس (الشخصية والقيم) من صفحة (١٣٥) إلى صفحة (١٥٦)، فيشارك المستشرقين الآخرين فى رمى المسلمين بكل نقيصة، وتجريدهم من كل فضيلة، ولكنه والحق يقال يزيد عليهم (باعتباره عالما اجتماعيا لا مستشرقا فى الأصل!) فينحو نحوا أعمق فى هذا الشأن، فيقول إن كل الفضائل الظاهرية الموجودة بين المسلمين قد نبعت فى أصلها من عيوب

ورذائل متأصلة فيهم!! وهو لا يكتم القارئ أن هذا أمر عجيب فى ذاته، أن تؤدى العيوب والرذائل المتأصلة إلى فضائل ظاهرية! ولكن ما حيلة الرجل فى هذا الشأن، وقد اتضح له الأمر من خلال «البحث العلمى الموضوعى» الذى لا دخل فيه للأهواء، ولا مدخل فيه للمشارب والنزعات؟! أيجامل الرجل فى القضايا التى يقررها العلم البحت! وكيف إذن يستحق لقبه فى عالم الدراسات الاستشراقية حين يوصف بأنه «العالم الكبير» ؟![1]

ولم تكن هذه هى الطرفة الوحيدة التى تفرد بها العالم الكبير ...

ففى صفحة (١٠٥) يتحسر على الفتاة المسلمة التى لا تجد الحرية التى تتيح لها ممارسة الجنس قبل الزواج، مثل أختها الغربية التى نالت هذا «الحق» من زمن! ويبالغ فى تحسره (فى صفحة ١٠٧) فيتجاوز كل الأعراف والمقاييس، فيبدى أسفه على التفرقة بين الرجل والمرأة فى الإسلام، إذ يبيح الإسلام للمسلم الزواج بالكتابية بينما لا يجيز للمسلمة أن تتزوج بغير مسلم[2]، ثم إن الرجل يستطيع أن يتزوج بأكثر من واحدة، بينما لا يباح للمرأة المسلمة أن تتزوج إلا من رجل واحد !!!

هل رأيتم أعجب من هذه الطرفة؟! ففى أى عرف أو دين أو نظام جاهلى أو غير جاهلى يكون للمرأة أكثر من زوج فى وقت واحد، حتى يقال إن الإسلام قد ظلمها إذ حرمها من هذا الحق ؟!!

* * *

---

(١) من عجب أن صحيفة الأهرام نشرت فى صيف عام ١٩٦٧ الخبر التالى « يزور مصر فى هذه الأيام الكاتب الأمريكى الكبير « مروبرجر» ويلتقى بصديقيه الحميمين : الشيخ أحمد حسن الباقورى، والشيخ حسن علوان شيخ مشايخ الطرق الصوفية!

(٢) المسلم الذى يتزوج كتابية يؤمن - بمقتضى إسلامه - بالأنبياء جميعا بما فيهم أنبياء الكتابية التى يتزوجها، ومن ثم لا يقع عليها ضرر عقدى من تزوجه إياها، ولا تتعرض للفتنة فى دينها. بينما المسلمة إذا تزوجت يهوديا أو نصرانيا فهو لا يؤمن برسولها ﷺ، وهى عرضة أن تفتن فى دينها بتأثير هذا الزواج. ثم إن القوامة للرجل وهى لون من الولاية، ولا ولاية لغير المسلم على المسلم، وقد نزل القرآن : ﴿ مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه ﴾ [المائدة : ٤٨]

فى نهاية الفصل الرابع (صفحة ١٣٤) يقرر أمراً له أهمية عظمى فى البحث، وسترد الإشارة إليه أكثر من مرة، حيث يقرر أن أشد عوامل التغيير الذى طرأ على المنطقة هو التغير الذى طرأ على وضع المرأة من حيث التعليم والعمل فى خارج البيت، وأن هذا التغير سيحدث تغييرا دائما وعميقا فى المجتمع العربى .

هذه القضية ذات أهمية خاصة بالنسبة للمؤلف، وقد أعاد الإشارة إليها فى عدة مواضع كما ألمحنا آنفا، ويجب ان تكون ذات أهمية خاصة بالنسبة لنا كذلك، كما يجب أن ندرك مدى اهتمام الغرب الصليبى الصهيونى بإخراج المرأة المسلمة من بيتها، ونزع حجابها، ودفعها إلى الاختلاط بالرجل فى كل مجال .

إن هذا الأمر لا ياتى اعتباطا، إنما ياتى بتخطيط مدروس، يفصح عنه المؤلف الذى يربط ربطا صريحا بين ضعف الإسلام حيث ضعف فى المدينة، وبين خروج المرأة على النحو الذى اخرجت به من بيتها وتقاليدها ودينها وأخلاقها، ويعد هذا الأمر – من بين أمور أخرى – هو أشدها أثرا وأكثرها قدرة على إحداث التغيير الذى يتلهف الغرب على إحداثه .

وانظر إليه فى صفحة (٣٨٢) يقول فى معرض الإعجاب الشديد والتحمس الشديد للحكام العسكريين فى المنطقة : إن الحكم العسكرى قد شجع – فوق كل شئ – عملية تحرير المرأة من العزلة التى كانت تعانيها وذلك من خلال التعليم والعمل خارج البيت ... فلحساب من يتم هذا الأمر؟!

ونمر الآن مرأ سريعا على واقعة ذات دلالة – قد نعود إليها مرة أخرى – إذ قال عبد الناصر – مؤسس الحكم العسكرى فى مصر – فى خطبة له (بالعامية الفصحى!!) : « هيّه إسرائيل عايزة مننا إيه؟ ... إحنا حررنا المرأة!! » والعبارة لا تحتاج إلى تعليق!

ويقول المؤلف فى صفحة (٣٨٧) : إن مصر لم تقرر بعد المساواة الكاملة

بين المرأة والرجل. ولكن نمو التعليم النسوى سيؤدى - ولو فى صورة بطيئة - إلى اتجاه يستحيل الرجوع عنه أو تغيير اتجاهه، يفضى إلى المساواة الكاملة فى داخل البيت وخارجه.

* * *

يزعم فى أكثر من مكان فى الفصل الخامس أن العرف البدوى قد اخترق الإسلام، وأن الإسلام قد اشتمل على كثير من أعراف العرب قبل الإسلام لأنه لم يستطع مقاومتها، ففرضت نفسها عليه (صفحة ١٦٢).

وهنا أكثر من مغالطة استشراقية. فقد أقر الإسلام فعلا بعض أعراف الجاهلية العربية إما لأنها من بقايا دين إبراهيم عليه السلام، فهى ربانية الأصل، وإما لأنها سليمة فى ذاتها، أى أنها لا تتعارض مع المنهج الربانى. ولم يكن قصد الإسلام التغيير لمجرد التغيير! إنما يغير الفاسد لإصلاحه، فإذا لم يكن فاسدا يبقى بحكم سلامته التى يدخل بها فى المنهج الربانى أو يلتقى بها معه. ولكن الخبيث يريد أن يقول إن الإسلام كله نظام بدوى، هو نتاج البيئة البدوية، وكان صالحا لها، لأنه منها وهى منه! ولكنه لم يعد صالحا اليوم فى العالم «المتطور» الذى نبذ البداوة وتقدم وتحضر! وهى فكرة يلح عليها المستشرقون غير مبالين بوقائع التاريخ التى تكذبها. فقد غيرّ الإسلام أعرافا كانت متأصلة فى الجاهلية، كوأد البنات، وإباحة زواج الرجل من زوجات أبيه (غير أمه)؛ ووراثة النساء من ضمن الأشياء الموروثة وعدم توريث النساء من التركة، وإباحة الخمر وإباحة الزنا وتحليل الربا، وغارات السلب والنهب؛ والعصبية للقبيلة وما يصاحبها من الثارات الدامية، وإباحة التبنى، واعتبار المتبنى كالولد الحقيقى بحيث يحرم على الرجل أن يتزوج من مطلقة متبناه ... إلى آخر ما ألغاه الإسلام من أعراف الجاهلية الفاسدة. فإذا أبقى من أعراف الجاهلية ما أبقى فلم يكن ذلك عجزا عن التغيير، إنما كان لسلامة تلك الأعراف وعدم حاجتها إلى التغيير.

بل إنه مما يلفت النظر أن كثيرا من الأعراف التى أبقاها الإسلام لسلامة أصلها، قد صحح الإسلام وجهتها، لتعود ربانية كما يريدها الله، ويزيل عنها ما كانت الجاهلية قد أفسدته من توجهاتها. فالكرم فضيلة يحبها الله، وهى أصيلة فى البيئة العربية، ولكن الجاهلية كانت قد أفسدت وجهتها فجعلتها « رئاء الناس » كما وصفها القرآن الكريم، فالرجل يقرى الأضياف ويبالغ فى إكرامهم « لتتحدث بذكره الركبان » فإذا لم تكن هناك ركبان تتحدث فلا كرم عندئذ! فندد القرآن بهذا التوجه الفاسد، وجعل الإنفاق « فى سبيل الله » فجرده من الرياء، ومن المظاهر الفاسدة المفسدة، وجعله للمستحقين له بالفعل.

والشجاعة فضيلة يحبها الله، وهى أصيلة فى البيئة العربية، ولكن الجاهلية كانت قد أفسدت وجهتها فجعلتها حمية جاهلية يقول عنها شاعرهم:

لا يسألون أخاهم حين يندبهم   إلى القتال على ما قال برهانا

فلا يسألون أخاهم - ولا يسألون أنفسهم - أفى حق كان القتال أم فى باطل؟ أفى نصرة مظلوم أم فى ثأر يختلط فيه الحق والباطل، أم فى غارة للفتك والغلبة بغير حق. فندد القرآن بحمية الجاهلية هذه، وجعل القتال « فى سبيل الله » إحقاقا للحق، ولتكون كلمة الله هى العليا.

وأبقى الإسلام رابطة الأسرة، وقواها، وأحكم روابطها ماديا ومعنويا وبكل وسيلة، وقد كانت قوية فى البيئة العربية، ولكن الجاهلية كانت قد أفسدت وجهتها، فجعلتها عصبية مقيتة، فجاء الإسلام فردها إلى أصلها الربانى، وقال عن انحرافاتها الجاهلية: ﴿ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ [التوبة: ٢٤] فجعل الأصل فى روابط الأسرة - قبل - رابطة الدم

- الرباط فى الله، وفى العقيدة، وفى سبيل الله، بل أمر بفصم رابطة الدم إذا تعارضت مع العقيدة.

وهكذا وهكذا فى كل أمر من أمور الجاهلية التى أبقاها الإسلام، فقد عدّل وجهته ليتمشى مع مبادئ الإسلام وقيمه ومفاهيمه، فصار خلقا آخر غير ما كان عليه فى الجاهلية. فما أبعد ما يقوله مروبرجر وغيره عن الواقع التاريخى الذى أحدثه الإسلام.

ثم إن ما « تطور » من الأمور بفعل العوامل الاقتصادية أو الاجتماعية أو السياسية أو المادية، فإن الفقه الإسلامي قد أباح منه ما هو مباح فى أصله الشرعى، مما لا يتعارض مع مقاصد الشريعة، ولا يحل حراما ولا يحرم حلالا، وتلك هى أداة التجديد الدائم فى هذه الشريعة مع الثبات فيما أوجب الله تثبيته، وتلك أيضا هى مزية هذه الشريعة التى تعطيها المرونة مع الثبات، والتى تجعلها - دائما - صالحة لكل زمان ومكان، لا تقف فى طريق النمو السوى للبشرية، ولا يند عنها فى الوقت ذاته جديد منحرف يفسد الحياة.

أما ما يرتكبه المسلمون اليوم من المخالفات والانحرافات تفلتًا منهم، أو خضوعا لضغوط الغرب عليهم وهم فى حالة الاستضعاف الراهنة، فليس حجة على الإسلام، وسيظل فى عرف الإسلام خطأ أو خطيئة ولو بقى الناس يمارسونه ألف عام، وسيحاسبون عليه أمام الله يوم القيامة، ولا يقبل منهم أن يقولوا إنه أمر أوجبه « التطور » أو قضت به « العولمة » أو صيرورة العالم كله « قرية واحدة »، فلا حجية لشئ من ذلك كله عند الله، إنما الحجية لشريعة الله، الذى كان يعلم وهو يفرض هذه الشريعة أن كل ذلك سيحدث: التطور والعولمة والقرية الواحدة ... إلخ، ولكنه لم يقل لعباده إذا حدث شئ من ذلك فاتركوا شريعتى وسيروا كغثاء السيل مع التيار !! إنما قال سبحانه لرسوله ﷺ والأمة مقصودة من ورائه: ﴿ **فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ** ﴾ [الزخرف: ٤٣] وقال تعالى: ﴿ **فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * وَلَا**

تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لا تُنصَرُونَ﴾ [هود: ١١٢ - ١١٣]

* * *

ثم يخلط المؤلف (فى صفحة ١٦٣) عن عمد أو عن جهل بين قول الفقهاء إن المخالفة التى تقع من الإنسان لشرع الله لا تخرجه من الإسلام إلا إذا كان جاحدا لشرع الله، أو منكرًا معلوما من الدين بالضرورة، وبين إباحة المخالفة والرضى بها! ويعتبر هذا تحايلا من الفقهاء للإبقاء على ثبات الشريعة نظريا مع علمهم بأنها تخالف فى عالم الواقع، وكان الواجب - فيما يرى هو - أن يكونوا صرحاء مع الواقع فيغيروا الشريعة لتتمشى مع الواقع المتغير، ولا يصروا على الزعم بثباتها مع أن الواقع أنها تخالف فى التطبيق!

أهى مجرد جهالة؟ أم تحريض خبيث على نبذ الشريعة، وإعلان عدم صلاحيتها، واللجوء إلى الغرب لاستمداد منهج الحياة من عنده؟ أم مزيج من هذا وذاك؟!

إن الفقهاء قالوا إن كفر العمل لا يخرج من الملة ما لم يكن مرتكبه جاحدا، واستثنوا مع ذلك أعمالا بعينها لدلالتها بذاتها على الكفر كالسجود إلى صنم أو سب الرسول ﷺ أو إهانة المصحف أو التشريع (أى التحليل والتحريم والمنع والإباحة) بغير ما أنزل الله. وتلك قضية عقدية تتعلق بحكم من تقع منه المخالفة: هل هو كافر مخلد فى النار أم غير مخلد، ولكنهم لم يقولوا قط إن هذه المخالفات جائزة أو مباحة أو مستحبة أو مرضى عنها أو مسكوت عنها. إنما قالوا فقط إنها معاصٍ لا يخلد صاحبها فى النار ما دام غير مستحل لها ... فانظر إلى أين ذهب بها «العالم» الكبير!

وماذا فعل الغرب بحكمته - بل قل بحماقته - حين غيّر التشريع ليتمشى مع الواقع الهابط فى قضية الفاحشة وقضية الشذوذ وقضية المخدرات، وغيرها من القضايا ... حين قال «الحكماء»: ما جدوى التحريم الموجود فى التشريع إذا كان

الواقع التطبيقى مخالفاً له، فلنكن « واقعيين » ولنعترف بالأمر الواقع! هل أدى ذلك إلى علاج الانحراف أم إلى مزيد من الانحراف حين صار الأمر مباحا بحكم القانون؟ وهل ارتقت البشرية بهذه « الحكمة » الحمقاء أم زادت هبوطا وانتكاسا إلى أسفل؟ وهل هذا الذى يراد للإسلام والمسلمين لكى « يتطوروا » و« يتحضروا » ؟

﴿ وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً ﴾ [النساء: ٨٩]

* * *

فى صفحة (١٦٣) يقول المؤلف إن الحكم الإسلامى فى الفترة الأولى كان ثيوقراطيا حقًا، لا بمعنى أن الله هو الذى يحكم، إنما بمعنى أن شريعة الله هى الحاكمة.

والمعنى الأول لم يدعِّه أحد حتى يقوم هو بنفيه! فحين يقولون هم فى تأريخهم لأوربا إن الحكم كان ثيوقراطيا فى العصور الوسطى فهل يقصدون أن الله هو الذى كان يحكم؟!

وأما المعنى الثانى، وهو وصف الحكم الإسلامى بأنه « ثيوقراطى » لأنه يحكّم شريعة الله فغير صحيح بالنسبة للحكم الإسلامى. فالحكومة الثيوقراطية هى حكومة « رجال الدين » وليست حكومة الشريعة الربانية، فإن أوربا لم تحكم قط بالشريعة الربانية التى أنزلت فى التوراة والإنجيل! إنما كان القانون الرومانى هو الحاكم فيها، ولكنها خضعت فى الوقت ذاته لأهواء البابا يحل ويحرم لهم بما تشاء أهواؤه، فأحل لهم الخمر والخنزير وهما محرمان فى شرع الله، وحرّم عليهم الختان وهو مأمور به فى شرع الله، ثم أطاعوه فقال الله عنهم: ﴿ **اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ** ﴾ [التوبة: ٣١] ولما جاء عدى بن حاتم ليسلم بين يدى رسول الله ﷺ تلا الرسول ﷺ هذه الآية فقال عدى: يا رسول الله ما عبدوهم! فقال عليه الصلاة والسلام: « ألم يحلوا لهم الحرام ويحرموا عليهم الحلال فأطاعوهم؟ فذلك عبادتهم إياهم » [١].

---

(١) رواه الترمذى.

والإسلام ليس فيه « رجال دين » وبالتالى فليس فى تاريخ الإسلام حكومة ثيوقراطية بأى معنى من المعانى، إنما فيه حكم بالشريعة يحكم بها ولى الأمر، ويحكم بها القضاة فى المحاكم، ويتحاكم إليها الجميع ما داموا مسلمين. إنما يقصد مروبرجر (وغيره ممن يزعمون زعمه) أن ينفروا الناس من حكم الشريعة إذ ينسبونه إلى الحكومة الثيوقراطية السيئة السمعة التى كانت تحكم أوربا فى العصور الوسطى!

* * *

فى صفحة (٢٣٣) يقول: إن الإسلام كان مقصوداً به العرب !!

فمن هو يا ترى صاحب القصد ؟!

فأما الله سبحانه وتعالى، منزل هذا الدين، فقد قال في سورة مكية من أوائل ما نزل فى مكة ، والمسلمون في أشد حالات استضعافهم: ﴿ **إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ * لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ** ﴾ [التكوير: ٢٧ - ٢٨]، وقال سبحانه: ﴿ **وَمَا هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ** ﴾ [القلم: ٥٢] وقال جل جلاله: ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ** ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]

وأما الرسول ﷺ فيقول: « ليبلغن هذا الدين ما بلغ الليل والنهار، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله هذا الدين بعز عزيز أو بذل ذليل، عزاً يعز الله به الإسلام، وذلا يذل به الكفر » [(١)].

فمن هو يا ترى صاحب القصد الذى يتحدث عنه مروبرجر حديث الواثق الخبير ؟!

أما كون الإسلام انطلق من الجزيرة العربية فهذا صحيح، ولا بد لكل دعوة من قاعدة تنطلق منها. ومهما كانت عالميتها وانتشارها، فإنها تبدأ فى القاعدة أولا، وحين تستقر فيها وتتمكن تأخذ فى الانتشار انطلاقا منها إلى الأماكن الأخرى، وما وجدت دعوة فى التاريخ كله انتشرت فى الآفاق كلها فى وقت

---

(١) رواه أحمد.

واحد دون أن تنطلق من قاعدة معينة، حتى فى عالم اليوم الذى انتشرت فيه وسائل الاتصال انتشارا لا مثيل له، وأصبح العالم - فيما يزعمون - كالقرية الواحدة ...

والقاعدة التى اختارها الله سبحانه وتعالى لانطلاق هذه الدعوة كانت هى الجزيرة العربية، لأمور فيها يعلمها الله سبحانه وتعالى، ويعلم أنها أصلح مكان لها ﴿ **اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ** ﴾ [الأنعام: ١٢٤] ولكن هذا لا يعنى أن هذا الدين قصد به العرب وحدهم، أو أنه دين عربى بمعنى أنه نابع من البيئة العربية ومفصل على حجمها. فقد جاء هذا الدين بما لم يكن موجودا فى البيئة العربية ولا فى أية بيئة فى الأرض كلها يومئذ. فقد جاء والعرب لا يجتمعون فى «أمة» على الرغم من وحدة اللغة ووحدة الأرض ووحدة الأعراف ووحدة المعتقدات، لأنهم قبائل متناحرة متنافسة متنابذة، فألف بين قلوبهم فتكونت منهم لأول مرة فى تاريخهم «أمة»، بل أخرج الله من هذه القبائل المتناحرة لا مجرد أمة من الأمم، بل ﴿ **خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ** ﴾ فى التاريخ كله، بشهادة مخرجها إلى الوجود سبحانه. وكان الشرك هو دين الجزيرة العربية، وكان داخلا فى الديانات الأخرى سواء ما كان منها من صناعة البشر أو ذا أصل سماوى فحرّف على يد البشر، فجاء الإسلام بعقيدة صافية التوحيد لا يشوبها شائبة من شرك. وكان الحكام فى كل الأرض ذوى قداسة تقدم لهم شعائر العبادة كما كانت القبيلة ذاتها وثنا معبودا فى الجزيرة العربية يقول القائل فيها [١]:

وهل أنا إلا من غزية إن غوت   غويت وإن ترشد غزية أرشد!

فجاء الإسلام فنزع القداسة عن كل أحد إلا الله وحده سبحانه وتعالى، وجعل الاتباع فى الرشد وحده وحرّم الاتباع فى الغىّ. وكانت المرأة فى الجزيرة العربية كما مهملا وشيئا من الأشياء فرفعها الإسلام إلى مقام «الإنسان» وقال

---

(١) هو دريد بن الصمة.

سبحانه : ﴿ **فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ** ﴾ [آل عمران: ١٩٥] وقال: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا** ﴾ [النساء: ١]

وجاء الإسلام والرقيق فى الأرض كلها « شئ » يتصرف فيه مالكه بما يشاء، فرد الإسلام له إنسانيته المفقودة وجفف منابع الرق كلها إلا منبعا واحدا هو رق الحرب على العقيدة، وحتى هذا فتح له باب التحرر بالعتق والمكاتبة، سابقا بذلك نظم الأرض كلها باثنى عشر قرنا كاملة!

وغير ذلك كثير يشهد بأن الإسلام لم يكن دينا عربيا بمعنى أنه نابع من العرب ومفصل عليهم كما يزعم برجر وغيره من المستشرقين، إنما هو دين للبشرية كلها، نزل بلسان القاعدة التى اختارها الله لتكون منطلقا إلى كل الأرض، وتحققت عالميته فى واقع التاريخ، فبلغ معتنقوه من غير العرب أضعاف الشعب العربى كله من المشرق إلى المغرب!

* * *

فى صفحة (٢٦٦) يقول إن توحيد الدين والسياسة فى الإسلام أدى إلى « خلط » الالتزامات السياسية والأخلاقية! (انظر كلمة « خلط ») ومنع من الوصول إلى « النضج » الذى وصل إليه الغرب حين فصل الالتزامات المدنية والفكر السياسى عن الدين!! كأن هذا هو الأصل الذى يجب أن تلتزمه كل النظم!

وإذا كانت ظروف معينة فى أوربا، نشأت من طغيان الكنيسة ورجال الدين، كان فى قمتها حرق العلماء أحياء بسبب مناداتهم بنظريات علمية تخالف معتقدات الكنيسة، قد أدت إلى إبعاد الدين عن السياسة، أفيكون هذا أصلا يجب أن يتبع ولو لم توجد ذات الظروف ؟!

أى عوج - واستبداد فكرى فى الوقت ذاته - يسيطر على العقل الأوربى، ويريد فرضه بالقوة على الأرض كلها؛ غرورا وعجرفة واستكبارًا فى الأرض،

يخيّل للغرب أنه هو العالم، وما سواه يجب أن يكون تبعا له، امتداداً لروح الإمبراطورية الرومانية التى ورثتها أوربا، والتى كانت ترى نفسها هى «الناس»، وبقية الخلق عبيد!

على أن دعوة الغرب للمسلمين بفصل الدين عن السياسة، واتخاذ العلمانية دينا وديدنا، لا تنشأ من ذلك الغرور وحده، وهو ذاته أمر مرذول، إنما ينشأ من حسابات أخرى حملها الاستعمار فى فكره وما زال يحملها، هى إبعاد فكرة «الجهاد» عن أرواح المسلمين وعقولهم كما يصرح برجر وغيره من كتاب الغرب، بالإضافة إلى الرغبة فى نشر الفساد الخلقى فى المجتمع الإسلامى حين تزال «الحدود» التى تحرّم الفواحش، فيتسنى للغرب عندئذ أن يحكم قبضته على العالم الإسلامى المشغول بشهواته، المبتعد عن روح الجهاد، وهو مطمئن من ردة فعل تبعد قبضته الخانقة عن المسلمين، وتمنعه من إحكام القبضة عليهم.

أما انفصال سياسة الحكم عن مقتضيات الدين والشريعة فى واقع المسلمين، وخاصة فى القرون الأخيرة فهو حقيقة، وإن لم يكن خطا دائما كما يحرص المستشرقون على تصويره. ولكنه لا يبرر ما يدعون المسلمين إليه من فصل الدين عن السياسة واتخاذ العلمانية. إنما العلاج هو إصلاح الخطأ الذى وقع فى حياة المسلمين حين ابتعدت سياسة الحكم عن الهدى الربانى، وجرى الاستبداد فى شئون الرعية بغير ما يفرض الإسلام. أما فصل الدين عن السياسة فقد أدى فى واقع المسلمين فى الفترة الأخيرةإلى ألوان من العسف السياسى لم يعرف لها مثيل من قبل فى أشد عصور الاستبداد الذى وقع من حكام الجور المسلمين!!

* * *

إلى هنا نكون قد انتهينا -- تقريبا -- من عرض أفكار «المستشرق» مروبرجر عن الإسلام، سواء منها ما اكتفى فيه بترديد سخافات المستشرقين الآخرين، أو ما ابتدعه من سخافات خاصة به لم يسبقه بها أحد من قبله...

ولكن تبقى بعد ذلك «الخصوصية» التى يختص بها المؤلف والكتاب! والتى تشم رائحتها منذ الصفحة الأولى التى ذكر فيها اختياره لهذه المنطقة بذاتها للدراسة، والتى حددها بأنها من مصر إلى العراق، أى - باللغة الأخرى - من النيل إلى الفرات!

إن المؤلف رجل سياسة، وإن تلفع «بالبحث العلمى» سواء علم الاجتماع أو علم الاستشراق! وهو لم يخرج هذه الدراسة لمجرد أن تكون بحثا علميا فى شئون منطقة من مناطق الأرض، إنما هى دراسة مختارة - كما أشرنا آنفا - للمنطقة التى تحلم إسرائيل أن تنشئ فيها إسرائيل الكبرى من النيل إلى الفرات، تمهيداً لإقامة الحكومة العالمية التى تحكم العالم من القدس.

وهو فى الدراسة لا يكتفى بالدراسة! إنما هو يوجه إلى أوضاع معينة فى المنطقة يريد من الناس أن يتبعوها، وينتقد أوضاعا معينه لكى يتخلى الناس عنها، ويمجد أوضاعا معينة لأنها تخدم أهدافه، أهداف الصليبية الصهيونية المشتركة، التى أنشأت إسرائيل بادئ ذى بدء، وظلت ترعاها وهى تتوسع وتلتهم كل يوم جزءا من العالم العربى الإسلامى.

وأبرز ما يبدو ذلك فى تمجيد الأنظمة العسكرية فى المنطقة، وتبرير كل ما تقوم به من أعمال، وخاصة ضرب الحركات الإسلامية - الذى يصفه هو بأنه «ضرب بلا رحمة» - وتحرير المرأة على الطريقة التى حررت بها من دينها وأخلاقها وتقاليدها، وكبت الحريات السياسية، والحكم بقبضة من حديد.

ولعل أشد ما يكشف «اللعبة السياسية» فى الكتاب ادعاؤه أن الأنظمة العسكرية فى المنطقة قد نبتت نباتا تلقائيا من رغبة شعوب المنطقة فى التحرر من سيطرة الغرب، ومن تشبع المنطقة بالشعور القومى، المتمثل فى الرغبة فى الاستقلال، وحيازة القوة، والسعى إلى «التقدم» و«الحداثة».

أما أن هذه المشاعر كانت موجودة عند شعوب المنطقة، ومشبوبة فى

أفئدتها، فنعم! وأما أن الأنظمة العسكرية قد نشأت تلقائيا لتجسيد هذه الرغبة دون تدخل خارجى فأمر أقل ما يقال فيه إنه قول يعوزه الدليل!

يقول رجل المخابرات الأمريكية «مايلز كوبلاند» مؤلف كتاب «لعبة الأمم»: «إن مصر كانت فى بداية الخمسينيات معرضة لإحدى ثورتين: إما ثورة شيوعية وإما ثورة إسلامية، والثورة الإسلامية أخطر علينا بكثير من الثورة الشيوعية. لذلك تدخلنا تدخلا حاسما لنقطع الطريق على كلتا الثورتين»!!

فما رأى مروبرجر فى هذا الكلام الصريح، الناطق بعكس ما يزعم فى كتابه من تلقائية الحركات العسكرية ونشوئها نشأة ذاتية من ظروف المنطقة؟!

بل ما رأيه فى كلامه هو فى كتابه من أن هناك قوى كانت ترقب المنطقة وتتحفز للدخول إليها بعد طرد النفوذ البريطانى والفرنسى الذى كان مستوطنا فيها، وأن فى مقدمة هذه القوى كانت أمريكا[1]؟! (انظر صفحة ٢٩٦ وما بعدها).

أيهما نصدق؟ مروبرجر الذى يقول إن أمريكا كانت تتطلع إلى المنطقة وأنها ساعدت على التحرر من النفوذ البريطانى والفرنسى، وقدمت سياسة للإصلاح الزراعى لإصلاح الأحوال فى المنطقة، أم مرو برجر الذى يقول إن الحركة كانت تلقائية، وكانت تجسيداً لرغبة الشعب فى الاستقلال والقوة والتقدم؟

وما بال مرو برجر - اليهودى - يتحمس كل هذه الحماسة للأنظمة العسكرية (التى يسمى القائمين بها «النخبة العسكرية») وهى تضرب الحركات الإسلامية التى لا تخشى إسرائيل شيئا كخشيتها إياها، ولا ترغب شيئا كرغبتها قمعها والقضاء عليها؟

وما بال مرو برجر - اليهودى - يتحمس كل هذه الحماسة للأنظمة

---

(١) ذكر معها روسيا، وسنتكلم عن دور روسيا بعد قليل.

العسكرية وهى « تحرر » المرأة، ذلك التحرير الذى يقول عنه إنه أفعل وسائل التأثير فى المجتمع، المفضى فى النهاية إلى إضعاف الإسلام وتحجيمه فى ركن منعزل لا يحكم الحياة؟

يقول مرو برجر إن الديمقراطية كانت قد فشلت فى المنطقة، لقلة نسبة المتعلمين، ولأن الغرب المسيطر أى بريطانيا وفرنسا، لم تكونا ترغبان فى تنمية الديمقراطية الحقيقية فى المنطقة، إنما كانتا ترغبان فى استخدامها وسيلة لتثبيت نفوذهما، وكانتا تعتمدان فى ذلك على طبقة كبار الملاك والإقطاعيين، التى تسيطر على البرلمانات ولعبة الانتخابات . . .

وهذا كله حق . . . ولكنه حق يراد به باطل . . .

فإذا كانت الديمقراطية قد فشلت للأسباب التي يذكرها (بصرف النظر عن رأينا الخاص فى الديمقراطية) فهل العلاج هو القضاء عليها، وكبتها، وقمعها، أم العلاج هو مزيد من التربية للأمة لكى تتعود على إعمال الرأى، وتحمل المسئولية، والمشاركة الفعلية فى إدارة الأمور ؟!

فأى شئ فعلت الأنظمة العسكرية فى هذا الشأن؟!

يعتذر لها! يعتذر لها بأنها كان لا بد أن تفعل ذلك، لكى تحدث التغيير الاجتماعى الذى يؤدى – بعد عمر طويل! – إلى تربية الأمة لكى تمارس الديمقراطية!!

أفرأيت أبرد من هذا الدفاع، الذى ينكشف من ورائه كل ما يريد المؤلف أن يخفيه؟!

* * *

أما دور روسيا فقد يكون خافيا على كثيرين، من ناحية سماح أمريكا – فى مناطق نفوذها التى استولت عليها بعد طرد النفوذ البريطانى والفرنسى – سماحها لها بالعمل فى مناطق نفوذها، وخاصة فى وسائل الإعلام، وتجنيد

الشيوعيين من أبناء البلاد ليعملوا فى الصحافة والإذاعة، وإتاحة الفرصة لهم على اتساعها للدعوة إلى المبادئ الشيوعية ...

ولا يتسع المقام هنا لشرح اللعبة من جميع أبعادها. ولكن لعله يجزئنا أن نقول إن أمريكا قد سمحت للنفوذ الشيوعى أن يتوغل فى مناطق نفوذها فى مجال معين، وهو محاربة الإسلام والدعوة الإسلامية! فقد كانت الشيوعية تملك يومئذ من وسائل حرب الإسلام أكثر مما يملك الغرب. فالغرب لا يملك فى هذا المجال إلا نشر الفساد الخلقى. أما الشيوعية فقد كانت تزعم أنها عقيدة! وأنها العقيدة الوحيدة التى تملك تخليص العالم كله من أمراضه وأوجاعه ودواعى الخلل فيه! وكانت أمريكا ترقب الموقف بدقة، فهى تسمح للشيوعيين أن يعملوا – بجد – فى هذا المجال، كما تورط روسيا فى تقديم مساعدات للمنطقة بدلا من أن تتحملها هى وحدها، ولكن بشرط الا يصدّق الشيوعيون أنفسهم فيقوموا بانقلاب شيوعى حقيقى فى أى منطقة من مناطق النفوذ الأمريكى! وتم ذلك بالفعل فى المنطقة على اتساعها فيما عدا حادثتين اثنتين أفلتتا من الرقابة الشديدة، هما الانقلاب الشيوعى فى أندونيسيا سنة ١٩٦٥م، والانقلاب الشيوعى السودانى سنة ١٩٧٠، ولقى الانقلابان جزاءهما فى الحال! فحدثت مجزرة فى أندونسيا قتل فيها ألوف الشيوعيين، ولم يعش الانقلاب السودانى أكثر من ثلاثة أيام ضرب فى أثنائها من قبل كل الأنظمة «الوطنية» فى المنطقة!!

* * *

ما علينا من هذا ...

يتساءل المؤلف قرب نهاية الكتاب عن هاجس يعمل فى صدره ...

إلى أى مدى تنجح الحركات المفروضة من أعلى؟!

ويبدى المؤلف تخوفه (فى صفحة ٣٨٦) من أن التجربة العملية فى روسيا وتركيا أثبتت أنه لا يمكن للحركات المفروضة من أعلى، أى بالقوة الجبرية أن

تقضى على كل ما تزيد القضاء عليه من أعراف وتقاليد وتنظيمات عميقة الجذور فى التربة. ويقول إن الحكم العسكرى فى روسيا وتركيا قد اضطر إلى التراجع فى مجال الدين، فلم يستطع أن يجتث جذوره، واضطر إلى الاعتراف بالأمر الواقع!

ولكنه يعود فيعزى نفسه بأنه على المدى الطويل سيحدث التغيير الاجتماعى الذى يجعل العودة إلى الدين وعودة المرأة إلى الحجاب أمرا مستحيل الوقوع!

وأظن المؤلف قد عاش حتى رأى أحلامه تبوء بفشل ذريع. إذ هب العالم الصليبى الصهيونى كله يحارب الحركات الإسلامية بضراوة لم يسبق لها مثيل من قبل، ولو كانت حركات ميتة – كما تمنى لها المؤلف – ما كانت تحتاج إلى هذا التجمع كله، وهذا الجهد كله، لمحاولة القضاء عليها، وتجفيف منابعها!

هربر دكمجيان
الحركات الأصولية فى العالم الإسلامى

هذا كتاب لا يتكلم عن الإسلام ، ولا يتعرض له بالنقد ولا التجريح كما عهدنا فى كتب المستشرقين ، إنما يتحدث عن الحركات الإسلامية أو « الأصولية » كما يطلقون عليها فى مصطلحاتهم ، والتى يطلقون على نشاطاتها اسم « الإسلام السياسى » !

وقد أدخلناه فى قائمة النماذج المختارة لأنه يمثل لونا من نشاط المستشرقين أشرنا إليه فى نهاية الفصل الماضى وهو المتعلق « بجهاز الاستخبارات الثقافى » الذى هو من صميم أعمال المستشرقين ، أى دراسة ما هو قائم فى العالم الإسلامى من حركات ، والتعرف على أفكارها ، ونشاطاتها ، ومقدار قوتها أو ضعفها ، ومدى تغلغلها فى « الجماهير » ، ونوعية المنتمين لكل منها ، ونوع القيادة فى كل جماعة ، وهل هى دعوة سلمية أم جانحة إلي العنف ، وهل عملها « فوق الأرض » أم « تحت الأرض » (أى : علنى أم سرى) وموقف الدول منها ، وتأثير مواقف الدول فى سير تلك الجماعات .. وكتابة تقارير بذلك للدول « ذات الشأن » التى تتتبع نشاط تلك الجماعات لتحدد موقفها منها . وطريقة التعامل معها . ومن هذه التقارير ما ينشر ، مثل هذا الكتاب الذى بين أيدينا ، الصادر عام ١٩٨٤ م ، ومنها ما يحتفظ بسريته ، فيظل سرا بين المستشرق الذي كتبه والدولة التى ينتمي إليها ، أو يتدارس فى مؤتمرات المستشرقين الدورية وغير الدورية التى تجتمع بين الحين والحين لتبادل المعلومات ، وتبادل الخبرات !

وليس فى نيتنا هنا – ولا من شأننا – أن نناقش ما جاء في الكتاب ، فهو ليس « أفكارا » تناقش ، إنما هو مسح شامل للحركات الإسلامية ، وتقرير مفصل عن تكوينها وأنواع نشاطها واتجاه كل منها .

إنما يعنينا منه – ومن أمثاله – أمران :

الأول : أنه مشوب من أول لحظة ، لأنه دراسة للحركات الإسلامية لا من أجل الدراسة ، ولكن من أجل العمل على القضاء عليها ! وفرق بين رؤيتك للشئ لكى تتعرف عليه ، وبين رؤيتك له على انه خطر داهم تريد أن تتقيه ، أو تتخلص منه !

فى الرؤية الأولى سترى الشئ فى حجمه الحقيقى – في حدود الاختلاف المعهود بين ناظر وناظر – وسترى المزايا والعيوب ، دون حقد على المزايا ولا شماتة في العيوب ! وفى الرؤية الثانية ستنظر وأنت متوجس ، فتتضخم فى حسك المخاطر ، وتتلاشى المزايا ، وتبرز العيوب ، ويكون همك من الرؤية أن تتعرف على المقاتل التى يمكنك منها أن تقضى على خصمك ، أو تتقى شره على الأقل!

والغرب عامة يرى الإسلام خطرا يجب الخلاص منه ، والقضاء عليه !

ذلك أنه منذ هزيمة أوربا فى الحروب الصليبية الأولى ، ومنذ القضاء على آخر دويلة إسلامية في الأندلس – دويلة غرناطة – سنة ١٤٩٢ م والغرب يعمل بدأب لمحاولة القضاء على الإسلام . وفى القرنين الأخيرين تركز التدبير والتفكير فى محاولة القضاء على الدولة العثمانية على أمل أن القضاء على الدولة سيقضى على الإسلام . وتم بالفعل القضاء على الدولة العثمانية ، وفرك الغرب يديه سرورا أن التدبير قد نجح ، وأن الإسلام لن يعود له وجود . .

ولكن قدر الله كان فى اتجاه آخر . .

﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ [الأنفال : ٣٠]

لقد كان زوال دولة الخلافة هو نفسه من بواعث الصحوة الإسلامية !

وجن جنون الصليبية الصهيونية ، وانبرت تواجه «الخطر» بكل ما تملك من وسائل المواجهة ، ومن بين ذلك تجنيد المستشرقين ليكونوا جهاز استخبارات ثقافى ، يدرس الأحوال ، ويقدم التقارير !

أما الأمر الثانى الذى يعنينا من هذا الكتاب وأمثاله ، هو ما يقدمه أصحابها من تفاسير لقيام الصحوة الإسلامية .

كل شئ إلا أن تكون هى العودة إلي النبض الطبيعى لهذه الأمة ، الذى عاشت به خلال القرون !

أزمة اقتصادية . أزمة حربية . أزمة ثقافية . أزمة سياسية . أزمة بحث عن الذات . أزمة تخلف .. أزمة فكرية .. فى جميع الأحوال هناك أزمة هى التى أدت إلي قيام الصحوة !

ووجود الأزمة - أو الأزمات - وتأثيرها فى الصحوة أمر لا ينكره أحد ... ولا حاجة لإنكاره !

إنما القول بأن الأزمات - خلال التاريخ الإسلامى كله - كانت هى السبب فى حدوث صحوة ، كما يقول هذه الكاتب ومن ينحو نحوه - فهو قول يغفل مجموعة من الحقائق لا يسهل على المستشرقين ذكرها ، وإن عرفوا أنها حقائق :

﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ [النمل : ١٤]

الحقيقة الأولى - والكبرى - أن الإسلام دين الفطرة :

﴿ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم : ٣٠]

فدخول الناس أفواجا فى دين الفطرة أول مرة ، ودخول شعوب بأكملها فيه فى مرحلة تالية من تاريخه ، وبقائه حتى اليوم برغم كل الكوارث التى انصبت على المسلمين ، ودخول مئات وألوف فيه كل عام فى أوربا وأمريكا رغم سوء أحوال المسلمين ، وإعطائهم المثل السيئ من أنفسهم .. كل ذلك له دلالة على أنه دين يتفق مع الفطرة ، ويلبى حاجاتها السوية ، ويبث فى قلوب معتنقيه طمأنينة لا يجدونها فى غيره :

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾

[الرعد : ٢٨]

وهذا ذاته يفسر عودة المسلمين إليه كلما انحرفوا عنه ، عودة « تلقائية » لا تحتاج إلي عنصر خارجى !

والحقيقة الثانية أن هذا الدين قد طبق فى واقع الأرض بضعة قرون ، كانت من أكثر قرون التاريخ إشراقا ، وتحضرا ، وتقدما ، واستقرارا ، بينما كانت أوربا ما تزال تعيش فى قرونها الوسطى « المظلمة » باعترافهم !

فهو ليس شعارات مرفوعة فى الهواء ، ولا مجرد أمانى ، ولا مُثلاً غير قابلة للتطبيق ، ولكنه رفعة إنسانية فى مقدور الإنسان العادى ، والإنسان الممتاز يجد فيه مجالات للارتقاء ، والإنسان الهابط يستطيع أن يحاول إذا أراد : « ولكل درجات مما عملوا » « فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ، ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله » ويتألف من المجموع مجتمع يغلب الخير فيه على الشر ... ووجود هذا التاريخ حيا فى أذهان المسلمين هو فى ذاته دافع إلى العودة كلما انحرف الناس !

والحقيقة الثالثة أن الله تكفل سبحانه وتعالى أن يبعث على رأس كل قرن من يجدد للناس دينهم ، أي يعيد توثيق الصلة بين الناس ودينهم كلما فترت هذه الصلة أو أصاب الران القلوب !

تلك عوامل ذاتية أسهمت فى إحداث الصحوات الكثيرة التى حدثت فى تاريخ الإسلام .

فإذا جاءت الأزمات – وهي تجئ بحكم احتكاك البشر بعضهم ببعض – فإنها تشكل عاملا مساعدا ، يشبه العامل المساعد الذى ينشّط التفاعل الكيميائى دون أن يكون سببا فيه . بل إن بعض الأزمات التى مربها المسلمون كان أمثالها سببا فى زوال دول وحضارات وشعوب بادت ولم يعد لها وجود ، أو صار وجودها هامشيا لا يحسب له حساب .

فالأزمة وحدها لا تنشئ صحوة .. وهى مع الشخص أو الشعب الذى فقد حيويته يمكن أن تكون قاتلة . إنما تكون حافزا للحركة والنشاط عند من بقيت عنده حيوية قابلة للانبعاث ، وهذا هو حال الإسلام . وقد التفت « جب » إلي هذه الخاصية فى الإسلام حين قال فى كتابه « وجهة الإسلام ؟ Whither Islam » : إن أخطر ما فى هذا الدين أنه ينبعث فجأة دون أن يعلم أحد سبب انبعاثه ، ولا المكان الذى يمكن أن ينبعث فيه !

والأزمة الحقيقية الكبرى هى أزمة الغرب مع هذا الدين ! فلا هو قادر – ولا

راغب – أن يتعايش معه على أنه أمر واقع لا سبيل إلى إلغائه أو تجاهله ، ولا هو قادر أن يقتنع أن المستقبل لهذا الدين !

فأما الأولى فسببها حقد « لا عقلانى » يملأ قلوب الغرب تجاه الإسلام ، من رواسب الحروب الصليبية ، يخيّل للغرب أن الإسلام خطر على وجوده وخطر على مصالحه . ولو كانت « مصالحه » مشروعة لما استشعر الخطر عليها من الإسلام، فالإسلام لا يحارب المصالح المشروعة للبشر ، ومن مفاهيمه الأساسية أن الله يحب المقسطين . ولكن لأن « مصالحه » المزعومة هى السيطرة الشريرة على البشر ، فهو لهذا يكره القوة التى جندت نفسها لمقاومة الطغيان ، ويريد أن يسحقها سحقا ليخلو له الجو دون حاجز ولا رقيب .

وأما الثانية – المتعلقة بالمستقبل – فسببها الغرور « اللاعقلانى » الذى يملأ قلوب الغرب ، والذى يخيّل إليه أنه ملك القوة التى لا تقهر ، ولا تنهزم ، ولا تبيد . ولأنه لا يؤمن بالسنن الربانية التى يؤمن بها من كان قلبه موصولا بالله ، فهو فى غشاوة عن السنة التى تقول : ﴿ **فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ * فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾ [الأنعام : ٤٤ ، ٤٥]، والسنة التى تقول : ﴿ **حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ** ﴾ [يونس : ٢٤] والسنة التى تقول : ﴿ **وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ** ﴾ [آل عمران : ١٤٠]

أما المسلمون فهم فى وعد الله الدائم : ﴿ **وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا** ﴾ [النور : ٥٥]

أثر الاستشراق فى حياة المسلمين

هل كان يستطيع الاستشراق بمفرده – لو كان وحده فى الساحة – أن يحدث التأثير الذي أحدثه بالفعل فى حياة المسلمين ؟

لا أظن !

فكم من المسلمين فى القرن الماضى مثلا كان يمكن أن يطلع على كتاباتهم بلغاتهم التى يكتبون بها : الانجليزية أو الفرنسية أو الألمانية أو الإيطالية أو غيرها من اللغات الأوربية ؟

بل ، كم من المسلمين – حتى الذين يعرفون هذه اللغات ويمكنهم الاطلاع على المكتوب بها – كان سيتجه إلى الاطلاع على ما يكتبه المستشرقون قبل قرن من الزمان أو أكثر من قرن ، حيث الناس متمسكون – على الأقل – ببقايا دينهم الموروث ، والتعليم إسلامى ، وروح الحياة كلها متوجهة إلى الإسلام ؟

وكم من الذين كان يمكن أن يهتموا بقراءة ما يكتبه المستشرقون بلغاتهم ، كان عرضة لأن يتأثر بما يكتبون ، خاصة والمستشرقون الأوائل كانوا فى الأغلب شتّامين قدّاحين ، يستخدمون من الأساليب ما يستفز المسلم ويحمله على التمسك بدينه فى مواجهة ما يلمسه فى كتاباتهم من طعن وتجريح ؟!

يروى قاسم أمين فى مذكراته [1] ، وقد كان يتقن الفرنسية ، إذ تخرّج فى مدرسة الحقوق الفرنسية بالقاهرة ، أنه – قبل سفره إلي باريس – قرأ كتابا لأحد المستشرقين الفرنسيين ، يطعن فيه فى الإسلام ، ويتهمه بالإجحاف بالمرأة والافتئات على كرامتها وإنسانيتها ، وأنه يحرمها من كثير من حقوقها ، فغلى الدم فى رأسه ، وأقسم ليكتبن رسالة – بالفرنسية – يرد بها على ذلك المؤلف ، ويفند فيها ما جاء في كتابه من طعن فى الإسلام !

---

(١) نشرتها دار الهلال المصرية .

ولكن الريح غيرّت اتجاهها بعد أن سافر إلي باريس !

ونعود إلى السؤال الذى بدأنا به الحديث . .

هل كان يقدّر للاستشراق بمفرده أن يحدث أثرا في حياة المسلمين ؟ وإذا كانت الإجابة بالنفى . . فما الذى جعله يحدث كل هذا التأثير فى مدى قرن من الزمان أو أكثر ، بحيث يلوّن فكر « المثقفين » فى أمة بكاملها تقطن من المحيط إلى المحيط ؟!

إنها عدة أمور فى وقت واحد ، متشابكة كلها ، مترابطة ، مدفوعة فى اتجاه معين ، لإحداث أثر معين .

إنها على وجه التحديد : الضغط العسكرى والسياسى للغرب متمثلا فى الاستعمار ، والسياسات التعليمية التى وضعها الاستعمار فى البلاد التى احتلها بجيوشه ، ثم الطلاب الذين خرّجتهم تلك السياسات التعليمية ليكوّنوا الطبقة المثقفة فى تلك البلاد . .

وفى ظل هذه العوامل الثلاثة عمل الاستشراق فكان له من الأثر ما نراه اليوم فى حياة هذه الشعوب .

* * *

فى كتاب « واقعنا المعاصر » تحدثت عن التجربة المصرية فى هذا المجال بقدر من التفصيل ، وقد حدث فى كل بلد من بلاد المسلمين شبيه بما وقع فى مصر ، وإن كانت التجربة المصرية كانت تجرى بتركيز خاص ، باعتبارها بلد الأزهر ، الذى كان فى حينه مركز التوجيه الروحى والثقافى للعالم الإسلامى كله ، فكانت هناك عناية خاصة من قبل الصليبية الصهيونية لإحداث ذلك الأثر فى مصر أولا ، ثم نشره فى بقية العالم الإسلامى بعد ذلك .

تحدثت هناك [1] عن دور الحملة الفرنسية ، وقلت إنها كانت حملة

---

(١) فى كتاب « واقعنا المعاصر » فصل « آثار الانحراف » .

صليبية فى حقيقتها . فقد حاولت تنحية الشريعة الإسلامية وإحلال القوانين الوضعية محلها (لولا ثورة علماء الأزهر ، والشعب معهم ، تلك الثورة التى أدت إلى خروج الحملة من مصر قبل أن تستكمل مهمتها) ثم إنها جاءت معها بمن يبعث الفرعونية ، لزلزلة الولاء للإسلام ، ومحاولة وصل المصريين بتاريخهم الفرعونى ، بدلا من تاريخهم الإسلامى ، كما قال أحد المستشرقين الصرحاء(١) :
« إننا فى كل بلد إسلامى دخلناه نبشنا الأرض لنستخرج حضارات ما قبل الإسلام . ولسنا نطمع بطبيعة الحال أن يرتد المسلم إلي عقائد ما قبل الإسلام، ولكن يكفينا تذبذب ولائه بين الإسلام وبين تلك الحضارات » !

ثم جاء محمد على فتمم ما كانت تبغيه فرنسا من حملتها ، وكان أخطر ما فعل هو سياسة الابتعاث التى اتخذها ، بإرسال شبان صغار لم ينضجوا بعد ، إلي فرنسا خاصة وإلى إيطاليا كذلك ، ليتعلموا هناك ، فيعودوا محمّلين بما تحمله البيئة التى أرسلوا إليها من أفكار تلوث معتقداتهم ، وتذيب شخصياتهم ، فيكونوا نواة « للتغيير » الذي قال عنه المنصرون فى كتاب « الغارة على العالم الإسلامى » : « ولا شك أن إرساليات التبشير من بروتستانتية وكاثوليكية تعجز عن أن تزحزح العقيدة الإسلامية فى نفوس منتحليها ، ولا يتم ذلك إلا ببث الأفكار التى تتسرب مع اللغات الأوربية ، فبنشرها اللغات الانجليزية والألمانية والهولندية والفرنسية يحتك الإسلام بصحف أوربا ، وتتمهد السبيل لتقدم إسلامى مادى ، وتقضى إرساليات التبشير لبانتها من هدم الفكرة الدينية الإسلامية ، التى لم تحفظ كيانها وقوتها إلا بعزلتها وانفرادها »(٢) .

ثم جاء الاحتلال البريطانى فمكث طويلا وأفسد كثيرا في كل مجالات الحياة الإسلامية ، ولكن أخطر ما فعله كان السياسة التعليمية التى وضعها

---

(١) فى كتاب « الشرق الأدنى ، مجتمعه وثقافته » نشر مشروع الألف كتاب بالقاهرة .

(٢) من كلام شاتلييه فى مقدمة الكتاب (سبقت الإشارة إليه) .

القسيس دنلوب ، لتخريج أجيال من المسلمين لا تعرف شيئا من حقائق الإسلام، ولا تعرف عن الإسلام إلا الشبهات التى يثيرها أعداء الدين [١]

* * *

في هذه الأجواء عمل المستشرقون ، فكان لهم ذلك الأثر الذى أحدثوه فى أفكار المسلمين ، والذى لم يكونوا ليبلغوا شيئا منه لو كانوا وحدهم فى الساحة يواجهون المسلمين !

إن تنحية الشريعة كانت أمراً بالغ الخطورة فى مجرى الأحداث التى وقعت فى العالم الإسلامى . وقد كانت الصليبية الصهيونية تعرف هدفها جيدا من تنحية الشريعة فى كل بلد إسلامى دخلت إليه .

فالشريعة – بادئ ذى بدء – كانت حاجزا ضخما بين الاحتلال الصليبى الصهيونى وبين أهدافه من احتلال العالم الإسلامى . وكما ذكرت فى أحد الكتب السابقة ، فقد كانوا يريدون فى مبدإ الأمر تنصير المسلمين ، وكان تطبيق حد الردة يحول دون ذلك ، وكانوا يريدون نشر الفاحشة وكان تطبيق حد الزنا يحول دون ذلك ، وكانوا يريدون أن ينشروا الخمر ، وكان تطبيق حد الخمر يحول دون ذلك . وكانوا يريدون استغلال أموالهم بالربا وكان تحريم الربا فى الشريعة الإسلامية يحول دون ذلك .

ثم إن الشريعة – إلى جانب ذلك – كانت خطرا على الاحتلال من جهتين اثنتين على الأقل : الأولى حثها على الجهاد – وهو أشد ما تفزع منه الصليبية الصهيونية من أمور هذا الدين – والثانية توكيد إحساس المسلم بإسلامه، ومن ثم استمساكه به ، والاعتزاز به ، إذ أنه يعطى المسلم إحساسا بالتميز على كل الخلق، لأن شريعته ربانية وشرائع الناس بضاعة بشرية لا ترقى إلي ما جاء من عند الله ، فيكون هذا – كما عبر جرونيباوم – حاجزا ضخما بين المسلمين وبين الذوبان فى الغرب ، الذى يشتهيه المحتلون الغاصبون .

---

(١) انظر التفصيل فى كتاب « واقعنا المعاصر» .

ولكن تنحية الشريعة – على كل ما فيه من شر – لم يكن ليؤتى ثماره الخبيثة كلها لولا السياسة التعليمية (والإعلامية) التى اتبعها الاحتلال فى بلاد الإسلام .

كان المطلوب تخريج أجيال لا ترى فى وجود المستعمر فى بلادها دافعا إلى « الجهاد » . . الجهاد الإسلامى بالذات المتصل بالعقيدة مباشرة ، والذى يستمد قوته من اتصاله بالعقيدة . أما الجهاد « السياسى » – إذا حدث فى يوم من الأيام– فأمره أهون : لقاءات ، ومفاوضات ، ومساومات ، وفى كل مرة يخرج المحتل الغاصب منتصرا على المغلوبين المقهورين .

وكان المطلوب تخريج أجيال لا ترفض الذوبان فى الغرب ، بل تتقبله على أساس أنه وسيلة للخروج من التخلف ، والسير نحو الحضارة والتقدم والرقى .

وكان لابد لتخريج تلك الأجيال من سياسة تعليمية تقتل اعتزاز المسلم بإسلامه ، وبلغته ، وبتاريخه ، وبأمجاده ، وتزرع بدلا منها انسلاخا من الدين ، وإعراضا عن اللغة ، وانخلاعا من التاريخ ، وجهلا وتشويها لكل ما يعتز به المسلم من أمجاد .

وكان منهج دنلوب وافيا بالأغراض كلها التى أرادها الاحتلال . وخرّج تلك الأجيال المطلوبة ، بطريقة بالغة الخبث ، بالغة الشر ، بالغة التأثير . .

وجاء « التلاميذ » الذين خرّجهم دنلوب . . تلاميذ الاستعمار . . جاءوا وقد أُعدُّوا إعدادا متقنا ليحملوا « رسالتهم » ! رسالة الانسلاخ من الإسلام ، والذوبان فى الغرب . . ففتحوا قلوبهم وعقولهم لما يبثه المستشرقون من أفكار . . فكان لهم منذئذ ذلك التأثير الذى أحدثوه في حياة المسلمين !

* * *

إن المسلم الذى عرف ربه ، وعرف دينه ، وعرف رسوله ﷺ : من مصادر العلم الإسلامية الأصيلة : الكتاب والسنة وما حولهما من شروح وتفاسير ، لن ينظر إلى الغثاء الذى يفرزه المستشرقون فى أمور العقيدة ، والذى لا يزيد عما كان يقوله المشركون فى مكة وقت ظهور الإسلام ، اللهم إلا زيادة فى السخف ،

وزيادة فى الحقد على الإسلام والمسلمين ، وستمتلئ نفسه تقززا مما يقرأ من كتاباتهم ، إذا اتجه إلي قراءتها أصلا ، وليس هناك أصلا ما يدعوه إلى الاتجاه إليها!

والمسلم الذى قرأ تاريخه في مصادره الإسلامية ؛ لن ينظر إلى الغثاء الذى يفرزه المستشرقون حول هذا التاريخ بما فيه من مغالطات والتواءات فى تفسير الأحداث ، وتركيزٍ على الأسود وإغفالٍ للأبيض فى ذلك التاريخ .. وهو لن يغمض عينيه عما وقع فى هذا التاريخ من انحرافات وانتكاسات وأعمال لا تليق ببنى الإنسان ، ولكنه سيراها فى مواضعها من اللوحة الكبيرة البيضاء ، التى يغلب بياضها على سوادها ، فيستنكرها - ويجب عليه أن يستنكرها لحساب ربه ولحساب دينه - ولكنه يظل يعتز بهذا التاريخ فى عمومه ، لأنه أنصع تاريخٍ لأمةٍ درجت على هذه الأرض ، ولأن ما فيه من السواد وقع مثله وأبشع منه فى كل الأمم بلا استثناء ، أما ما وقع فيه من مدارج الرفعة فبعضه على الأقل لم تصنعه أمة فى التاريخ ...

والمسلم الذى عرف دينه وعرف تاريخه من مصادره الإسلامية الأصيلة سيأسى ولا شك لحال المسلمين فى الوقت الراهن ، ومدي بعدهم عن حقيقة الدين وإن تشبثوا بمظاهر منه ، ومدى تخلفهم عن عصرهم فى جميع الميادين : السياسية والحربية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية والعلمية ، ولكنه سيعلم أولا أن السبب الأول والأكبر لهذا التخلف هو التخلف العقدى الذي وقع فيه المسلمون ، وسيعلم ثانيا أن الطريق للخروج من هذا التخلف هو العودة لحقيقة هذا الدين ، تلك الحقيقة التى أخرجت ذات يوم « خير أمة أخرجت للناس » والتى صنعت حضارة فريدة فى التاريخ .

والمسلم الذى عرف دينه وعرف تاريخه سينظر إلى الحضارة الغربية نظرة الأجيال الأولى من المسلمين للحضارات الجاهلية التى كانت تحيط بهم : فيها أشياء نافعة يستفيد بها من أجل ترسيخ قدمه فى الأرض ، وفيها مفاسد ومهاوٍ وموبقات . فيأخذ النافع الذى يستفيد به ، ويطوعه لعقائده ولقيمه ولمبادئه

ولمفاهيمه ، وينظر باستعلاء المؤمن إلي المفاسد والمهاوى والموبقات ، فيبتعد عنها ويحاذر أن يقع فيها .. فيكتب له الفلاح فى الدنيا والآخرة .

* * *

أما « المسلم » الذي يتربى فى أحضان السياسة التعليمية التى وضعها القسيس دنلوب لمصر الإسلامية ، (ومثيلاتها فى العالم الإسلامى كله من المحيط للمحيط) فكيف يكون موقفه من تلك القضايا وتلك الأحداث ؟!

إنه لم يعرف دينه من مصادره الإسلامية الصحيحة ، ولكن أعطيت له صورة مشوهة عنه وعن أهدافه وعن آثاره فى واقع الأرض .

ولم يعرف من تاريخه إلا السواد الذى أبرز أمامه بينما أخفى عنه كل بياض الصورة فلا يرى فى تاريخه إلا ظلمات ..

ولم يعرف من أسباب تخلفه إلا أنه ناشئ من الدين ! من الإسلام بصفة خاصة !

ولم يعرف له مخرجا مما هو فيه من تخلف إلا اتّباع أوربا ، واللهاث خلفها للحاق بها .. وهيهات !

فهل تكون لدى ذلك « المسلم » ذرة من المناعة ضد السموم التى يفرزها المستشرقون ؟ بل هو مستهدف لها بطبيعة تكوينه العقلى الذى نُشِّئ عليه فى مدارس القسيس !

وهؤلاء هم « المثقفون » .. إلا من رحم ربك !

لقد أخبر الرسول ﷺ أن هذه الأمة ستمر بها محنة عاصفة تكاد تقتلعها من جذورها حين قال ﷺ : « يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة على قصعتها » قالوا : أمن قلة نحن يومئذ يا رسول الله ؟ قال : « بل أنتم يومئذ كثير . ولكنكم غثاء كغثاء السيل [1]

---

(١) رواه أحمد وأبو داود .

ولقد صارت الأمة بالفعل غثاء كغثاء السيل كما أخبر الرسول ﷺ ، إلا الطائفة التى أخبر عنها عليه الصلاة والسلام أنها لا تزال ظاهرة على الحق : « لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم حتى يأتى أمر الله وهم على ذلك »[1] .

ولكن أغثى ما في هذا الغثاء هم أولئك « المثقفون » ، الذى تتلمذوا على أفكار المستشرقين !

* * *

إن هؤلاء هم خلاصة السم الصليبى الصهيونى كله ، وَعَوْا ذلك أم لم يعوه . . .

ولينظروا نظرة « بموضوعية » إلى أعمالهم وأفكارهم ومواقفهم !

أين هم من مجرى الأحداث ؟

إن الصليبية الصهيونية تريد محو هذا الدين من الأرض ، أو إن عجزت عن ذلك – وهى عاجزة لا محالة – فليكن هذا الدين فى أصغر حجم ممكن : علاقة بين العبد والرب ، محلها القلب ، ولا صلة لها بواقع الحياة.

فأين يقف « المثقفون » فى هذه القضية ؟

والصليبية الصهيونية تريد ألا يرجع المسلمون إلي إسلامهم يحكّمونه فى واقع حياتهم ، ويرجعون إليه فى الكبيرة والصغيرة ، ويجعلونه منبعا ومرتكزا لتصرفاتهم ومواقفهم ..

فأين يقف « المثقفون » فى هذه القضية ؟

والصليبية الصهيونية تريد أن يذوب المسلمون فيما يسمونه « الحضارة الغربية » فلا تكون لهم شخصيتهم المتميزة المستمدة من دينهم ، والتى يقفون بها فى وجه الغرب ، وأطماعه الاستعمارية ، التى تتخذ شعار « العولمة » حينا ، وشعار العالم الذى أصبح كالقرية الواحدة حينا ، والاتفاقيات الاقتصادية التى

---

(١) رواه مسلم .

تخنق البلاد الضعيفة لتزيدها ضعفا بينما المستغلون المتجبرون يزدادون غنى وصلفا . .

فأين يقف « المثقفون » فى هذه القضية ؟

والصليبية الصهيونية تريد أن تنحل أخلاق المجتمع الإسلامى ويغرق في الفوضى الجنسية التى تحل عزيمة الأمم ، وتشغلها عن مهمات الأمور إلي سفاسفها، ومن أجل ذلك تنادى « بتحرير » المرأة على النحو الذى يجردها من دينها وخلقها وتقاليدها ، ويطلقها متبرجة تبغى الفتنة وتخوض فيها . .

فأين يقف « المثقفون » فى هذه القضية ؟

والصليبية الصهيونية – والصهيونية خاصة كما أقر سارتر في كتابه « اليهود وأعداء السامية » [١] وكما أقر لنين من قبل [٢] تريد أن تضع « العقلانية » في موضع الوجدان الدينى ، فيحتكم الناس إلى العقل وحده فى كل الأمور ، سواء أكانت من اختصاص العقل أم لم تكن ، وسواء أكان العقل يصلح للإفتاء فيها أو لم يكن [٣] . . وقد أقر سارتر . ولينين من قبل – أن القائم على نشر هذا المذهب هم اليهود ، فقالا : إنه طالما كان هناك وجود للدين ، وطالما كان الدين مرجعا يرجع إليه الناس فى تصرفاتهم ، فسيقع تمييز مجحف على اليهود ، لأن غير

---

(١) الكتاب فى لغته الأصلية – الفرنسية – عنوانه « تأملات فى المشكلة اليهودية » صدر عام ١٩٤٨ ، وترجم إلي الإنجليزية بعنوان Anti - Semite and Jew أعداء السامية واليهود .

(٢) فى كتيب بعنوان حل المشكلة اليهودية .

(٣) العقلانية التى يدعو إليها ليست هى مجرد إعمال العقل فى الأمور التى تحتاج إلى تفكير وروية ودراسة ونظر وتخطيط ، فهذه من لوازم الحياة البشرية ولا غنى للإنسان عنها ، وقد دعا الإسلام إلي التفكر والتدبر فى آيات الله فى الكون ليؤدى ذلك إلى الإيمان بالله ، والتفكر في تلك الآيات من جانب آخر لاستخلاص السنن التى يجرى الله بها أمور الكون المادى ، مما نشأ عنه فى حياة المسلمين إيجاد المنهج التجريبى فى البحث العلمى وما أدى إليه من تقدم هائل فى العلوم، والتفكر فى السنن التى يجرى الله بها أمور البشر فى الأرض لإقامة مجتمع سليم ، والتدبر فى أمور الشريعة لاستنباط الأحكام لما يجد فى حياة الناس من أمور مما أدى إلي ثروة فقهية أصولية هائلة ، والتفكر فى التاريخ لرؤية تحقق السنن الربانية التى لا يتسع عمر الفرد لرؤيتها فيراها متحققة فى آماد التاريخ . . ولكن العقلانية التى يدعون إليها هى قطع كل صلة للإنسان بعالم الغيب والتفرغ لعالم الشهادة فى حدود ما تدركه الحواس !! (انظر فصل العقلانية فى كتاب : مذاهب فكرية معاصرة) .

اليهودى سيشير إلي اليهودى ويقول : هذا يهودى ! فيستثير بذلك مشاعر الكره التى يتوجه بها الناس دائما إلي اليهود [١] ، فيقع عليهم تمييز مجحف . أما إذا الغى الدين ، واحتكم الناس إلى « العقل » ، فعقل اليهودى كعقل غيره من البشر، وعندئذ لن يقع تمييز مجحف على اليهود ، ويستطيعون أن يعيشوا فى المجتمع البشرى آمنين !

وأيا كان الأمر فقد اتجهت هذه العقلانية (الأوربية) منذ مولدها إلي معاداة الدين ، والتنديد به ، والتنديد بمعتنقيه ، والدعوة إلى خلعه خلعا كاملا ، أو في القليل تحجيمه بحيث لا يعود « مرجعا » يرجع إليه الإنسان فى تصرفاته الواقعية ، حتى إن بقى وجدانا مستسرا فى الضمير . .

فأين يقف « المثقفون » فى هذه القضية ؟

من الواضح أن هناك تطابقا كاملا فى كل هذه القضايا بين « المثقفين » وبين ما تريده الصليبية الصهيونية تجاه الإسلام . . فهل يحدث ذلك اعتباطا ؟!

ولا نقول مع ذلك إن كلهم عملاء ! . . حاشا !

ولكن نقول إن الغذاء المسموم الذى تغذت به نفوسهم وعقولهم وأرواحهم، يجعلهم تلقائيا يقفون هذه المواقف التى تطابق ما يريده الأعداء !

ولقد قام المستشرقون بالدور الأكبر فى هذا الجهد ، بما يكتبون من كتابات تشوه صورة الإسلام فى نفوس أولئك الذين يتتلمذون عليهم ، ويأخذون عنهم أمور هذا الدين !

* * *

وأخيرا يجئ دور أولئك التلاميذ !

لو بقى المستشرقون يقولون – بلغاتهم – ما يقولون ، وتلاميذهم يتأثرون بهم فى ذوات أنفسهم وكفي ، فالخسارة ستكون منحصرة فى أولئك التلاميذ الذين خسروا أنفسهم ، وخسرتهم أوطانهم ، واعتبروا فى حساب أوطانهم

---

(١) لم يبينا لماذا يتوجه الناس إليهم بالكراهية !

« مفقودين » ، وإن توهموا هم فى أنفسهم أنهم « القادة » الذين يقودون بلادهم إلى الخير والبركة والحضارة والتقدم : ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾

[الكهف : ١٠٣ ، ١٠٤]

ولكن هؤلاء التلاميذ لم يكتفوا بما فعلوه بأنفسهم ، بل سعوا إلى نشر ما تجرعوه من السموم على بقية الناس . وهنا كانت المصيبة الكبرى التى أصابت الأمة منهم ، فقد ضلوا ثم أضلوا كثيرا . .

إن أولئك المستشرقين حين يكتبون بلغاتهم فلن يقرأهم القارئ العادى الذى لا يعرف لغة أجنبية ، أو لا يتقنها إلي الحد الذى يتناول ثقافته عن طريقها . أما هؤلاء التلاميذ فإنهم يكتبون بالعربية ، لغة القارئ العادى . . لغة عموم المتعلمين من هذه الأمة . . ومن هنا . . من هذه النقطة بالذات بدأ التأثير السام ينتشر وتتسع دائرته ، ليشمل أفواجا من الناس بعد أفواج ، ويشمل أبعادا وآمادا ما كان له أن يبلغها قط لولا « جهود » أولئك التلاميذ !

ولم تكتف الصليبية الصهيونية المسيطرة على العالم الإسلامى بتكوين هؤلاء التلاميذ ، واحتضان من رأت فيه من المزايا ما يستطيع به التأثير فى الآخرين ، كما احتضنت قاسم أمين ، وسعد زغلول ، ولطفى السيد ، وطه حسين، وعلى عبد الرازق وعشرات غيرهم [١] . . إنما عملت على تكبيرهم فى نظر الجماهير بالدعاية لهم ، وترديد ذكرهم ، وإتاحة وسائل الإعلام لهم لينشروا أفكارهم ، وإضفاء صفات البطولة والعبقرية عليهم ، ليزداد تأثيرهم فى الجماهير المتولهة المشدوهة التى جبلت كما يقول كارليل على عبادة الأبطال !

ولا شك أن الجيل الأول - على الأقل - من أولئك التلاميذ كان موهوبا حقا فى جانب من الجوانب ، فإذا سلطت الأضواء على موهبته ، فقد تضاعف حجمها فى حس الجماهير ، وصار لها من التأثير أضعاف ما كان يمكن أن تصل

---

(١) اقرأ عن هؤلاء إن شئت فى كتاب « واقعنا المعاصر » .

إليه بجهدها الخاص ، لو تركت وحدها - بلا سند - مع الجماهير ! ،ولكن وسائل الإعلام - والصحافة خاصة في تلك الأيام [1] - كانت من أشد الوسائل التي صنعت من أولئك التلاميذ شخصيات خرافية ؛ لم يجد الزمان بمثلها في التاريخ ، وجعلت لهم بدورهم تلاميذ يقتفون آثارهم ، ويقلدونهم ، ويحاولون أن يصلوا إلى شئ مما وصلوا إليه ، ولو كانوا أقل من «أساتذتهم» مواهب ، ولو كانوا من الضحالة بحيث لا يستقيم لهم عود ، ولا يستقيم لهم وجود ! ولكنهم يستمدون من أجهزة الدعاية ما يسد عجزهم وما يرأب صدعهم ، لتتسع دائرة الفساد والإفساد في جسم الأمة الكبير !

* * *

والآن ماذا فعل التلاميذ في الجيل الماضي ، وماذا يفعل تلاميذهم في هذا الجيل ؟

إنهم - بوعي منهم وقصد أو بغير وعي ولا قصد - يقومون بالمطلوب كله!

المطلوب الأعظم هو زحزحة الأمة عن ركيزتها الكبرى المتمثلة في هذا الدين ، لتقيم بنيانها على شفا جرف هارٍ لا يصمد في معركة ، ولا يثبت في صراع ، ولا يجدى في مواجهة .

والمطلوب تخريج أجيال من الشباب خاصة ، لا هدف لهم ولا وجهة ، ولا همة ولا عزيمة ، يدورون في التيه .

والمطلوب حل الأخلاق ، وإطلاق الفتيان والفتيات هائمين على وجوههم ، يشغلهم الدنس الذى يعيشون فيه ويعيشون من أجله عن عظائم الأمور ، وعن تحمل المشقات التي يحتاج إليها البناء والتشييد ، في أمة تحتاج - لكي تعوض تخلفها - إلى كل ذرة من جهد ، وكل لحظة من وقت ، تقضيها في العمل الجاد الهادف فترات متطاولة حتى تحقق لها وجودا حيا في حلبة الصراع .

والتلاميذ يقومون بهذا كله !

---

(١) لم تكن الإذاعة قد وجدت حينذاك ولا التلفاز .

منهم المأجور الذي يقوم بما يقوم به لقاء أجر معين .. مالاً كان أو وجاهة أو سلطانا .. أو شهوات . ومنهم المستغفل الذى يظن نفسه يفعل الخير ، وينشر النور ، وهو غارق فى الظلمات !

كلاهما يؤدى دوره فى زحزحة الأمة عن الإسلام !

﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام : ١٣٢]

* * *

بل إن بعض التلاميذ قد فاقوا أساتذتهم « الكبار » من المستشرقين أنفسهم! وأبدعوا (!) بما لم يكن فى طوق الأساتذة الكبار أن يفعلوه ! فقالوا فى حق الإسلام والقرآن والرسول ﷺ والمؤمنين ما كان يتحرج بعض المستشرقين من قوله، ودعوا بدعوات مكشوفة فى شعرهم ونثرهم وقصصهم ومسرحياتهم وتآليفهم إلى الانسلاخ جهرة من هذا الدين وتحطيمه ، بينما كان المستشرقون – لأسباب « فنية » ! – لا يتبجحون بالدعوة الفاجرة المكشوفة ، وإنما يتسترون وراء البحث العلمى ليصلوا إلي ما يريدون !

ورضى المستشرقون عن تلاميذهم درجات من الرضى .. حتى إن بعضهم قد استغنى بتلاميذه عن الجهد المباشر فى الكتابة والتاليف ، فقَلَّ فى هذه الأيام ما ينتجون من الكتب التى تسعى إلي تشويه صورة الإسلام فى نفوس المسلمين ، وتركوا ذلك لتلاميذهم ، وتفرغوا هم للمهمة الأخرى التى يقومون بها لحساب الصليبية الصهيونية ، والتى اشتدت الحاجة إليها بعد الصحوة الإسلامية المباركة، وهى مهمة الدراسة الدقيقة لكل ما يحدث فى الساحة من حركات ، وكل ما ينبثق من أفكار ، وكل ما يتوقع فى المستقبل القريب أو البعيد من الأحداث ، وكتابة التقارير المفصلة عن هذه الأمور ، سواء نشرت فى الكتب ووسائل الإعلام الأخرى (وهى الأقل) أو بقيت « تقارير سرية » تؤدَّى لأولى الشأن وحدهم ، ليتدبروا أمرهم ، ويقرروا قرارهم بالنسبة لهذا الخطر العائد الذي لم يكن فى حسابهم أن يعود ، رغم كل معرفتهم بهذا الدين ، ومعرفتهم – كما قال جب –

بأنه ينبعث فجأة دون أن تعرف السبب فى انبعاثه ، ولا المكان الذى يمكن أن ينبعث منه !

والمتوقع أن يظل المستشرقون فى عملهم هذا لا ينقطعون عنه ، لأنه لا غنى لدولهم عنه :

﴿ وَلا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا ﴾

[البقرة : ٢١٧]

أما الأعمال الأخرى فالبركة فيمن أنجبوهم من التلاميذ ، يكفونهم مئونة الجهد ، ويريحونهم من عناء التفكير !

واجبنا نحو الاستشراق

يرى بعض المفكرين المسلمين أننا يجب أن نتابع كل ما يكتبه المستشرقون لنرد عليه ، حماية لعقول الشباب ان تتأثر بما يكتبون ، وأنه يجب أن تقوم بهذا العمل هيئات ومؤسسات متخصصة يكون همها جمع كل ما يكتب من كتب أو مجلات أو صحف أو نشرات ، لإعداد الرد عليها ، وأن يكون في كل جامعة من الجامعات العربية والإسلامية قسم لدراسة الاستشراق والرد على المستشرقين .

ورأيي أن الأمر لا يحتاج لهذا الجهد كله ، وإن كان بعضه ضروريا ومفيدا بإذن الله .

وذلك لجملة أسباب :

من بين هذه الأسباب أن معظم النشاط على الساحة لا يقوم به اليوم المستشرقون ، إنما يقوم به « المستغربون » ممن يحملون أسماء إسلامية ، ويكتبون بلغات المسلمين ! وليس كلهم يكتبون أبحاثا تدرس – وإن كان بعضهم يفعل ذلك – وإنما كثير منهم يكتبون مقالات ، أو يقيمون ندوات ، أو يلقون محاضرات ، أو يخرجون أفلاما في السينما ، أو لقاءات أو مسرحيات أو مسلسلات في الإذاعة والتلفاز . . والمعركة بينهم وبين الإسلام والمسلمين دائرة ومستمرة ، تأخذ ثوب « العلمانية » من جانبهم ، والدعوة إلي الإسلام من جانب الإسلاميين ، وتأخذ شكل تيارين متقابلين تماما ، أحدهما يلقى التأييد من جانب الصليبية الصهيونية ، والآخر يلقى الحرب والاضطهاد . . ولا يشكل المستشرقون على أي حال في الوقت الحاضر عنصرا بارزا في حلبة الصراع .

ومن الأسباب كذلك أننا لو اتجهنا إلي الرد على كل ما يكتبون فلن ننتهي! ويستطيعون هم بذلك أن يشغلونا مشغلة دائمة ، تبدد جهدنا بلا نتيجة ذات بال . فما أسهل أن يختلقوا كل يوم فرية يفترونها على الإسلام – والمعين جاهز!– ليشغلونا بالرد عليها وتفنيدها ، وإضاعة الوقت والجهد فيما لا يستحق إضاعة

الوقت والجهد فيه ، بينما هم كما رأينا في الفصول السابقة لا يكادون يضيفون جديدا فى الغثاء الذى يكتبونه ، إنما هى مجرد « أزياء » مختلفة لموضوعات مكررة ، يعاد الحديث فيها مرة بعد مرة ، وأهدافها واحدة رغم اختلاف الأزياء !

إنما يحتاج الأمر فى نظرى إلى شيئين :

الأول وهو الأهم والأكثر جدوى هو إزالة الغربة التى يقع فيها الإسلام اليوم، تلك الغربة التى أخبر عنها رسول الله ﷺ حين قال : « بدأ الإسلام غريبا وسيعود غريبا كما بدأ » [1] . والتى تتسبب اليوم فى جهل كثير من الناس بحقيقة الإسلام ، سواء فى جانبه الاعتقادى ، أو جانبه التعبدى ، أو جانبه السلوكى ، أو جانبه الفكرى . . وتحتاج من الدعاة إلي جهد متواصل طويل الأمد ، طويل النَفَس، صابر محتسب ، حتى تزول تلك الغربة بحول الله . وتلك هى مهمة « الغرباء » التى حددها رسول الله ﷺ فى حديثه تحديدا واضحا حيث قال : « فطوبى للغرباء ، يصلحون ما أفسد الناس من سنتى » [2] .

والحق أن إزالة تلك الغربة كانت تحتاج إلي عمل أوسع مما يستطيع الدعاة — وحدهم — أن يقوموا به . تحتاج إلي إصلاح نظم التعليم كلها ، بإزالة الروح العلمانية المتفشية فيها — المنقولة عن الغرب — وإقامتها على روح إيمانية [3] ، وإصلاح الدراسات الشرعية ذاتها بتحويلها من مجرد الحفظ والاستظهار إلى تربية الحاسة الاجتهادية التى تستوعب التراث جيدا لا لتقف عنده ، بل لتفيد منه فى إصلاح الحاضر ، والإعداد لمستقبل يقوم على قاعدة إسلامية صحيحة .

وتحتاج إلى إصلاح وسائل الإعلام ، لتكف عن بث الهبوط والانحدار الذى تبثه باسم « الفن » كأنما الفن لا يتعلق إلا بقبضة الطين من الإنسان ، ولا علاقة له بنفخة الروح !

---

(١) أخرجه مسلم .　　　　(٢) أخرجه الترمذى.

(٣) تكلمت عن هذه النقطة فى كتاب « حول التاصيل الإسلامى للعلوم الاجتماعية » ، وبينت أنه ليس المقصود هو قلب الدراسة كلها إلى مواعظ ! وإنما المقصود الانطلاق من منطلق إيمانى ، وذكرت نماذج توضح ما أهدف إليه .

﴿ إذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ * فَإذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ [ص : ٧١ ، ٧٢]

فإنما صار الإنسان إنسانا بنفخة الروح العلوية فى قبضة الطين ، ولم تكن قبضة الطين قط هى الإنسان !

وتحتاج إلى أمور كثيرة أخرى ليست قائمة في الوقت الحاضر . ولذلك يحمل الدعاة الحمل كله على أكتافهم ، فضلا عما يجدونه من اضطهاد وقمع ، وحرب لا تكفّ . ولكن هذا قدَرَهُم الذى قدره الله لهم ، وحسبهم ما بشرهم به رسول الله ﷺ من الأجر : « يأتي زمان الصبر ، أجر الواحد فيه كخمسين منكم . قالوا : منا أو منهم يا رسول الله ؟! قال : بل منكم ، فإنكم تجدون على الخير أعوانا ، ولا يجدون » (١) .

وكل جهد يبذله الدعاة فى تعريف الناس بحقيقة الإسلام ، هو فى الوقت ذاته عمل إيجابى فى مواجهة تخرصات المستشرقين والمستغربين جميعا ، فإن من يعرف هذا الدين المعرفة الحقيقية لا يستمع إلى تلك التخرصات أصلا ، ولا يلقى لها بالا إذا سمعها أو قرأها ، لأنه يعرف ابتداء أنها تخرصات ، وأن دين الله لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ولو كره من كره ، وقال من قال .

أما الأمر الثانى الذى نحتاج إليه فى مواجهة المستشرقين والمستغربين فهو تفنيد « القضايا » التى يثيرونها ، بالرد إلى الكتاب والسنة : ﴿ فَإن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾ [النساء : ٥٩]

وفرق بين تفنيد « القضايا » والرد على كل كلام يكتبونه عن الإسلا م ! فالكلام كثير لا ينتهى ! ويمكن أن يختلق كلام جديد فى كل يوم ! ولكن « القضايا » التى تثار محدودة ومعدودة ، وهى التى ذكرنا معظمها فى الفصول السابقة .

---

(١) أخرجه مسلم .

ولقد كان القرآن الكريم يرد على دعاوى المشركين ، أي على « القضايا » التي يثيرونها ، وليس على كل كلام يثيرونه في مجالسهم ! فقد كانوا لا يكفون عن الكلام بما تغلى به.قلوبهم من الحقد على الإسلام والمسلمين ، ولكنهم يثيرون « قضايا » معينة ، لا يفتأون يكررون الحديث فيها . كل بطريقته الخاصة ، وبما أوتى من قوة اللدد فى الخصومة واللجاج فى الكلام !

وما أشبه الليلة بالبارحة !

خصوم اليوم هم خصوم الأمس : اليهود والنصارى والمشركون والمنافقون. وهم يقومون بذات الدور الذى كان يقوم به أعداء الدين على عهد نزول القرآن .

﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ * هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ [الصف : ٨ ، ٩]

فإن تكن هناك قضايا جدت غير التى كان يثيرها مشركو مكة وأهل الكتاب يومذاك ، لأنها تولدت من مجرى التاريخ الذى استغرق أربعة عشر قرنا منذ ذلك الحين ، ، فلا بأس من تناول هذه القضايا وتفنيدها لمن علق فى قلبه شك بشأنها من كلام أعداء الإسلام المعاصرين ؛ أو لتقوية إيمان الناس بصدق دينهم وعظمة تاريخهم ، فقد قال إبراهيم عليه السلام حين سأله ربه : **﴿ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾** [البقرة : ٢٦٠]

فلا بأس ، لطمأنة قلوب المؤمنين ، من الرد على القضايا التى تستحق الرد من الركام الهائل الذي يلقى به المستشرقون - والمستغربون - فى الساحة الإسلامية لفتنة الناس عن دينهم . ولا بأس أن يكون فى الجامعات أقسام تبحث فى الاستشراق ، لكن لا لترد على كل صيحة فارغة من صيحاتهم ، وإنما لتفنيد ما يستحق التفنيد من قضاياهم ، ولتعرية الاستشراق ذاته ، ببيان دوافعه الحقيقية ، وبيان موقعه من المخطط الشرير الموجه من الصليبية الصهيونية ضد الإسلام والمسلمين . ثم لتعرية الجاهلية المعاصرة ، التى يسمونها « الحضارة

الغربية » ، والتى يدعو المستشرقون والمستغربون المسلمين إلي الأخذ بها بديلا من الإسلام ، وبيان الجوانب النافعة منها ، التى يجدر بالمسلمين أن يأخذوها ، والجوانب الهابطة المنتكسة التى يجدر بهم أن يستعلوا عليها بإيمانهم .

* * *

وختاما نقول: إن المعركة ضد الإسلام شرسة وحادة ، على جميع الأصعدة، ومن جميع الاتجاهات ، ويقوم بها اليوم العالم كله ، الصليبى الصهيونى ، والمشركون فى كل الأرض . ولكن قدر الله هو الغالب :

وقدر الله أن يبقى هذا الدين فى الأرض إلى يوم القيامة ، وأن يظهر على الدين كله ، مهما فعل المستشرقون والمستغربون ، ومهما بذلوا من جهود شيطانية للوصول إلى أهدافهم .

ولكن هذا القدر المقدور لا ينفى عن الأمة مسئوليتها ، ولا يقعدها عن بذل جهد مضاعف يزيل آثار الركود والقعود الذى أصابها فى فترتها الأخيرة ، وكما قال رب العالمين:

﴿ ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ﴾

[محمد : ٤]

وقال سبحانه بعد أن قرر أن الكفار لن يسبقوا قدر الله ولن يعجزوا الله، ولن ينالوا غرضهم:

﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ... ﴾ [الأنفال : ٦٠]

ومن القوة المطلوبة المعرفة بحقيقة هذا الدين ، ومعرفة كيد الأعداء ، والتحصن من هذا الكيد بالثبات على هذا الدين ، والصبر على تكاليفه :

﴿ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ﴾ [آل عمران : ١٢٠]

﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف : ٢١]

الفهـرس

الموضوع	الصفحة

رقم الإيداع ١٧٠١٤ / ٩٩
الترقيم الدولى I.S.B.N.
977 - 225 - HI 8